من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

{يُرِيدُونَ أَن يُطْفُِواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ 32 هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 32، 33].

{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ} [البقرة: 217].

{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: 120].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم محمد المجتبى، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى، وكل من بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعد ...

فهذا هو الجزء الرابع والأخير من سلسلة «حتمية الحل الإسلامي» الذي صدر الجزء الأول منها سنة 1971. ثم صدر الجزء الثاني «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» سنة 1974والجزء الثالث «بيانات الحل الإسلامي وشبهات المتغيربين والعلمانين »سنة 1987، فتأخر كثيرًا، وصدر هذا الجزء «أعداء الحل الإسلامي» سنة 2000 في ختام القرن العشرين. أي بعد ثلاثة عشر عامًا من صدور الجزء الثالث.

والعجيب في هذا الأمر أني حين عدت إلى ملفاتي وأضابيري - وما أكثرها - وجدت الكتاب عندي شبه مكتمل إلا من فصل واحد، وهو ما يتعلق بـ «الصهيونية» ومواد هذا الموضوع عندي، بعضها في الرأس، وبعضها في الطرس، وقد كتبت عن الصهيونية وعدوانها على فلسطين والمقدسات الإسلامية أكثر من كتاب، مثل «درس النكبة الثانية» بعد هزيمة 1967م و«القدس قضية كل مسلم» منذ سنتين وفصولًا مختلفة في عدد من الكتب، ومقالات متنوعة في عدد من الصحف.

وكان المفترض أن يصدر هذا الجزء الرابع مع الجزء الثالث الخاص

بالرد على الشبهات حول الحل الإسلامي، أو عقبه مباشرة، ولكن مما ابتليت به - وبعض الابتلاء نعمة - أن هناك مواضيع آنية تطلب مني لسبب أو لآخر، وتفرض نفسها عليّ، فأدع ما كنت غارقًا فيه إلى موضوع جديد، يستحوذ على ذهني وجهدي فترة من الزمن، حتى أفرغ منه.

ثم هناك أمر آخر يؤثر على سيري في الكتابة، وهو «السفر» فقد أعيش أحيانًا في موضوع ما، أشحذ له عقلي، وأشهر له قلمي، وأفرغ له وقتي، وهنا تتوارد الخواطر، وتتداعى المعاني، وتسترجع المعلومات، وتتهيأ المراجع، وأبدأ على بركة الله في الكتابة، وأقطع شوطًا جيدًا أغبط نفسي به، وأحمد ربي عليه، ثم لا يلبث أن يأتيني سفر قد يطول قليلًا، فينقطع حبل فكري، وينقلني إلى جو آخر، وقضايا أخرى، فإذا عدتُ من سفري، لم أجد المناخ النفسي والعقلي الذي عشت فيه من قبل، وأحتاج إلى جهد ومعاناة ووقت، حتى أستعيد ما كنت عليه من تهيؤ وتحفز، وقد أشغل عن الموضوع السابق بموضوع آخر ولَّدَتْهُ هذه السفرية، ولا أدري هل يُبتلى إخواني من الكُتاب والمصنفين بمثل ما أنا مبتلى به، أو هي بليتي وحدي؟ أسأل الله العون من عنده.

على كل حال، لقد فرحت بالمادة التي وجدتها عندي لهذا الجزء، وكأنها ركاز أو لقطة وجدتها، ومن عجائب الأقدار أن بعضها كتب مما يقرب من نحو ثلاثين سنة، وبعضها كتب بخطوط إخوة وزملاء فضلاء لي في المعهد الديني الثانوي في قطر عندما كنت مديرًا له. كانوا يساعدونني بتبييض ما أكتبه بخطي الردئ والسريع، ليكتبوه بخطوطهم الجميلة. وأكثرهم قد انتقل إلى رحمة الله وأنتهز هذه الفرصة لأذكرهم وأشكر هم، وأدعو لمن لقى ربه

منهم بالمغفرة والرحمة والرضوان من الله تعالى، ولمن كان حيًا بالحفظ والرعاية والتوفيق.

ومن هؤلاء الإخوة الأكابر: الشيخ/عليوة مصطفى عليوة العالم الشاعر وكيل المعهد الديني رحمه الله، والشيخ/محمد على الموافي العالم اللغوي الذي رقِّي من المعهد الديني إلى توجيه اللغة العربية بوزارة التربية، وقدر له أن يصاب في حادث سيارة، انتهى بوفاته رحمه الله، والأخ الداعية الشيخ/مصباح محمد عبده، الصديق الوفي الذي وافاه الأجل في الدوحة رحمه الله، والأخ العالم الداعية الشيخ/علي محمد جماز، الذي تولى إدارة المعهد بعدي، ثم عمل معي مدرسًا بكلية الشريعة رحمه الله، والمعلِّم المتميز الأستاذ/رشدي عبد الغني المصري، الذي نقل إلى توجيه اللغة العربية، ثم أحيل إلى التقاعد، وسافر إلى مصر، فإن كان حيًا فإني أسأل الله أن يحفظه ويرعاه، وإن كان ميتًا فأدعوا الله له بالمغفرة والرحمة وأن يخلفه في أهله وولده بخير. والأستاذ/أحمد محمد الصديق، الأديب الشاعر المعروف حفظه الله وسدد خطاه.

ولقد وجدت بعض المعلومات قد أصبحت قديمة فاجتهدت أن أحدثها ما استطعت، وربما أبقيت على بعضها، فليعذرني القارئ الكريم.

وقد أبقيت على بعض المادة الموجودة عمدًا، لأنها تمثل مرحلة لا ينبغي أن ننساها، كما في الحديث عن «الشيوعية» أو «الماركسية» فقد كتبت ما كتبت عنها يوم كانت الشيوعية تحكم الاتحاد السوفيتي، وعددًا من أقطار أوربا الشرقية، وبعض البلدان الإسلامية، مثل اليمن الجنوبي، وألبانيا، وكان لها أنصارها من «دعاة الماركسية» أو اليسار في كل مكان في العالم، ومنه

بلادنا العربية والإسلامية.

ولقد تغير الوضع الآن، وانهار الاتحاد السوفيتي، وسقط حكم الشيوعية في روسيا نفسها، البلد الأم للشيوعية، وفي أوربا الشرقية، ومنها بلاد إسلامية، مثل «البوسنة والهرسك» وكذلك «كوسوفا» وسقطت الشيوعية أيضًا في اليمن الجنوبي وألبانيا، وانتهت إلى غير أمل في العودة.

ولكن بقيت الشيوعية في بلد كبير كالصين، وبقى حكم الشيوعيين في الجمهوريات الإسلامية التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي، فقد اتفق الغرب والشرق على إبقاء الحكم الشيوعي فيها، خشية أن تكون الصحوة الإسلامية هي الوارثة، وبقى كثير من الماركسيين القدماء يدافعون بجَلَد عن الماركسية الساقطة في بلادها، ويزعمون ببجاحة أن هذا السقوط إنما كان للتطبيق، وليس للنظرية.

على أن الشيوعيين ما زالوا يكوّنون حزبًا قويًا داخل روسيا، ولا يبعد أن تأتي الفرصة يومًا لهذا الحزب ليثب على الحكم، ويمتلك أزمة السلطة بيديه، وقد عاد بعض الأحزاب الشيوعية في أوروبا للحكم مرة أخرى بعد سقوطه.

من أجل هذا، أبقيت على فصل «الشيوعية» بوصفها عدوًا دائمًا لرسالة الإسلام، وللحل الإسلامي.

ومثل ذلك فصل «الاستعمار» فقد يتوهم بعض الناس: أن الاستعمار قد ولى عهده، وحمل متاعه، ورحل إلى غير رجعة، والواقع أن الاستعمار باقٍ بصورة وأخرى، ولكنه غيَّر أساليبه السالفة، وغير شكله القديم، ولم يعد يحتاج إلى احتلال الأرض، والتحكم المباشر، بل بات يحكم من وراء ستار،

بالنصائح الملزمة، والرغبات التي هي في حقيقتها أوامر، والإشارات التي لها حكم العبارات، والتلويحات التي لها قوة التصريحات، وربما أكثر منها.

هذا هو ما يجري عليه الاستعمار الجديد، الاستعمار الإمبريالي الأمريكي المتجبر، المستكبر في الأرض بغير حق، الذي يقول ما قال قوم عاد: من أشد منا قوة؟ أو ما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى!

ولقد قلنا: إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء، ويغير جلده كالثعبان، ويغير وجهه كالممثل القدير، ويغيّر اسمه كالمزوّر المحتال، ولكنه هو هو، وإن غيّر صورته، وبدّل اسمه وعنوانه.

ومن أسمائه الجديدة الشهيرة والمروجة اليوم «العولمة» بمعناها السياسي، ومعناها الاقتصادين، ومعناها الثقافي.

على أن هذا الاستعمار قد يستخدم القوة العسكرية عندما يريد، كما رأينا ونرى إلى اليوم من ضرب ليبيا، وضرب السودان، وضرب أفغانستان، وضرب العراق، وفرض الحصار عليه، وتجويع شعبه، وإماته أطفاله، لعدم خضوع هؤلاء للاستعمار الجديد، والتمرد على أوامره، وليس لمجرد عمله الأحمق الظالم باحتلال الكويت. فقد كان وراء إغرائه باحتلالها.

بل نرى الأمريكان ينشئون لهم مرتكزات عسكرية في عدد من البلدان، يخزنون فيها معداتهم، ويشيدون فيها منشآتهم، ويضعون عليها بعض جنودهم، كما في بعض بلاد الخليج، وإن كان هذا في الظاهر برضا حكام هذه البلدان واتفاقهم، والواقع يقول: إنه منطق القوة والجبروت والاستكبار هو الذي فرض عليهم أن يعلنوا القبول، لأنهم لا يملكون أمام الفرعون المتأله أن

يقولوا: لا.

وأرجو أخيرًا أن يكون هذا الجزء متممًا للأجزاء الثلاثة الأخرى، ومكملًا للحقيقة التي أردت كشف القناع عنها للقارئ المسلم، حتى تتضح له الصورة بكل جوانبها.

فيعرف أولًا: ماذا جنت الحلول المستوردة، من الغرب أو الشرق على أمتنا؟.

ويعرف ثانيًا: أن الحل الإسلامي فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، ويعرف معالم هذا الحل وشروطه وخصائصه وآثاره.

ويعلم ثالثًا: الشبهات التي يثيرها من يثيرها حول الحل الإسلامي من العلمانيين والمتغربين، وأن لدى الإسلام من البينات ما يفندها ويرد عليها بالحجج القاطعة.

ويعلم رابعًا وأخيرًا: من هم خصوم الحل الإسلامي وأعداؤه الذين يقفون في وجهه، ويزرعون العقبات في طريقه، ويجتهدون في التشويش عليه، وتشويه صورته، والتشكيك في صلاحيته.

وقد عرفنا في هذا الجزء هؤلاء الأعداء الأساسيين، وهم: الاستعمار، والصهيونية، والشيوعية، والحكام المنافقون وعبيد الفكر الغربي، والمترفون والمتحللون. وقد تحدثنا عن كل عدو من هؤلاء في فصل خاص. وعرفنا لماذا يعادون الحل الإسلامي، والمنهج الإسلامي، ونحن نوقن أنه لا بديل عن هذا الحل، فهو الحل الأول، والحل الأخير، على أن نحسن فهمه، ونحسن

تطبيقه، ونعدّ الأمة لحمل رسالته.

فالحل الإسلامي ليس عصًا سحرية، وليس يعمل من خلال خوارق سماوية، إنما يعمل من خلال إرادة الأمة وقدرتها على العمل والإنفاق، والبذل والعطاء، واستعدادها لأن تغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها، وفق القانون الإلهي الذي سجله القرآن الكريم: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}** [الرعد: 11].

والحمد لله أولًا وآخرًا.

الدوحة ذو الحجة ذ420 هـ

الموافق مارس «آذار» 2000 م

يوسف القرضاوي

أعداء الحل الإسلامي

إن الجماهير المسلمة في كافة بلاد الشرق الإسلامي تريد الحياة في ظل الإسلام، وتحت راية القرآن، وتتطلع إلى اليوم الذي تعود فيه إلى الإسلام، أو يعود إليها الإسلام. الإسلام النقي من الزوائد والبدع والشوائب التي كدرت صفاءه، الإسلام كله بلا تفتيت ولا تجزئة لتعاليمه وأحكامه، الإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا في حياة الفرد، وشريعة توجه الأسرة وتحكمها، ومنهاجًا يصبغ حياة المجتمع كلها بصبغة الله **{وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ}** [البقرة: 138].ويقيم العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية على أسس القانون الإسلامي، والتوجيه الإسلامي، منهاجًا ينفخ في الحياة كلها من روح الإسلام، ويبني تصورات الأفراد وسلوكهم على دعائم الإسلام.

كم نسبة الذين يريدون العودة إلى حكم القرآن، وهدى الإسلام؟ إن الذي عرف الشعوب الإسلامية عن كَثَب، وخالط أهلها في مدنهم وقراهم، في حياتهم الخاصة والعامة، يدرك أن الدين هو الأمر الأول في حياة هذه الشعوب، وأنها لا ترضى بالإسلام بدلًا، ولا تبغي عنه حولًا.

صحيح أنه لم يحدث في أي بلد في العالم الإسلامي - باستثناء إيران - استفتاء على المبدأ الذي يحكم به المسلمون ويرجعون إليه في شئون حياتهم: أيحكمون بما أنزل الله أو بما استورده الحكام من الغرب والشرق؟ ولكن حدثت أشياء تشير إلى اتجاه الأمة في مناسبات شتى.

سأضرب مثلين من مصر التي يزعم زاعمون أن شعبها تحول في وقت

من الأوقات إلى مجتمع اشتراكي!!.

المثل الأول: يوم قام الأستاذ الشيخ محمد الغزالي في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية - كما يسمونها - وهو مؤتمر ضم عدة ألوف من أبناء مصر المنتخبين من دوائرهم وبلادهم، بعد أن أبعدت حكومة الثورة كل العناصر «الرجعية» التي يُخشى منها، أو لا يُرغب فيها، عن طريق ما سموه «العزل السياسي» أقول: قام الشيخ الغزالي في المؤتمر يدعو إلى تطهير البلاد وتحريرها من سيطرة الاستعمار العسكري، وذلك بالعودة إلى «التربية الإسلامية» التي تصوغ الأجيال الناشئة وتوجهها وفقًا لفكرة الإسلام، وآداب الإسلام، وإلى «الشريعة الإسلامية» التي تصبغ الفقه والقانون والإدارة وسائر التقاليد والأوضاع بصبغة الإسلام.

فماذا كان موقف أعضاء المؤتمر من هذه الدعوة؟ ماذا كان موقفهم حين سمعوا كلمة الغزالي، وهي تدعو إلى نظام غير النظام الذي تتبناه الحكومة التي دعتهم، وهيأت لهم هذا المؤتمر، ومعها سيف المعز وذهبه؟؟.

لقد غلبت الفطرة الإسلامية الأصلية في شعب مصر على كل المخاوف التي تتراءى أشباحها في مثل هذا الموقف وصفق المؤتمرون للكلمة الإسلامية تصفيقًا طويلًا حارًا مخلصًا، غاظ كثيرين من عبيد الغرب والشرق، ممن لم يصلّوا لله ركعة، ولم يصوموا له يومًا، ولم يعرفوا عن الإسلام شيئًا. اللهم إلا مناظر في الطريق العام، أو ذكريات من التاريخ القديم.

ومن هؤلاء الصحفي المصري المعروف «محمد التابعي» الذي كتب بعدها في صحيفة «أخبار اليوم» يقول: «أكتب اليوم كلامًا أعرف أنه

سيغضب الكثيرين، ولكنه حق، أنا لا أدافع هنا عن منكر خبيث وإنما أدافع عن حرية العقيدة التي نص عليها مشروع «الميثاق».

«ولقد صفق أعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، صفقوا طويلًا للعبارات التي جاءت في مشروع الميثاق عن حرية العقيدة، واحترامها، ثم عاد نفس السادة أعضاء المؤتمر وصفقوا طويلًا لفضيلة الشيخ محمد الغزالي، وهو يقول كلامًا يجافي حرية العقيدة على خط مستقيم «وعندما أقول: «صفق الأعضاء» فأنا أعني غالبية الأعضاء، وقد قدرتها بثلاثة أرباع الحاضرين، ولكن عضوًا بالمؤتمر صحَّح لي الرقم وقال: بل تسعة أعشار الحاضرين!!.

«تسعة أعشار أعضاء المؤتمر كانوا مع فضيلة الأستاذ الغزالي الذي استطاع أن يكسبهم إلى جانبه عندما استثار نخوة الرجولة فيهم بحديثه عن الفتنة التي تمشي في الشوارع عارية السيقان والصدر والظهر، وعندما استثار فيهم القوة الدينية بحديثة عن وجوب تحريم الخمر - مثل المخدرات - ووجوب الرجوع إلى أحكام ديننا الحنيف، دين الإسلام في سائر المعاملات والعقوبات وأن من قتل يُقتل ... إلخ».

ولا يعنيني هنا من تسجيل هذا الكلام المخالف صراحة لقواطع الإسلام إلا أن 90% من أعضاء مؤتمر شعبي منتخب عُزِلَت عنه «العناصر الرجعية» المعارضة لسياسة الثورة - كانوا مع كلمة الإسلام، وشريعة الإسلام، ومنهاج الإسلام.

وإذا كان التابعي يقول في مقالته تلك: إن في البلد مليونين ونصف المليون

من المواطنين الذين ينتمون إلي عقائد دينية أخرى، فكيف نفرض عليهم شريعتنا؟ تحرم عليهم الخمر مثلًا. فهذا منطق مرفوض.

إن مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين أو أربعة أو خمسة لا يجوز أن تحكم هي على ستين مليونًا، إن الأقلية يجب أن تتبع الأكثرية كما هو مفهوم الديمقراطية. وإلا كان معنى ذلك: أن الأقلية تفرض دكتاتورية على الأكثرية.

على أن الإسلام يحترم عقائد الأقلية وشعائرها، ويصون حرماتها ومقدساتها الخاصة، كما بينا ذلك في موضعه[1]. وليس من العقائد والشعائر شرب الخمر ولا التعامل بالربا، ولا إباحة الزنى. هذا مع أن من الفقهاء من أجاز لهم شرب الخمر في قراهم وأحيائهم خاصة.

والمثل الثاني: شبيه بهذا المثل. إنه تصفيق طويل حار من أعضاء الاتحاد الاشتراكي المصري في يوم 23 يوليو سنة 1967 عندما تحدث الرئيس المصري - جمال عبد الناصر - عن القيم الدينية، بعد هزيمة يونيو 1967 وقد سمع التصفيق كل من فتح المذياع في تلك الليلة.

علام يدل هذا المثل وذاك؟

إنه يدل على أصالة الإسلام وعمقه في ضمير جماهير الشعب، ويوم يتاح للشعوب استفتاء حر نزيه، سيعرف الذين حكموا وظلموا أي منقلب ينقلبون.

وإذا كانت الشعوب المسلمة وجماهيرها المؤمنة تريد الحل الإسلامي وتنفر من غيره فمن هم - إذن - الذين يقفون في وجه هذا الحل، ويعترضون

---

(1) انظر: فصل «الأقليات الدينية والحل الإسلامي» من كتابنا «بينات الحل الإسلامي» وكذلك كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

سبيله ويشوشون عليه وعلى دعاته بكل ما يملكون وما يستطيعون؟؟

مَن هؤلاء الذين يعادون الإسلام فكرة ورابطة ومنهج حياة، فيعادون بذلك الله الجليل فوق عرش! والنبي الكريم في قبره! وأبطال هذه الأمة وعلماءها في أربعة عشر قرنًا من الزمان؟! من هؤلاء الذين يتحدّون مشاعر أكثر من مليار مسلم متفرقين في القارات، يرون أن أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم هي الإسلام؟!

من هؤلاء المعارضون في الداخل والخارج؟ وما حجتهم؟ وما مصلحتهم في محاربة ما ارتضاه الله لعباده المسلمين وما رضيه المسلمون لأنفسهم؟.

إن هذا البحث هو إجابة مفصلة عن هذا السؤال حتى يعرف المسلم الواعي: من هم أنصار الله؟ ومن هم أعداء الله؟

* * *

(1)
الاستعمار

لماذا يعادي الاستعمار الإسلام؟

عامل الخوف

عامل الحقد

عامل الجهل

عامل الطمع

أساليب الاستعمار في الكيد للإسلام

مخاوف الاستعمار من الصحوة الإسلامية

* * *

الاستعمار

إن أول عدو للحل الإسلامي، وأقدم معارض لتحكيم شريعة الإسلام في المجتمع، وسيادة فكرته على الحياة هو: الاستعمار.

وكلمة «الاستعمار» عندي تشمل الاستعمار الغربي والاستعمار الشرقي ... والاستعمار الرأسمالي والاستعمار الشيوعي. فكل منها يحمل المخالب والأنياب التي يمزق بها فريسته بغيًا وعدوانًا وعلوًا في الأرض. ولا خلاف بينهما إلا في العناوين، وإن كان الاستعمار الثاني أشد وأنكى من الأول، فلم يحدث أن دخل هذا بلدًا وخرج منها، لا بالمفاوضة ولا بالثورة.

ومع هذا، فلهذا الاستعمار حديث مفرد يدخل تحت العنوان الذي اشتهر به، وهو «الشيوعية» أما الذي أعنيه بالاستعمار هنا خاصة، وأتحدث عنه، فهو الاستعمار الغربي الذي غزا أوطان المسلمين في غفلة منهم، وضعف من حكامهم، وتفرق من شعوبهم، وسيطر على مقدراتهم وتحكم في مقاليد أمورهم، يأخذ ما يشاء كما يشاء، متى شاء، ويعطي ما يشاء لمن شاء، كيف شاء. قد خلع على نفسه رداء الألوهية في أرض التوحيد والموحدين، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون!!

وعداوة الاستعمار للإسلام، ومقاومته للحل الإسلامي: قضية من الظهور والوضوح بحيث لا تحتاج إلى برهان. وحسبنا من ذلك قراءة بعض ما يكتبه الفريقان اللذان يعتمد عليهما الاستعمار في غزوه الفكري والاجتماعي للشرق المسلم وهما: «المبشرون» و«المستشرقون» ولا فرق بن المبشرين

والمستشرقين إلا أن الأولين يليسون مسوح الدين، والآخرين يليسون مسوح العلم.

وأكثر هؤلاء وأولئك كاذبون، فإنما هم خدم للاستعمار، وتحقيق أغراضه في السيطرة، والتمكين من بلاد الإسلام، وأمة الإسلام.

إن عداوة الاستعمار للحل الإسلامي لا تخفى على دارس أو متأمل، ولكن الذي يحتاج إلى معرفته هو: تجلية أسباب هذه العداوة وبواعثها حتي يتبين المسلم: لماذا يعادون الإسلام، ويقفون بكل قوة في وجه أية محاولة لإعادة القيادة للإسلام، ولإقامة دولة الإسلام في أي مكان؟

* * *

العوامل التي دفعت الاستعمار لمعاداة الإسلام

والذي يدرس علاقة الاستعمار بالشرق الإسلامي يتبين أن هناك عدة عوامل نفسية، هي التي تدفع الاستعمار إلى اتخاذ موقف العداء العلني والخفي للإسلام، ورسالته ودعاته، والعمل على عزل الإسلام عن الحياة، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

هذه العوامل مركبة من: الخوف، والحقد، والطمع، والكبر، والجهل. وسنفرد كلًا منها بحديث؟

عامل الخوف وأسبابه:

1- فأما الخوف فإن الاستعمار يريد أن تستمر سيطرته على ديار الإسلام وأن تظل له السيادة المادية على أرضه، والفكرية على عقول أهله، وأن تبقى عجلة القيادة العالمية بيده.

وانتفاض الإسلام وصحوته - باعتباره عقيدة وشريعة وحضارة وأخوة - يهدد الغرب في ذلك كله.

فالإسلام - كما قال المستشرق جب - ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية، ولكنه حضارة كاملة.

وخطورة هذ الحضارة: أنها حضارة واحدة تضم أمة الإسلام الكبرى في مشارق الأرض ومغاربها، على اختلاف المكان واختلاف الزمان، فلم تستطع العوامل الإقليمية المختلفة أن تؤثر فيها، أو تنال منها على تعاقب الأزمان، وتباين الأصقاع، مما جعل العالم الإسلامي كتلة سياسية خطيرة،

ذلك العالم المترامي الأطراف الذي يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم[2].

إن الإسلام «عقيدة انقلابية» شاملة تفرض نفسها على حياة الإنسان من ساعة يولد إلى أن يوضع في قبره، ولا تقبل الخضوع لأي أيديولوجية أخرى غريبة أو شرقية، دينية أو مدنية.

ومن خصائص هذه العقيدة: أنها تربي أتباعها على الاعتزاز بها ورفض التبعية لغيرها، كما تربيهم على معاني القوة والجهاد في سبيل الله الذي يعده المسلمون فريضة مقدسة من أعظم الفرائض، وعبادة من أفضل العبادات.

هذا يشير إلى أن الوحدة بين شعوب المسلمين - مهما تختلف أوطانهم وألوانهم ولغاتهم - فريضة إسلامية يأثمون إذا فرطوا فيها. وجذور هذه الوحدة قائمة في الأخوة الإسلامية العميقة التي تربط بين المسلمين في مختلف أقطارهم، وتوحد مشاعرهم وعواطفهم، وتذوب في حرارتها كل الحدود والفوارق التي تفصل بين الناس.

ومن أبرز الأمثلة على مخاوف الاستعمار من قوة الإسلام الكامنة. ومن وحدة أمته الكبيرة: مقال قديم كتبه المستشرق الفرنسي هانوتو مستشار وزارة الاستعمار الفرنسية ونشرت ترجمته صحيفة المؤيد في القاهرة سنة (1900) وكان له ضجة كبيرة في حينه، ورد عليه الشيخ الإمام محمد عبده ردًا مشهورًا.

تحدث هانوتو في مقاله: كيف اخترق المسلمون - أبناء آسيا - شمال القارة

(2) انظر كتاب: «الاتجاهات الوطنية» للدكتور محمد محمد حسين (198/2).

الإفريقية بسرعة لا تُجَارَى، كما تحدث عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية، وتحقيق الظفر للأخيرة في القرن التاسع عشر، وقال: ولكن لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية «استانبول» ومن جهة أخرى بمدينة «فاس» في المغرب الأقصى، معانقًا بذلك الغرب كله ... إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده.

ثم قال: ليس الإسلام في داخلنا فحسب، بل هو خارج عنا أيضًا، قريب منا: في مراكش ... في طرابلس الغرب ... في مصر ... في آسيا، حيث لا يزال قائمًا في بيت المقدس، ناشرًا أعلامه على مهد الإنسانية مقر المسيح. وقد انبعثت منه شعبة في بلاد الصين، فانتشر فيها انتشارًا هائلًا، حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونًا من المسلمين الموحدين في الصين، لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لبوذا.

وليس هذا الأمر بالغريب، فإنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده منتشرًا في الآفاق، فهو الدين الوحيد الذي دخل فيه الناس زمرًا وأفواجًا. وهو الدين الوحيد الذي تفوق الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه.

ثم إن هذا الدين قائم الدعائم، ثابت الأركان في أوربا عينها، أعني في الآستانة الطيبة، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين!

إلى أن يقول: وخلاصة القول: إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة، بها يديرون أعمالهم، ويوجهون أفكارهم إلى الواجهة التي تتحرك بحركته وتسكن بسكونه، ومتى اقتربوا من الكعبة البيت الحرام ... من زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس ... من الحجر الأسود المحاط بإطار من الفضة ... من الركن الذي يقولون عنه إنه «سرة العالم» وحققوا أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم، للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام، اشتعلت جذوة الحب الدينية في أفئدتهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفًا صفوفًا، وتقدمهم الإمام مستفتحًا العبادة بقوله **{بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}**. فيعم السكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف[3] من المصلين في تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم، ثم يقولون بصوت واحد: «الله أكبر» ثم تعنو بعد ذلك جباههم قائلين: «الله أكبر» بصوت خاشع يمثل معنى العبادة.

ثم يقول: لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن إسلامنا «في تونس والجزائر» ولا علاقة له به، لأنه وإن كانت البلاد «الإسلامية» التي تحتلها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة «دار إسلام» وإنما هي «دار حرب» فإنها لا تزال عزيزة موقرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان. والغضب ما زال يحوم حول قلوبهم، كما تحوم الأُسْد حول قفص حبس فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة، ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليهم من بينها.

---

(3) يبلغ عدد الطائفين والراكعين والساجدين من حجاج بيت الله الحرام في هذه السنن أكثر من مليونين وفي بعض السنوات ثلاثة ملايين. فليمت من شاء بغيظه.

ثم ينتهي إلى النتيجة بقوله:

«يؤخذ مما تقدم: أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح، وطي أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، ولكن لم تثبط هممهم، نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يدبرون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة[4] ...».

إن هذا المقال بأسلوبه المباشر المعبر، وعبارته الصريحة البليغة، ليبين لنا كيف ينظر رجال الاستعمار إلى الإسلام: وكيف تزعجهم الروابط الوثيقة التي يلمسون أثارها ومظاهرها بين المسلمين.

فكيف بهذه الروابط إذا تطورت إلى وحدة جامعة فيدرالية أو كونفدرالية؟! وإن أقرب ما تكون هذه الوحدة إلى الظهور والتحقق حين يعود المسلمون إلى الحل الإسلامي. فهناك تؤدي وحدة المناهج والأنظمة مع وحدة العقيدة إلى الوحدة السياسية الكبرى، متوجة بالخلافة الإسلامية العظمى.

وهذه كلها أشباح مخوفة تقض مضاجع الاستعمار، وتطرد النوم من أجفانه، وقد صرح بهذه المخاوف بعض الكتاب والمستشارين الذين يعملون في خدمة الاستعمار من المبشرين والمستشرقين وغيرهم من السياسيين.

تقول مجلة «العالم الإسلامي» الإنجليزية على لسان كاتب اسمه «أشعيا يومان»:

«إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي. ولهذا الخوف

---

(4) انظر: مقالة «هانوتو» ورد الإمام محمد عبده، عليها في كتاب «الإسلام والرد على منتقديه» للأستاذ الإمام.

أسباب، منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عدديًا، بل دائمًا في ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينًا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد، ولم يتفق قط أن شعبًا دخل الإسلام ثم عاد نصرانيًا».

ويقول القس «كالهون سيحون»:

«إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السُّمْر، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية، ولذلك كان التبشير يعمل على إظهار الأوربيين في نور جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصري القوة والتمركز فيها».

ويقول «لورانس براون» في كتابه: «الإسلام والإرساليات»:

«إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير».

وقد قال في كتاب آخر أصدره سنة (1844):

«الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدراته على التوسع والإخضاع وفي حيويته. أنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي».

وهذه العبارات الواضحة الصريحة في غنى عن التعليق عليها. إنها تجسد مخاوف الغرب المسيحي من هذا الشرق الإسلامي. ومخاوفه تتمثل في انطلاق الإسلام من قمقمه، فنظام الإسلام العادل ومنهجه الوسط، وحيويته البالغة، وقدرته على الانتشار والتوسع، واعتباره الجهاد من فرائضه وقدرته على توحيد الشعوب الإسلامية، وتجميع آمالها، ودفعها إلى التحرر من

السيطرة الأجنبية - كلها أشباح مخيفة مقلقة للاستعمار.

ومما زاد من خوف الاستعمار من دعوة الإسلام، وعودة منهجه إلى الحياة: أن الحركات القوية التي قاومته في العالم الإسلامي كله، وصمدت في وجهه، واستعذبت الموت في قتاله، كانت حركات إسلامية في حقيقتها، وإن استغل ثمرات جهادها بعد ذلك القوى غير الإسلامية من لصوص الحركات، وسراق الثورات.

حركة المقاومة للاحتلال الفرنسي في حملة نابليون على مصر إنما قادها علماء الأزهر وزعماء الدين، ولا غرو أن صب الفرنسيون نقمتهم على الجامع الأزهر، فدخلوه بخيولهم متحدّين مشاعر المسلمين.

حركة المقاومة للإنجليز في السودان إنما قادها, أجج نارها زعيم ديني هو محمد المهدي الكبير، وأتباعه من المتدينين[5].

---

(5) ولقد عرف الغربيون وجه هذه الثورات وروحها الإسلامي، فقاوموها مقاومة صليبية عنيدة، ووقفوا بكل قواهم في سبيل نجاحها.

وها هو مؤرخ أمريكي حديث هو «ألن مورهيد» يحدثنا عن فتح الغربيين لأفريقيا، ويجعل في كتابه فصلين: أحدهما تحت عنوان «التمرد المسلم» والثاني بعنوان «النصر المسيحي» ويذكر في الفصل الأول رأي القائد غوردن في قوة المهدي، وخشيته من اندلاع مثلها في كل مكان:

«إن الخطر الذي يجب أن نخشاه ليس زحف المهدي شمالًا عبر وادي حلفا، إنه لأمر بعيد الاحتمال أن يتجه شمالًا. إن الخطر من طبيعة مختلفة تمامًا. إنه ينبعث من وجود قوة محمدية منتصرة عند حدودكم. الأمر الذي سيثير الشعوب التي تحكمونها ... في كل مدن مصر سيقوم إحساس بأن ما يفعله المهدي يمكن أن يفعله المصريون، وكما طرد الدخلاء الكافرين يمكنهم أن يفعلوا نفس الشيء ... وليست إنجلترا وحدها التي ستواجه الخطر ... إن نجاح المهدي قد أثار المخاطر في أرابيا وسوريا» عن كتاب «الغزو الفكري» لجلال كشك (ص35). =

وحركة المقاومة للحفاء واليونان في تركيا كانت حركة إسلامية، كان هدفها جهاد الكفار، وتحرير أرض الإسلام، وإن جنى ثمرتها بعد ذلك الكماليون الملحدون. وحركة المقاومة للإيطاليين في ليبيا على يد «عمر المختار» وأعوانه كانت حركة إسلامية.

وحركة المقاومة للإسبان في ريف مراكش بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي الذي أقلقت قوته جميع الدول الأوربية، فتراكضت لمساعدتهم كانت حركة إسلامية.

ولقد علق المبشر «وليم كاش» على جهاد الأمير عبد الكريم في كتابه «العالم الإسلامي في ثورة» بهذه الكلمات المغيظة الحانقة:

«لقد التقى الإسبان بالحماسة العربية القديمة، واضطروا إلى أن يجلوا من مناطق نفوذهم موقعًا بعد موقع، حتى أصبحوا يحاربون وظهورهم إلى البحر مباشرة، وعلى وشك أن يخرجوا من شمال إفريقيا مرة واحدة. وهكذا نجد للمرة الثانية منذ الحرب العظمى (1914 - 1918) أن دولة أوربية ينقلب عليها جيش مسلم، فلقد اتفق أيضًا لثلاث سنوات خلت أن مصطفى كمال طرد اليونان من أسيا الصغرى، وتحدى بذلك سلطان أوربا القوي»[6].

ويقول «ألن مورهيد» في فصل «النصر المسيحي»:

«لقد انتهت هذه القلاقل «يقصد ثورة عرابي والمهدي» كما رأينا بالهزيمة الساحقة للإسلام على ضفاف النيل، ولكن ثبت أنها هزيمة مؤقتة ليس إلا، ومنذ سنة (1900م) وهناك تقدم منتظم للإسلام في شرق ووسط أفريقيا وفي الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جددًا من المسيحيين كما قال «رولاند أوليفر» إنهم يكسبون السباق» عن العزو الفكري (ص37).

(6) «التبشير والاستعمار» (ص129).

وقد ذكرنا أن حركة طرد اليونان لم تكن في حقيقتها إلا حركة إسلامية قطف ثمارها العلمانيون.

وحرب التحرير الجزائرية التي انتهت بالنصر، وخر فيها مليون ونصف المليون شهداء، كان الدافع الأول لها والروح المحرك لمجاهديها هو الإسلام. لقد رفع الفرنسيون شعار «جزائر فرنسية» فكان رد الجزائريين: بل جزائر مسلمة! كان نشيد كل جزائري منذ عهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله :

شـــعب الجزائـــر مســـلم وإلـــى العروبـــة ينتســـب

ولقد أدرك رجال السياسة الغربيون أن الإسلام وراء كل حركات الجهاد والثورة على حكمهم وتسلطهم، وكثيرًا ما أعلنوا ذلك شفاهًا أو كتابة في غير مواربة ولا خفاء.

لقد أعلن «جي موليه» رئيس الوزارة الفرنسية: أن الحركة الإسلامية التي تتسع في إفريقيا، هي التي تهدد الإمبراطورية الفرنسية في المغرب(7).

وكذلك أعلن «جورج بيدو» أحد وزراء الخارجية في فرنسا: أنه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب(8).

ويقول الكاتبان: كوليث وفرنسيس جانسون في أثناء حرب التحرير الجزائرية: إن الحرب الحاضرة في الجزائر «يعني حرب التحرير التي بدأت في سنة 1955» ليست حربًا دينية أو جنسية أو حضارية. ولكنها حرب

(7) «التبشير والاستعمار» (ص178)

(8) المصدر السابق وقد ذكر المؤلفان في كتابيهما: «الجزائر الثائرة» وقد ترجم وطبع في القاهرة.

مجموع مظلوم يريد أن يتحرر من ربقة مجموع ظالم. إلا أن الإسلام عنصر فعال في دفع الجزائريين إلى طلب هذا التحرر ... لقد أيقن الجزائريين منذ الأيام الأولى للاحتلال أن هدف الفرنسيين كان القضاء على الإسلام ... من أجل ذلك أدركوا جميعًا أن عليهم أن يعتصموا بالإسلام حتى يقدروا على التحرر. والواقع أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من الحرب الصليبية».

لقد نجح الاستعمار في تغريب العالم الإسلامي إلى حد بعيد، وصبغ أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع والتعليم بالصبغة الغربية.

ومع كل هذه النتائج التي لم تكن تخطر ببال ... لا زال الغرب قلقًا متوجسًا من ظهور قوة الإسلام فجأة وعلى غير توقع.

فالمراقبون للتطور الفكري والثقافي - رغم ارتياحهم للنتيجة - يساورهم القلق من تغير مفاجئ.

يقول البروفسور جب:

«إن الحركة الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا «صلاح الدين» جديد»[9].

والمراقبون السياسيون للشرق الإسلامي، لا يزالون يرون للفكرة الدينية

---

(9) من كتاب «وجهة الإسلام» والترجمة هنا للدكتور محمد محمد حسين من كتابه «الاتجاهات الوطنية» (206/2).

سلطانًا على أكثر الرؤوس، وللمشاعر الإسلامية تأثرًا في أكثر القلوب، هذا ما يخافون تطوره إلى حركة تنتهي إلى دولة.

ويتحدث الكاتب الألماني «هنرسين كاستر» في مقال له في (1964) تحت عنوان «الإسلام السياسي»[10] فليقول:

«إن الدور الذي يلعبه الإسلام في الأحداث الجارية بالشرق الأوسط لم يتضح بعد في أوربا ... ويمكننا أن نقرر أن التفكير الديني يحدد الكثير مما يجري في هذه المنطقة، وأن خلف العديد من المشاكل التي تجري في آسيا وأفريقيا تكمن العقيدة المحمدية ... وقد لا يرضى عن هذا التحليل الغربيون الذين نبذوا - منذ زمن بعيد - التفسير الديني للأحداث ولكن هذه هي الحقيقة[11].

ويقول السياسي البريطاني المعاصر أنطوني ناتنج في كتابه «العرب»: «منذ أن جمع محمد صلى الله عليه وسلم أنصاره الأولين في مطلع القرن السابع، وبدأ أول خطوات الانتشار العربي، أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض ... إن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى (1300) سنة في نهضته وانهياره»[12]

---

(10) يبدو أن هذا العنوان هو الذي قلده كثيرون من عبيد الفكر الغربي في بلادنا، أمثال سعيد العشماوي وغيره، وزعموا أنه من ابتكارهم، وهم مجرد نقلة مقلدين.

(11) عن كتاب «الغزو الفكري» للأستاذ جلال كشك (ص14).

(12) انطوني ناتنج: العرب (لندن 1964) – نقلًا عن كتاب «القومية والغزو الفكري» لمحمد جلال كشك (ص21).

هذه بعض أقوال المراقبين المفكرين والسياسيين، وهذه هي مشاعرهم.

أما المراقبون الدينيون من المبشرين ومن على شاكلتهم فهم أشد توجسًا وأكثر قلقًا.

يقول الأسقف «دي مسنيل» وكل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق - بروما:

«إن الأسباب العميقة لانتشار الإسلام وثباته المذهل سيظل أبدًا - بالنسبة لها - مشكلة لا تجد الحل»[13].

ويقول أسقف آخر في كتاب له عن نشأة الكنيسة والطوائف المسيحية في الشرق: «إن الشعب الإسلامي متمرد، ولا يتيح عملًا إيجابيًا مباشرًا للبعثات التبشيرية الكاثوليكية، وهذا الغزو لا يمكن الوصول إلى حله، وإن سره لا يعلمه غير الله وحده»[14].

عامل الحقد:

2- وأما عامل الحقد فمبعثه الهزائم الدينية والعسكرية المتلاحقة التي منيت بها النصرانية أمام الإسلام الزاحف المنتصر، فلم تملك إلا الخضوع لدولة الإسلام، أو الدخول في دين الله أفواجًا.

لقد اعتنقت شعوب مسيحية بأسرها عقيدة الإسلام، وزالت ممالك بأسرها من خريطة العالم المسيحي، لتصبح جزءًا من دولة الإسلام الكبرى، بعضها انتزع من دولة الروم البيزنطية في الشرق كمصر والشام وغيرهما، وبعض

(13) «الغرب والشرق» للأستاذ محمد علي الغتيت (ص75، 76).
(14) المصدر السابق.

آخر أقيم في عقر دار الغرب نفسه، في أوربا، حيث قامت دولة الإسلام في الأندلس لثمانية قرون.

صحيح أن الإسلام لم يُكْرِه أحدًا على اعتناقه باعتراف كافة المؤرخين - مسلمين وغير مسلمين - وكان التسامح الديني الرائع أبرز سمة يتميز بها الفاتحون المسلمون. لكن النتيجة على كل حال كانت هي انتشار الإسلام بين النصارى بفضل هذا التسامح نفسه، وهي نتيجة لم تزل ذكراها تؤذي أنفس الغربيين المسيحيين المتعصبين.

يقول المستشرق الألماني «بيكر»:

«أن هناك عداء من النصرانية للإسلام، بسبب أن الإسلام حين انتشر في العصور الوسطى أقام سدًا منيعًا في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها»[15].

لم يبدأ الصراع بين الإسلام والنصرانية أو بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي بالحروب الصليبية - كما يخيل إلى بعض الناس - بل بدأ ذلك منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم منذ غزوة تبوك في العصر النبوي، ثم اليرموك وأخواتها في عصر الراشدين.

لهذا يقرر مؤرخو الغرب - طبقًا لما رواه المؤرخ شميل الكبير - «إن مشاكل الشرق «أي بالنسبة للغرب» ولدت بمولد محمد رسول العرب، وأنها ترعرعت وشبت واكتهلت منذ عهد الخلفاء، وهي - على ما يرى - نظير فصول السنة، إذا بلغت نهايتها القصوى عادت وتجددت، فلا يكاد يرى لها

(15) «التبشير والاستعمار» (ص36).

آخر، فهي بنت الدين والسياسة، وتدوم بدوامها»[16]

ويقول جيبون:

«إن الحروب الصليبية بدأت بين الغرب والشرق العربي والمسلمين، يوم أعلن الغرب أن الأراضي التي يسيطر عليها العرب والمسلمون كانت أصلًا أرضًا مسيحية، ثم اغتصبها الإسلام، وأنه لابد من طرد أولئكم الغزاة الغاصبين»[17].

وكذلك يذكر المؤرخ إدوارد دريو: أن الحرب ضد الشرق تعتبر في نظر جميع المسيحيين الغربيين - حربًا مشروعة، لأنها تهدف إلى تصحيح وضع غير مشروع - نشأ باحتلال العرب الأراضي المسيحية»[18].

هذه نظرة الغرب إلى الشرق المسلم، وهي نظرة تفيض بالكراهية والحقد. وقد زادها اشتعالا ما مُنِيَ به الغرب في حملاته الصليبية المتتابعة على الشرق الإسلامي من اندحار وخيبة، على يد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود الشهيد، ثم على يد صلاح الدين وخلفائه، بعد قرنين من الزمان، أمضوها في محاولة الاستيلاء على الأرض المقدسة في فلسطين، وانتزاعها من أيدي المسلمين.

يقول المبشر «رشتر»:

---

(16) من كتاب «الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس» للأستاذ الغتيت (ص111),

(17) نفس المصدر السابق (ص211).

(18) من كتاب «الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس» للأستاذ الغتيت (ص112).

«جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدي المسلمين المتعصبين ... فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهود في العصور الوسطى كلها، ولكن ذلك الجهد قد خاب، وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلامي»!![19].

ولكن مبشرًا آخر يكشف النقاب عن حقيقة الدوافع الصليبية فيقول «جاردنر»: ولقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين، ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ... والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»!![20].

وبعد ذلك جهدت الكنيسة الصليبية زمنًا طويلًا لتنصير المغول، فلما اعتنق المغول الإسلام من تلقاء أنفسهم - بعد أن انتصروا عليه عسكريًا، وحطموا الخلافة العباسية. زال أمل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق عن طريق الدين[21].

ولم تقف هزيمة الغرب عند فشل الحروب الصليبية، فقد ظلت انتصارات الإسلام تتوالى على أوربا، عندما حملت الراية يد فتية جديدة، هي يد الأتراك العثمانيين، الذين حولوا آسيا الصغرى كلها إلى أرض إسلامية خالصة. ثم قام فتى الترك العظيم «محمد الفاتح» بفتح عاصمة الدولة البيزنطية «القسطنطينية» لتغدو عاصمة للخلافة الإسلامية، وتصبح مدينة المساجد والمآذن في أوربا.

---

(19) «التبشير والاستعمار» (ص114، 115).
(20) «التبشير والاستعمار» (ص114، 115).
(21) «التبشير والاستعمار» (ص114، 115).

لقد سقطت راية الإسلام في الأندلس، وانحسر ظل الإسلام عن جنوب أوربا، وأكره أكثر المسلمين هناك على الانسحاب، وأرغم الباقون بعد ذلك على التنصر أو الذبح، ولم يطل فرح الغرب بذلك كثيرًا، فقد خفقت راية الإسلام من جهة أخرى ... من الشرق.

يقول الأسقف «رولان»:

«إن انسحاب الإسلام من شبه جزيرة «آيبريا» «أسبانيا» لم يضع حدًا لمتاعب الكنيسة وقلقها. ولم يقف سيل هذه المتاعب التي كانت تجرها الكنيسة على نفسها، لاستهدافها القضاء على الإسلام، فما كان انسحاب الإسلام من إسبانيا، إلا ليطل هلاله عاليًا من أعلى قباب كنيسة «القديسة صوفيا» بالقسطنطينية، حيث أخذ الهلال مكان الصليب»![22].

وتوالت الانتصارات الإسلامية بعد ذلك فدخلت البلقان تحت سلطان العثمانيين، وتوغل الزحف الإسلامي في أوربا حتى كاد يكتسحها، حين هدد «فينا» سنة (1529) واستمر هذا التهديد أكثر من قرن ونصف حتى سنة (1683م).

وفي الوقت الذي أخذت فيه الخلافة العثمانية تتهاوى وتنهار كان الإسلام يتقدم في إفريقيا وحده، ويثير نقمة المبشرين وحسدهم، حتى قال الكاردينال «لافيجيري»: بينما كان الإسلام على وشك أن ينهار في أوربا مع عرش السلاطين من آل عثمان، كان لا يزال ناشطًا في تقدمه وفتوحه على أبواب

(22) «الغرب والشرق» (ص90، 91).

ممتلكاتنا الإفريقية»[23].

لقد كان لا بد لهذه الهزائم العسكرية والدينية التي أصابت المسيحية على يد الإسلام أن يكون لها أثرها في أنفس الغربيين الموتورة الحاقدة التي تتربص بالإسلام وأهله الدوائر، وتترقب الفرصة المواتية لتنفس عن أضغانها وتراتها وما ركبها من ذل الانهزامات القديمة.

من أجل ذلك كانت جميع الحروب الأوربية التي شنت فيما بعد على الدولة العثمانية حروبًا دينية صليبية في أساسها[24].

ولقد عملت الكنيسة الغربية جهدها على أن تجعل العداء الإسلام والحقد على أهله، سياسة ثابتة لدى ملوك الغرب وحكامه، وعاطفة راسخة لدى جماهير الناس يتوارثها الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد.

يقول المؤرخ «ليدوفيك دي كرنتش»:

«كان الغرب يعمل جاهدًا على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين في نفوس المسيحيين، يتلقونها خلفًا عن سلف، ويرضعها الطفل من شعور أمه، كما يرضع اللبن من ثديها، فتسري في كيانه مسرى الدم في عروقه»[25].

وقد ظلت هذه الروح الغبية تسري في أوصال الغربيين بأحقادها وعقدها إلى هذا العصر، الذي تمكن فيه الغرب المسيحي من الشرق المسلم، ولم

---

(23) «التبشير والاستعمار» (ص115).
(24) «التبشير والاستعمار» (ص115).
(25) «الغرب والشرق» (ص97).

يستطع الكثيرون منهم إخفاء هذه الروح الكامنة، فبدت في كتاباتهم وتصريحاتهم كلمات واضحة تنبئ عن هذا الحقد الصليبي الدفين.

ولم يخجل اليسوعيون أن يقولوا بصراحة: «ألم نكن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري، والتدين المسيحي ولنعيد - في ظل العلم الفرنسي، وباسم الكنيسة - مملكة المسيح»[26].

وليست هذه الأقوال وأمثالها مقصورة على المبشرين ونحوهم من رجال الدين، فقد وجدنا من القادة العسكريين ورجال السياسة والتوجيه، من يتجه هذا الاتجاه. وجدنا اللورد «اللنبي» القائد الإنجليزي، حيث يستولى على القدس سنة (1917)، وينتزعها من أيدي الأتراك، يقول كلمته المشهورة: الآن انتهت الحروب الصليبية!

ووجدنا القائد الفرنسي «غورو» حين يدخل دمشق سنة (1920) يقف عند قبر البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي ليقول شامتًا ومتشفيًا في كلمات معبرة: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»!

ولقد نقلنا من قبل كلمات «جي موليه» وجورج بيدو وغيرهما عن حركة الجهاد في بلاد المغرب العربي ونظرتهم إليها نظرة صليبية واضحة.

ولا يخفى على أي متتبع للحوادث ما قاله رئيس الوزراء البريطاني «غلادستون» في مجلس العموم: إنه لن يستقر لنا قرار في الشرق ما دام القرآن باقيًا»!!

---

(26) «التبشير والاستعمار» (ص115، 116).

وقد نقلنا من قبل بعض ما قاله مسيو هانوتو[27] في مهاجمة الإسلام، والتحذير منه.

ومثل هانوتو الفرنسي الكاثوليكي: اللورد كرومر الإنجليزي البروتستانتي الذي كان مندوبًا «ساميًا» للاحتلال البريطاني في مصر وقد هاجم الإسلام في كتاب «مصر الحديثة» وفي غيره من تقاريره إلى الحكومة.

يقول كرومرشك[28]: «إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني ...

ويعدد كرومر ما يراه من معايب الإسلام فيقول بأنه حرم المرأة من كل حقوقها، ويعتبرها أحط من الرجل، وأنه يبيح الرق، وأنه دين متعصب متطرف، يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورقيقًا، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاب الهمج، المحبين للحروب، والذين لا تتسع صدورهم لأي تسامح ...

ثم يأخذ كرومر في مقارنة بين المسيحية والإسلام، يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها، ويوازن بين أسلوب الشرقي وأسلوب

---

(27) في مقال له بالفرنسية ترجمته ونشرته جريدة المؤيد القاهرية سنة (1900) ورد عليه الشيخ محمد عبده في ثلاث مقالات مشهورة وقد طبعت بعدها مستقلة مع مقالات أخرى. انظر «تاريخ الأستاذ الإمام» (104/2) وما بعدها.

(28) عن كتاب «الاتجاهات الوطنية» (240/1) ط. ثانية وقد نقل المؤلف هذه الفقرات من النص الإنجليزي.

الغربي في الحياة والتفكير، محاولًا تحقير أسلوب الأول وتسفيهه ... إلخ.

ولقد برز الحقد الصليبي في أعمال ووقائع لا تحصى إلى جانب الأقوال والتصريحات المذكورة وغيرها. تجلى ذلك في مساندة حكومة «هيلاسلاسي» وما بعدها من الحكومات النصرانية ضد الأكثرية المسلمة في الحبشة. وفي مساندة «أفورقي» وقبيلته المسيحية ضد الأغلبية من المسلمين في «إريتريا».

وفي خلق مشكلة جنوب السودان التي نسج لحمتها وسداها الاستعمار من أول الأمر. ولا زال يغذيها بالمال والسلاح والعون المادي والأدبي إلى اليوم.

وفي تسليم جمهوريات أفريقية إسلامية لرؤساء مسيحيين.

وفي ممالأة القبارصة اليونانيين المسيحيين ضد الأتراك المسلمين.

وفي خلق القلاقل لنيجيريا المسلمة وخاصة المنطقة الشمالية منها التي يكون المسلمون القسم الأعظم من سكانها.

وقبل ذلك كله في صنع دولة العدوان والبغي «إسرائيل» خنجرًا مسمومًا في صدر العالم العربي والإسلامي كله، ذلك الخنجر الذي بدأت بصناعته بريطانيا، وقامت على إتمامه أمريكا، وساعدت فيه أخيرًا دول غربية عدة - هذه كله على رغم ما بين اليهودية والمسيحية من خلاف ومن تراث عدائي عميق الجذور.

إن الاستعمار يحاول أن يخفي روحه الصليبية ببعض الأقنعة الزائفة، ولكن ثوب الرياء يشف عما تحته، فإذا أغراضه الحقيقية تنكشف ماثلة للعيان. لماذا دخل الاستعمار الجزائر؟ قد يقال: إنه دخلها لتأديب حاكمها، أو

لتحقيق بعض المطامع المادية. ولكن الوقائع بعد ذلك تنبئ عن الروح الصليبية الكامنة تحت السطح في اللاشعور، بل في الشعور.

لقد دل على ذلك علم مدينة «الجزائر» في عهد الاستعمار الفرنسي.

وأظن هذه الأمثلة التي ذكرتها كافية في الدلالة على البواعث النفسية التي تحرك الغربيين، وعلى أن الروح الصليبية لم تمت بين جنوبهم، خلافًا لما يقرر بعض الكُتَّاب الغربيين الذين يجهلون أو يتجاهلون ما تفعله الأصابع الصليبية في الخفاء.

يقول: «جان بول رو» في كتابه «الإسلام والغرب»[29]:

«إن أوربا اليوم بعيدة كل البعد عن الروح الصليبية، بل إنها في الحقيقة قد تخلت عنها تمامًا، والحرب بالنسبة لها لم تعد قضية دينية، بل مسألة اقتصادية صرفة، ولم يعد في استطاعتها أن تفهم الإسلام عندما يتحدث عن الجهاد».

والعجب أن يصدق ذلك بعض المسلمين المسرفين في حسن الظن بالغرب، وينكر أو يوشك أن تكون المشاعر الصليبية باقية إلى اليوم في نفوس القوم، معتقدًا أن المصالح المادية وحدها هي التي تسيرهم، وتحدد علاقاتهم بالناس، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وهو رأي ترده كل الأدلة والتصرفات التي ذكرنا نماذج منها.

وأود أن أنبه على الفرق بين الروح الدينية والروح الصليبية التي أصف بها القوم، فإن جمهور الناس في الغرب لا يحلفون بالدين، ولا يحكمونه في حياتهم. وديانتهم هي المادية والنفعية، كما شهد بذلك شهود أهله، وكما سنبين

(29) (ص133) الترجمة العربية طبعة بيروت.

ذلك في فصل «عبيد الفكر الغربي» ولكنهم - مع هذا - ينظرون إلى الإسلام وأتباعه نظرتهم إلى عدو غلبهم قرونًا طويلة بقوته الروحية والمادية.

ولا مانع من أن ترى الرجل ملحدًا هناك، ولكنه يبغض الإسلام وحضارته وأمته بهذا الاعتبار، الذي خلقه الصراع المديد بين الشرق والغرب، وترك وراءه رواسب في المشاعر والأفكار، لا يزال لها تأثير وسلطان.

على أن في الغرب من الرجال المدنيين والعسكريين من لا تزال تحركه حوافز دينية خالصة أو غالبة. ومنهم من يرى المصلحة الاستعمارية في الاستجابة لأصحاب الحوافز الدينية، أملًا في استخدامهم لأغراضهم المادية.

وبهذا وذاك نعرف الدوافع المشتركة التي أفضت إلى التعاون الملموس بين التبشير والاستعمار بحيث نستطيع أن نسمي الاستعمار تبشيريًا، كما نسمي التبشير استعماريًا. لقد كان المبشرون يمزجون الدين بالسياسة، وكان الحكام والإداريون يمزجون السياسة بالدين، ولكن كما قال الدكتوران: مصطفى الخالدي وعمر فروخ: كان الدين هو الوسيلة، وكانت السياسة هي الهدف الحقيقي، والسياسة هنا معناها: استعباد الغرب للشرق»[30].

إن الاستعمار الصليبي يعتقد أن الإسلام هو العقبة الكؤود التي تحول دون توغله الفكري والحضاري، وتمسك المسلمين أن يذوبوا في ثقافته وحضارته، وكلما اختفى الإسلام من الميدان كلما استطاع الغربيون أن يؤثروا ويسيطروا بأفكارهم وثقافتهم ... فإذا ظهر الإسلام في صورة «دعوة» أو «حركة»، تحطم في سنوات ما بناه المستعمرون في أجيال.

---

(30) «التبشير والاستعمار» (ص38).

فكيف إذا برز الإسلام في صورة «دولة» تحكم بقرآنه وسنته، وتربي الأمة على هديه وقيمه، وتدير دفة الحياة بتعاليمه وقوانينه ووصاياه؟

لهذا نرى كثيرًا من كلماتهم تصب جام حقدها على القرآن وعلى الرسول وعلى مقدسات الإسلام كلها.

يقول وليم جيفورد بلجراف: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة من بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[31].

وهناك كُتَّاب آخرون - وخاصة من الكاثوليك - تدل كتاباتهم على أنهم مصابون بما يشبه «الهيستيريا» نتيجة خوفهم من الإسلام، وحقدهم عليه. فلنستمع إلى أحد هؤلاء.

يقول المسيو «كيمون» المستشرق الفرنسي، في كتابه «بايولوجيا الإسلام»:

«إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة، والذهول العضلي، وتكرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى

(31) انظر: كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» ترجمة الأستاذان مساعد الباقي، ومحب الدين الخطيب (ص55).

طبائع أصيلة: ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في الملذات ...

وينتهي مسيو كيمون إلى أنه يرى المسلمين وحوشًا ضارية، وأن الواجب إبادة خمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر «محمد» في متحف اللوفر ... !!

ومثل هذا الكلام السخيف لا خطورة له، إنما يدلنا على مبلغ ما تمتلئ به أنفس القوم من حقد دفين.

ومقترحاته الصبيانية لا أهمية لها. فقد كان القوم أعقل منه وأخبث وأمكر. لقد أراد القوم أن يصلوا إلى ما اقترحه كيمون وبلجراف وغيرهما من غير أن يدمروا الكعبة أو يمزقوا المصحف، أو يزيلوا قبر محمد صلى الله عليه وسلم. وذلك بتحطيم القوة الإسلامية من داخلها بالكيد والدس، وتسميم الأفكار، ووضع السم في الحلوى.

يقول الأسقف «دي ميسنيل» وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق بروما:

«إن الهدف الذي يتعين على المبشر تحقيقه، هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التي يتميز بها الإسلام، أو - على الأقل - إضعاف هذه القوة[32].

ونحن لا يسعنا - أمام هذه الأحقاد والمكايد - إلا أن نتلو قول الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ**

(32) «الغرب والشرق» (ص28).

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 32، 33].

عامل الجهل:

3- ومما يغذي عاملي الحقد والخوف عند الغربيين جهلهم بالإسلام ونبيه وكتابه وحضارته وأمته وتاريخه، وذلك من أثر الأفكار المشوهة المكذوبة التي روجها الدجالون المرتزقون بالدين، فيما بينهم كتابة أو شفاهًا. وهذه الحملة المسعورة من الأباطيل والأكاذيب قد شنها الأوربيون منذ الحروب الصليبية، ولم تخف حدتها إلا في نصف القرن الأخير، حين عرف الغربيون أن المسلمين يقرأون ما يكتبون.

وكان المبشرون في الزمن الأخير أكثر الذين كتبوا في تشويه صورة الإسلام، وإلصاق التهم الباطلة به وبأمته، ومثلهم كثير من المستشرقين الذين هم مبشرون يلبسون مسوح العلم!!

وأشهر هذه التهم أن الإسلام قام بالسيف، وأن هذا السيف أخضع شعوب آسيا وأفريقيا شعبًا بعد شعب، كما زعم «نلسون» ويقول آخر: إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح[33].

ولنقرأ هذا التصوير لظهور الإسلام للمدعو «كولي» في كتابه «البحث عن الدين الحق» حيث قال عن الإسلام: «في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب ... لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون

(33) «الغرب والشرق» (ص41).

«يعني يموتون شهداء» في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات «الجنة» وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هددها الخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا. لقد أصيبت المدينة!».

وينقل لنا الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجتمع العلمي العربي بدمشق نصًا عن المؤلف الفرنسي جورج هاردي من كتابه «قضايانا الاستعمارية الكبرى» يقول:

يرى أعداء الإسلام أن الأمم الاستعمارية ستخفق في محاولاتها ترقية المسلمين «كذا» وتقريبهم منها، لأن الإسلام عدو طبيعي للمدنية الأوربية. وهو دين تعصب شديد، أو هو كما يقول الإنكليز والأمريكان: «دين ناشز» ومناف للاجتماع! فبدلًا من أن يتأنس أو يتحضر، نراه في كل يوم أشد تمسكًا بعقيدة صلبة عقيمة، والإسلام يتجنب الغير، وينتهي إلى الجامعة الإسلامية، أي إلى مذهب سياسي من أشد المذاهب خطرًا على سلام العالم. ولذلك يحلم بعض الإنكليز اليكسوئيين بأن يجروا عليه آخر حملة صليبية. ويرى كثيرون ممن لا يذهبون إلى هذا الحد: أن من واجب الدول الاستعمارية تنظيم دعاية واسعة على الإسلام، وأنه يجب اتخاذ كل الوسائل لحصر الإسلام في معقله الديني، ونشر الدعوة إلى الإلحاد أو إلى النصرانية في أواسط المسلمين»[34].

هذه الصورة المشوهة للإسلام تدل على الحقد الدفين عند القوم على الإسلام، كما تدل على جهلهم الشنيع بأصوله وتعاليمه، فليس الإسلام خطرًا على سلام العالم، وإنما هو خطر على البغي والطغيان في العالم، وإلا فهو

(34) من كتاب «محاضرات في الاستعمار» للأمير مصطفى الشهابي (ص190) ط. معهد الدراسات العربية بالقاهرة.

دين السماحة والسلام والرحمة والبر والأخوة الإنسانية.

ومن أدلة الجهل المغذي لحقد ذلك النشيد العجيب الذي كان يلقنه الجنود «الطليان» أثناء حربهم لليبيا العربية المسلمة. وقد جاء في هذا النشيد الفاشيستي على لسان جندي لأمه:

«يا أماه» أتمي صلاتك، ولا تبكي، بل اضحكي وأملي.

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا، لأبذل دمي، كي أسحق الأمة الملعونة.

لأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان!!

سأقاتل بل قواي، لأمحو القرآن»!![35]

... وإن لم أرجع، فلا تبكي على ولدك، ولكن اذهبي في كل مساء، وزوري المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأبى الحداد على فلذة كبدك.

وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليَّ «فأجيبيه» إنه مات في محاربة الإسلام[36]!!

---

(35) علق السيد رشيد رضا على هذه العبارة حيث ذكرها الأمير شكيب أرسلان في كتابه «لماذا تأخر المسلمون؟» بقوله: الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين، وهو تزوج البكر والثيب، ولكن الإفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الإسلام، وتبيح لهم مدنيتهم الزنا، حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم، لا سيما الطليان منهم. اهـ.

(36) انظر: مجلة الرابطة الشرقية (عدد 2) من السنة الثالثة – نوفمبر (1930) نقلًا عن الاتجاهات الوطنية لدكتور محمد محمد حسين. وانظر كذلك: «لماذا تأخر المسلمون

فهذا التعصب الأعمى، والعداء المستميت والحقد الأسود على الإسلام وأهله، مصدره الجهل الذي غذاهم به القساوسة والكهنة طيلة القرون الوسطى.

عامل الطمع:

4- وأما عامل الطمع الاستعماري فهو مكمل لعامل الخوف، أو هو أساس له في الواقع، فإن ما يطمع الاستعمار فيه من المغانم والمصالح ومناطق السيطرة والنفوذ، يخاف عليه من الضياع كله أو بعضه.

ومطامع المستعمرين في ثروات الشرق الإسلامي وخيراته وبتروله لا تخفى على أحد.

وكل يقظة إسلامية أو حركة إسلامية يعدها المستعمرون خطرًا على هذه المطامع، وتهديدًا لهذه المصالح.

ولا أريد أن أتوسع هنا في شرح هذا العامل، فذلك مما لا يختلف فيه اثنان والذين ينكرون أو يشكون في بعض العوامل الأخرى، لا يشكون في هذا الدافع الذي يدور حول المصالح الاستعمارية في آسيا وإفريقيا وحرص الاستعمار على دوام استغلاله لثروات هذا العالم الشرقي، واعتباره الإسلام هو العقبة الكؤود في سبيل ذلك، لأنه المحرض الدائم على المقاومة والتحرر من سلطان الأجنبي الكافر، والداعي إلى الجهاد في سبيل الله لاستخلاص الحق من مغتصبيه.

= ولما تقدم غيرهم؟» للأمير شكيب أرسلان: منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت (1965م).

فمصالح الاستعمار ومطامعه المادية، ومكاسبه السياسية والاقتصادية، لا ضمان لبقائها إذا استيقظ العملاق الإسلامي من نومه، وانطلق من قمقمه.

عامل الكبر:

5- وأما عامل الكبر، فمصدره أن الغربيين يعدون أنفسهم سادة العالم، وأن هذه السيادة ليست مرحلة مؤقتة من التاريخ اقتضتها ظروف معينة، بل لأنهم جنس أرقى من سائر الأجناس البشرية، يجري في عروقهم دم أزكى وأفضل من دماء الآخرين. هو «الدم الآري» وهم ينظرون إلى العالم كله وإلى التاريخ كله من زاوية أوربا. كأنه ليس على خريطة العالم إلا أوربا، وليس في تاريخ العالم غير أوربا. فتاريخ القرون الوسطى يبدأ بسقوط روما، والتاريخ الحديث يبدأ بسقوط القسطنطينية، فإذا تحدثوا عن جهالة القرون الوسطى وظلامها وتخلفها لم يلتفتوا إلى الحضارة الزاهرة التي صنعها الإسلام في الشرق وفي الأندلس.

إنهم يرون حضارتهم أم الحضارات، وفلسفتهم أولى الفلسفات، وتشريعهم أبا التشريعات.

هذه النظرة هي الغالبة عليهم، والشائعة فيهم، وإن لم تخل مجتمعاتهم من أفراد معتدلين منصفين، شهدوا للإسلام وأهله وحضارته شهادة فيها كثير من العدل والإنصاف.

فإذا جاء من الناس من يدعو إلى الإسلام عقيدة ونظامًا وحضارة، من يعد عقيدته أطهر العقائد، ونظامه أعدل النظم، وحضارته أسمى الحضارات، ويعد أمته خير أمة أخرجت للناس، وتاريخها أمثل تاريخ عرفه البشر جميعًا،

ويرى في الإسلام حلًا لكل عقدة، وعلاجًا لكل مشكلة، وغِنًى عن كل مذهب، أو فكرة في الشرق أو في الغرب. فهذا أمر يسوء الغربيين ويصدم غرورهم بأنفسهم ومبادئهم وأنظمتهم وحضارتهم، ويثير فيهم روح المقاومة لهذا الإسلام الذي يجعل من نفسه وصيًا على العالم، ويجعل من أتباعه شهداء على الناس، ويفرض أستاذيته على سائر الأمم كما قال كتاب الإسلام: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة: 143]، **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}** [الحج: 78].

إن شعور الاستعلاء الأصيل في طبيعة الإسلام ودعاته واستعصاء أمته على التبعية الفكرية، والعبودية السياسية، التي أراد الغرب أن يفرضها يومًا على الشرق الإسلامي، قد أثار كبرياء الغربيين ونقمتهم على الإسلام ودعوته وجعله يقفون موقف المناوأة والمعاداة لكل من يدعو إليه، ليقود الحياة من جديد.

أساليب الاستعمار في الكيد للإسلام:

كانت أساليب الاستعمار في حرب الإسلام وتعويق دعوته، كثيرة جدًا. نذكر منها:

1- التشكيك في الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة، وشن حملات التشويه على رسول الإسلام وكتابه وأمته وتاريخه، وذلك عن طريق الدراسات الاستشراقية والتبشيرية التي قام بها رجال يلبسون مسوح العلم

أو الدين، وهم أبعد شيء عن العلم والدين. ثم تولى المهمة من بعدهم تلاميذهم وخريجوهم ممن ينتسبون إلى الشرق والإسلام بالدم والنسب والاسم، وإن كانوا غربيين بالثقافة والفكر والروح.

2- تحويل أفكار المسلمين ومشاعرهم عن الإسلام والولاء له، والتكتل تحت رايته، والأخوة في ظله، إلى رايات وشعارات ودعوات دخيلة على حياة المسلمين، أجنبية عن أفكارهم ومشاعرهم كالقومية والعلمانية، والرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية - بمفاهيمها الغربية - وكلها بضاعة استعمارية أجنبية.

3- نشر الأفكار الإلحادية والنظريات المادية التي تجحد الإيمان بالله ورسالته، وتقوم على أن لا شيء في الوجود سوى المادية الحسية. وهذه الأفكار بطبيعتها إذا انتشرت وسادت وقفت عقبة في طريق الدعوة إلى الإسلام. وذلك عن طريق التعليم والمناهج المدرسية والجامعية، وطريق الصحافة والإعلام والثقافة العامة.

4- نشر الانحراف الخلقي والإباحي، وتعميق جذورها، وآثارها في المجتمع، عن طريق وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها. وبذلك تفسد الأجيال الناشئة وتنحل أخلاقها، فلا تصلح لحمل رسالة الإسلام، بل تقاومها وتنفر منها، لأنها ضد شهواتها.

5- خلق زعامات دينية زائفة تقاوم الفكر الإسلامي الصحيح، وتوفير كل الإمكانات لترويج بضاعتها وتكثير أنصارها، مثل غلام أحمد القدياني صنيعة الاستعمار البريطاني في الهند. وذلك كله على حساب قوة

المسلمين ووحدتهم. فقد أحدثت الدعوة القاديانية فتنة بين المسلمين، واعتبرها العلماء والمفكرون «ثورة على النبوة المحمدية» ولكن الإنجليز أيدوها بقوة.

6- إثارة النعرات الوطنية والقومية المختلفة والتي من شأنها أن تمزق وحدة المسلمين، ورابطتهم الأخوية. والتي تحول ولاء المسلم لدينه إلى ولاء لوطنه الصغير أو قوميته الضيقة. لقد حاولوا أن يلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية تشغله بنفسه وتعزله عن إخوته المسلمين.

«لقد أرادوا أن يبعثوا «الفرعونية» من خلال حجارة «الأهرام» ومعابد الكرنك في مصر»، و«الفينيقية» من خراب الساحل الممتد من يافا إلى اللاذقية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. ثم إنهم لفقوا في العراق دعوة «أشورية» لم يكتب لها أن تولد حية[37].

7- خلق زعامات سياسية لا دينية، وإضفاء البطولة عليها زورًا، واصطناع انتصارات لها، وتظاهر الاستعمار بالانهزام أمامها لتتعلق بها الجماهير وتتخذها أصنامًا مقدسة.

وبذلك يتمكن الاستعمار من الاعتماد عليها في طعن الإسلام ودعاته. وتحويل الأمة عن الإسلام «الناشز» إلى اللادينية الطيّعة!

وهكذا صنعوا زعامة كمال أتاتورك لإبعاد تركيا عن الإسلام. ولا زلنا نرى خلفاء له وأشباهًا في البلاد العربية تضخم لهم الدعاية وتصطنع لهم البطولات.

---

(37) انظر: «التبشير والاستعمار» للدكتورين: عمر فروخ ومصطفى الخالدي (ص174).

8- خلق قيادات فكرية وأدبية من عبيد الفكر الغربي، وأنصار العلمانية، ونفخهم بوساطة الإعلام وأجهزته، حتى يصبح صوتهم مسموعًا، ولواؤهم مرفوعًا، ومخالفهم مقموعًا، وتهيئة كل الفرص لهم، ليبرزوا بروز العمالقة، ويظهر خصومهم أقزامًا مدحورين.

وفي بلادنا العربية والإسلامية كثير من هؤلاء المنفوخين، الذين أضيفت عليهم الألقاب الهائلة، فهذا عميد الفكر، وهذا أستاذ الجيل، وذلك ركن الأدب، وآخر مستشار الثقافة ... وهم في الحقيقة أشبه بالبالونات المنتفخة، تكفي شكة دبوس لتفريغها، فلا تكاد تجد منها شيئًا.

9- وفي مقابل هذا التضخيم والتفخيم للزعامات العلمانية الزائفة تقوم حملات منظمة لتشويه سمعة المخلصين من دعاة الإسلام، بنشر الأكاذيب، وتلفيق التهم، حول شخصياتهم، وحول فكرتهم التي يدعون إليها، لصرف الناس عنهم.

10- تضييق الخناق على كل حركة إسلامية صحيحة الاتجاه. فإن لم يكف التضييق والاضطهاد الخفي، كان اللجوء إلى التنكيل والتشريد، وكيل الضربات الوحشية التي لا تتورع عن القتل تحت السياط وآلات التعذيب سرًا، وعلى أعواد المشانق أو بإطلاق الرصاص علنًا[38].

قد يصنع ذلك الاستعمار بيديه مباشرة، وقد يفعل ذلك بالإيعاز والتشجيع لعملائه وأعوانه وحلفائه. وكل اللادينيين حلفاء طبيعيون للاستعمار،

---

(38) كما في حادثة «ليمان طرة» التي قتل فيها بضعة وعشرون سجينًا بنيران المدافع والبنادق، بغير ذنب، إلا أنهم طالبوا ببعض حقوقهم. انظر وصف هذه المجزرة في كتاب «أقسمت أن أروي» للكاتب اللبناني المسيحي «روكسي معكرون».

وأصدقاء مؤيدون من قبله، يبارك خطواتهم، ويعضد اتجاهاتهم، ويمدهم بالعون المادي والأدبي لضرب أعدائه «الإسلاميين المتعصبين»!!

لا يتورع الاستعمار المتربص الحقود من سفك الدم إذا لم يجد وسيلة غيره. وخاصة مع كل زعيم أو قائد يخشى أن يكون له دور مؤثر في حياة بلده أو شعبه، وأن يقوم وراءه تكتل قوي، حينئذ يحكم الاستعمار الصليبي سرًا بالإعدام على هذا الزعيم أو الفكر، ويختلف التنفيذ باختلاف البلاد والأحوال والظروف.

وهكذا قتل حسن البنا وعبد القادر عودة ومحمد فرغلي وسيد قطب، وأحمدو بللو، ومالكولم أكس، وفيصل بن عبد العزيز، في أوقات كانت أوطانهم وشعوبهم أحوج ما تكون إليهم. وإلى حسن قيادتهم.

هل حدث ذلك كله صدفة؟ أو هو تخطيط قوة جبارة تعمل لحرب الإسلام، لها أيد وأجهزة خفية تنفذ لها ما تريد؟

مخاوف الغرب من الصحوة الإسلامية:

وإذا كان الاستعمار القديم يقف موقف العداء للحل الإسلامي، وللنهج الإسلامي، وللفكر الإسلامي، والعمل الإسلامي، فقد ورث الغرب الحديث هذه الروح، ولم تزل تسري في كيانه، وإن كان بعض الغرب قد تخلى عن فكرة الاستعمار، ولكن أكثر الغرب - للأسف الشديد - لم يتخلّ عن الروح الصليبية. على أن بعض الغرب لا زال يحمل فكرة الهيمنة الإمبريالية بصورة أو بأخرى، كما يتجلى ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل الاستعمار الجديد، والتي تسير في ركابها بريطانيا أيضًا، كما ترى ذلك في

مواقفهما من العراق وحصاره، وضرر شعبه بالطائرات والقذائف والصواريخ، وقتل أطفاله بالتجويع، ومنع الغذاء والدواء.

وقبل ذلك حصار ليبيا لعدة سنوات، وبعد ذلك حصار السودان، وضرب بعض المواقع فيه - مصنع الشفاء للدواء - بالطائرات والصواريخ.

وقد جهد الغرب جهده، ومكر مكره، واستعان بكل مارق وخائن ممن ينتسب إلينا بلسانه، وعقله وقلبه ضد أمته. وكان أكبر همه أن يحول دون انطلاق المد الإسلامي، ويؤخر انبلاج فجر الصحوة الإسلامية. ولكن من الذي يستطيع أن يوقف التاريخ، أو يناطح المريخ، أو يقاوم الأقدار، أو يحارب القهار، أو يمنع بزوغ النهار؟

لقد تفجر سيل الصحوة الإسلامية في كل مكان، ورأيناها صحوة كعقول وأفكار، وصحوة قلوب ومشاعر، وصحوة إرادات وعزائم، وصحوة عمل وسلوك، وصحوة غيرة وحماس، وصحوة دعوة وجهاد، وصحوة تغيير وإصلاح. وتجلى أثرها في الشبان والشابات، وفي الجوامع والجامعات، وفي الثقافة والفكر، وفي ميادين الجهاد وفي الاقتصاد والسياسة، وفي الأسرة والمجتمع، وفرضت نفسها على الساحات كلها، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وقد فوجئ الغرب بهذه الصحوة الهائلة، ففقد توازنه، بل جن جنونه، وطفق يهرف بما لا يعرف، ويخبط خبط عشواء، كيف ظهرت هذه الصحوة؟ متى تم الحمل بها؟ ومتى ولدت؟ وكيف ترعرعت؟ وكيف شبت؟ وأين كنا نحن في هذا الوقت؟ وفي هذه المراحل كلها؟ وكيف نعطل مسيرتها أو نعوقها على الأقل، وكيف نغري الحكام بالصدام معها؟ وكيف نضرب

بعضها ببعض؟ وكيف؟ وكيف؟

وبدت هذه المخاوف في ندوات تعقد في العلن. وجلسات تعقد في السر، وقرارات تتخذ، وحرب تعلن جهرة أو تمارس خفية.

إنه القلق بل الرعب من الإسلام: أن تنكشف غمته، وتنزاح محنته، وينطلق مارده، ويعود إلى سابق عهده، استقامة ويقينًا وقوة ووحدة.

هذا ما يخافه الغرب ويفزع منه إذا لاح بخاطره، ويحسب له ألف حساب وحساب. وهو ما يحلم به فزعًا في الليل، ويفكر فيه قلقًا في النهار.

لقد رصدت مئات الملايين لدراسة الصحوة، ثم لتعويقها، وخصوصًا بعد أن سقط الاتحاد السوفيتي، ورشح «الإسلام» ليكون هو «العدو الجديد» الذي ينبغي أن تعبأ له القوى، وتجند لمقاومته الطاقات، وتحشد ضده مشاعر الخوف والكراهية، بعد تجلية التهديد بخطره، والتخويف من شره وشرره.

وقد حاول بعض العلمانيين المتبجحين أن ينكر تخوف الاستعمار والصهيونية والغرب الصليبي بصفة عامة، من دعوة الإسلام، وصحوة الإسلام وحركة الإسلام، وأمة الإسلام. وزعم أن هذه أسطورة لا ظل لها في الحقيقة[39].

وحسبي هنا أن أسجل بعض ما نشرته الصحف الغربية أو الإسرائيلية عن الصحوة الإسلامية والتحذير منها، وتحريض الحكام على ضربها بوحشية، حتى لا تقوم لها قائمة.

---

(39) هو الدكتور فؤاد زكريا، وقد رددنا عليه في أواخر كتابنا «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه».

وما أذكره هنا هو قليل من كثير، وغيض من فيض.

1- نشرت صحيفة الصنداي تلغراف البريطانية في عددها الصادر في 1978/12/17، وعلى الصفحة السابعة عشرة مقالًا بقلم يبر غرين دورستورن، أشار فيه: أن الغربيين يقعون في خطأ كبير، حين يظنون أن الخطر الذي يتهدد مصالحهم في الشرق الأوسط هو خطر الشيوعيين؛ لأن الخطر الحقيقي والوحيد، الذي يتهدد مصالح الغربيين وأصدقائهم في المنطقة هو خطر المسلمين المتطرفين، والذين تعاظم نشاطهم بشكل مذهل، رغم كل ما أوقعته بهم النظم الصديقة للغرب في المنطقة، من محن وتنكيل.

ويؤكد كاتب المقال أن الأحداث الجارية في منطقة الشرق الأوسط تشير إلى أن التيار الإسلامي المتطرف، أصبح قائمًا في جميع بلدان المنطقة بدون استثناء.

ويقول الكاتب: إن أكبر خطأ يرتكبه الغربيون، هو عدم تفكيرهم - بجدية - في ضرورة التدخل العسكري المباشر في المنطقة، في حالة عجز الأنظمة الصديقة عن كبح جماح المتطرفين المسلمين! ويؤكد أن شعور الغربيين بالندم وتأنيب الضمير إزاء تورطهم في الحرب الفيتنامية، يجب أن لا يكون سببًا في إقناعهم بعدم استعمال القوة العسكرية ضد المتطرفين المسلمين؛ لأن خطر هؤلاء المتطرفين المسلمين لا يقارن بأي خطر آخر، مهما كان.

وينهي يبرغرين دورستورن مقاله قائلًا:

«إن مجرد الاكتفاء بمراقبة الانتفاضة الإسلامية في الشرق الأوسط، لن

يفيدنا بشيء، وإذا لم نبادر إلى مقابلة هذه الانتفاضة بعنف عسكري، يفوق عنفها الديني، فإننا نكون قد حكمنا على العالم النصراني بمصير مهين، يجلبه على نفسه، إذا استمر تهاوننا في مواجهة المسلمين المتطرفين».

2- في تعليقها على أحداث إيران وتركيا قالت صحيفة «كمشلر الفايجلر»، التي تصدر في كولونيا بألمانيا الغربية:

«إن الأحداث الأخيرة في تركيا وإيران، وعودة نشاط الاتجاه الإسلامي في مصر، وغيرها من الدول العربية، تعطي الدليل على أن الإسلام وحده، وليست الدول الكبرى أو الأنظمة الموالية لها، هو الذي يلعب الدور الرئيسي في منطقة الشرق الأوسط».

وقالت الصحيفة: «إن على الغرب أن يدرك - الآن - أن المستقبل القريب، سيشهد تحولًا جذريًا في منطقة الشرق الأوسط لمصلحة الاتجاهات الإسلامية، وعلى الغرب - إذا أراد المحافظة على الحد الأدنى من مصالحه في الشرق الأوسط - أن يبدي مرونة في تفهم مقاصد الاتجاهات الإسلامية، التي تسعى للحصول على كيان جديد قوي، يتلاءم مع «الإسلام»».

3- نشرت صحيفة الجروزلم بوست الصهيونية، في عددها الصادر في 1978/9/25، مقالًا كتبه حاييم هيرتزوغ السفير اليهودي السابق لدى الأمم المتحدة، تحت عنوان «كي لا نخسر الأصدقاء، ونشد من عضد الأعداء» قال فيه:

«إن ظهور حركة اليقظة الإسلامية بهذه الصورة المفاجئة المذهلة، قد أظهرت بوضوح أن جميع البعثات الدبلوماسية، وقبل هؤلاء جميعًا، وكالة

الاستخبارات الأمريكية، كانت تغط في سبات عميق».

وقال هيرتزوغ:

«إن معلومات كثيرة عن طبيعة الإسلام وعن القوى الإسلامية الفعالة النشطة كانت متوفرة لدى زعماء الغرب، وخاصة أولئك المسؤولين عن الأمن في واشنطن، وإن جهودًا كثيرة بذلت لكبت نشاط الحركات الإسلامية المتعصبة، ولكن الأحداث الأخيرة في المنطقة الإسلامية، وعودة الاتجاه الإسلامي ليمارس نشاطه على نطاق واسع في مصر وأفغانستان وسوريا وتركيا وإيران وغيرها، قد أظهرت أن جميع الأساليب، التي اتبعت لكبت نشاط الحركات الإسلامية كانت أساليب فاشلة على المدى البعيد، رغم ما حققته من نجاح لفترات قصيرة».

وأردف حاييم هيرتزوغ قائلًا:

«إننا نشهد اليوم ظاهرة غريبة ومثيرة للاهتمام، وتحمل في ثناياها الشر للمجتمع الغربي بأسره، وهذه الظاهرة هي عودة الحركات الإسلامية، التي تعتبر نفسها عدوة طبيعية لكل ما هو غربي، والتي تعتبر التعصب ضد اليهود بشكل خاص، وضد الأفكار الأخرى بشكل عام فريضة مقدسة».

4- وفي عددها الصادر في 1979/1/21، نقلت صحيفة «الرأي» الأردنية عن وكالة الأنباء الفرنسية أن صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية ذكرت أن الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» طلب من وكالة المخابرات الأمريكية أن تعد دراسة عن نشاطات الحركات الإسلامية في العالم كله.

ونسبت صحيفة «الواشنطن بوست» إلى «زبيغنيو بريجينسكي» مستشار البيت الأبيض - آنذاك - لشؤون الأمن القومي قوله:

«إن الإدارة الأمريكية تشعر بقلق بالغ إزاء تزايد نشاط الحركات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، وأن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى إعداد دراسة جديدة حول الحركات الإسلامية المتشددة، ليسهل على الإدارة الأمريكية وأصدقائها في المنطقة الإسلامية مراقبتها عن كثب، حتى لا تفاجأ باندلاع ثورة إسلامية جديدة في أي مكان في العالم الإسلامي؛ لأن أمريكا حريصة على عدم السماح للإسلام بأن يلعب دورًا مؤثرًا في السياسة الدولية».

5- وذكرت صحيفة «القبس» الكويتية في عددها الصادر في 1979/1/24، أن مجلس الأمن القومي الأمريكي طلب من هيئة المخابرات البريطانية تزويد الإدارة الأمريكية بكل ما يتوافر لديها من معلومات تتعلق بالحركة الإسلامية، والاستعانة بها في وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على خطرها قبل فوات الأوان.

6- وفي عددها الصادر في 1979/7/8، نقلت صحيفة «القبس» الكويتية أيضًا عن صحيفة «فورتشن» مقالًا آخر، وجاء فيه ما يلي:

«إن الاتجاه الديني في مصر يرسخ أقدامه يومًا بعد يوم، فالشباب المصري مفتون بالصحوة الإسلامية الثورية، كما أن الفتيات المصريات يبدين اهتمامًا متزايدًا بالإسلام. وفي جامعة القاهرة يزيد عدد الطالبات الملتزمات بالزي الشرعي، وقد يأتي يوم لا تبقى فيه طالبة مصرية واحدة،

إلا وقد ارتدت الزي الشرعي الإسلامي».

وأردفت صحيفة «فورتشن» تقول:

«إن هناك خطرًا كبيرًا من أن تتمكن الحركة الإسلامية من العودة إلى التأثير على الحياة السياسية في مصر، وهذا الأمر يخيف الرئيس السادات، الذي عبر عن خوفه بخطابه الشهير في جامعة الإسكندرية حين قال: إنه لن يسمح للدين بالتدخل في السياسة.

وهذا الأمر تخشاه - أيضًا - إسرائيل؛ لأنها تعتبر أن الإخوان المسلمين هم أشد أعدائها، الذين يهددون وجودها؛ لأنهم يرفضون الاعتراف بها، ويجاهرون بالدعوة إلى إعلان الجهاد المقدس ضدها».

الإسلام قادم، ونحن في خطر عظيم ...!

7- نشرت صحيفة «القبس» الكويتية في عددها الصادر في 1981/1/16، أن الجنرال الكسندر هيغ، وزير خارجية الولايات المتحدة في عهد الرئيس رونالد ريغان، قد أكد أنه يؤمن إيمانًا عميقًا بأن المساعدات الأمريكية لنظام الرئيس أنور السادات ستعزز قدرته على الصمود أطول مدة ممكنة في وجه المخاطر الخارجية، التي تهدده، بالإضافة إلى الخطر الأعظم، الذي يتمثل في تعاظم نفوذ الحركة الإسلامية في مصر.

8- نشرت صحيفة «الرأي» الأردنية في عددها الصادر في 1981/1/20م، تحليلًا نشرته صحيفة «الايكونومست» البريطانية، جاء فيه:

«بعد أن توقف نهر النيل عن الفيضان، ظن الناس أن عهد الفيضانات في مصر قد انتهى، ولكن لم يكن صحيحًا، فإن مصر تشهد اليوم فيضانًا عارمًا،

ولكن من نوع جديد، ذلك فيضان الإسلام المكافح بقيادة الإخوان المسلمين.

ليس بمقدور السادات ولا النميري أن يوقفا المد الإسلامي المتصاعد في مصر والسودان».

وتختم «الايكونومست» تحليلها بتوجيه نصيحة مبطنة، تؤكد فيها أن الوسائل العادية في محاربة الحركة الإسلامية لن تجدي نفعًا في القضاء عليهم، وأنه لا بد من اتباع أسلوب أشد بطشًا وقمعًا، للفتك بالحركات الإسلامية والقضاء عليها.

وتنهي «الايكونومست» تحليلها بهذه العبارات، التي تسخر - من خلالها - من الأساليب، التي كان يتبعها السادات والنميري في محاربة الإخوان، فتقول:

«إن كل محاولات السادات والنميري لتطويق نشاط الإخوان المسلمين بالأساليب، التي يتبعانها أحيانًا، تبدو أشبه ما تكون بمحاولة طفل صغير يضع أصبعه في ثقب صغير في سد كسد أسوان، ليمنع انهيار الماء المتدفق من آلاف الثقوب الأخرى في السد».

9- ونشرت صحيفة «السياسة» الكويتية في عددها الصادر 1981/8/3م، في رسالتها الإخبارية من بلجيكا، أن مخابرات حلف الأطلسي أعدت دراسة عن الأوضاع في الشرق الأوسط، أكدت فيها استنتاجات اللجنة الثلاثية، التي كانت مؤلفة من الرئيس الأمريكي الأسبق نكسون، وكيسنجر، والسياسي الاقتصادي الأمريكي روكفلر، والتي أشارت إلى أن العالم الإسلامي سيشهد في منتصف الثمانينات صحوة دينية حقيقية،

تعمل على هدف مزدوج، وهو الجهاد لإزالة إسرائيل وإزالة النفوذ الأمريكي، والقضاء على المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

وأكدت دراسة مخابرات حلف الأطلسي ضرورة الإسراع في اتخاذ الإجراءات المناسبة الحازمة للقضاء على جميع بوادر اليقظة الإسلامية في المنطقة، قبل استفحال أمرها.

10- نقلت صحيفة «الدستور» الأردنية في عددها الصادر في 1981/9/9م، عن صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية تحليلًا سياسيًا، يحتوي كل سطر فيه على تحريش سافر ضد الحركة الإسلامية الجادة في مصر. فيما يلي أهم فقرات هذا التحليل:

«مع نهاية شهر رمضان تجمع أكثر من مائة ألف[40] من المسلمين المتطرفين لأداء صلاة العيد في ساحة مقابلة لقصر عابدين، حيث يقيم السادات، ولم يكن الأمر مجرد أداء صلاة، بقدر ما كان مظاهرة عدائية، تتحدى السادات وسياسته، وبخاصة أنها جاءت في وقت يستعد فيه السادات للسفر إلى بريطانيا وأمريكا، مما يعطي انطباعًا بأن مركزه في مصر أصبح ضعيفًا أمام المعارضة الدينية.

إن الجماعات الإسلامية المتطرفة تهدف إلى تحويل المجتمع المصري من مجتمع علماني إلى جمهورية إسلامية، تتبنى حكومتها تعاليم القرآن. ومن

(40) الواقع أن المصلين في هذ المرة كانوا حوالي نصف مليون، فقد ازدحم ميدان عابدين على سعته، وازدحمت كل الشوارع المؤدية إليه من جميع الجهات، كما شهدت ذلك بنفسي، وكنت خطيب العيد يومئذ، وقد اضطرت السيارة التي تحملني أن تقف في مكان بعيد، حيث كانت الشوارع كلها مكتظة بالمصلين، والحمد لله.

الطبيعي أنه إذا قامت هذه الجمهورية الإسلامية في مصر، فلن يبقى للسادات مكان في السلطة.

رغم أن السادات ملأ الجامعات والمعاهد المصرية بالبوليس السري وبرجال المخابرات، ورغم أنه أصدر تحذيرات شديدة للمتطرفين بعدم التدخل في الشؤون السياسية، إلا أنه فشل فشلًا ذريعًا في إيقاف تقدم الجماعات الإسلامية وانتشارهم في الجامعات والمعاهد المصرية. وإذا أراد السادات أن يتغلب على هذا الخطر الذي يهدد نظامه، فعليه أن يقوم بعمل أكبر من إصدار التحذيرات. انتهى.

* * *

(2)
الصهيونية

نشأة الحركة الصهيونية وكيدها للإسلام.

سبب المعركة بيننا وبين الصهاينة (ليست السامية ولا اليهودية).

الصهيونية تعمل على تهويد العالم.

الماسونية وصلتها باليهودية العالمية.

إسرائيل هي الخنجر المسموم في جسم العروبة والإسلام.

الاستعمار الصهيوني أخبث أنواع الاستعمار.

قلق الصهيونية من الصحوة الإسلامية.

* * *

الصهيونية

إذا كان الاستعمار يمثل «العدو الأول» للحل الإسلامي، فإن «الصهيونية» أو «اليهودية العالمية» هي العدو الثاني، الذي يقاوم بكل قوة النهج الإسلامي، والحل الإسلامي، والعمل الإسلامي، وكل ما هو إسلامي.

ولقد كان يمكنني أن أضع «الصهيونية» ضمن «الاستعمار» فهي في الحقيقة استعمار ولا ريب، بل هي أشد أنواع الاستعمار خطرًا، وأبعدها أثرًا، وأطيرها شررًا، وأعنفها ضررًا، لأنه استعمار استيطاني إحلالي ظالم، كما سنبين بعد.

ولكني آثرت أن أفرد هذه العدو «الصهيونية» بفصل خاص، لشدة خطرها وخبثها ومكرها وتميزها عن غيرها، من الأعداء حتى إنها قد أثرت فيهم جميعًا بأقدار متفاوتة.

لماذا تعادي اليهودية الإسلام؟

لم يبدأ الإسلام اليهودية بالعداوة، بل سماهم القرآن مع النصارى «أهل الكتاب» واعتبر موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وأن الله اصطفاه برسالاته وبكلامه **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** [النساء: 164]. واعتبر الإيمان بموسى وبكتابه «التوراة» جزءًا لا يتجزأ من الإيمان الإسلامي، فلا يصح إيمان مسلم ما لم يؤمن بذلك، ويعلنه: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}** [البقرة: 285].

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى «المدينة» وجد فيها عدة قبائل يهودية تقيم بضواحي المدينة. وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فعقد معهم معاهدة مشهورة، اعتبرها كثير من الباحثين بمثابة «دستور» مكتوب لتنظيم العلاقة بين الرسول والمؤمنين وغيرهم من الفئات. ولا سيما اليهود، في حاله السلم والحرب. ولكن اليهود سرعان ما غلبت عليهم طبيعتهم في الغدر ونكث العهود، فنقضوا الميثاق بينهم وبين الرسول الكريم، قبيلة بعد أخرى، بدأت ببني قينقاع، ثم النضير، ثم قريظة، الذين انضموا إلى الأعداء المغيرين على المدينة، وقلبوا ظهر المجن للمسلمين، في وقت كانت الاتفاقية تفرض عليهم أن يساندوا المسلمين في الدفاع عن المدينة المعرضة لخطر الإبادة.

ثم كانت بعد ذلك معركة خيبر ذات الحصون المنيعة، والشوكة القوية. بل إن اليهود ذهبوا إلى قريش وغطفان وأحابيشهما، وقادوا حملة التحريض على الرسول وأصحابه، وأغروهم بغزوه في عقر داره بالمدينة، وأنهم سيكونون معهم عليه، وقد سألهم المشركون الوثنيون سؤالًا مهمًا وخطيرًا: أنحن أهدى أم محمد؟ فخان اليهود الأمانة، ونطقوا بالباطل الصراح، وقالوا لهم: أنتم أهدى من محمد! ففضلوا الوثنية على دين التوحيد، زورًا وبهتانًا. وسجل القرآن ذلك عليهم حين قال: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}** [النساء: 51، 52].

واضطر الرسول والمؤمنون أن يخوضوا معارك كتب عليهم فيها القتال وهو كره لهم، مع اليهود الغادرين، نصر الله فيها عبده ورسوله وحزبه،

وخذل الله أعداءه من العرب ومن اليهود. وكان نداء المسلمين ونشيدهم: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ولم تكن معركة الإسلام مع اليهود مجرد معركة عسكرية، بل كانت - إلى جوار ذلك - معركة دينية وأخلاقية وفكرية.

لقد شن القرآن على اليهود حملة هتكت سترهم، وأماطت اللثام عن فضائحهم ومواقفهم المخزية طوال التاريخ، حتى موقفهم من نبيهم موسى نفسه، الذي قالوا له بمجرد نجاتهم من الغرق، حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: **{قَالُواْ يَامُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِين}** [الأعراف: 138 - 140].

وموقفهم من موسى حين قال لهم: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، فجبنوا ونكصوا، برغم تحرض موسى لهم، ومحاولة تقوية قلوبهم، ولكنهم انتهوا إلى أن: **{قَالُواْ يَامُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون}** [المائدة: 24].

فماذا قال موسى أمام هذا الإصرار على القعود والنفور من تنفيذ أمر الله ورسوله إليهم؟

{قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِين} [المائدة: 25، 26].

وبعد ذلك موقفهم من عبادة العجل الذهبي حين ضللهم السامري، فأطاعوه وعصوا نبيهم الثاني هارون، وكانت فتنة كبيرة.

وأخطر من ذلك موقفهم مع الله تعالى، حين تطاولوا عليه عز وجل فقالوا: **{يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء}** [المائدة: 64].

وقالوا: **{إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء}** [آل عمران: 181].

وقتلوا من قتلوا من الأنبياء مثل زكريا ويحيى: **{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُون}** [البقرة: 87].

وهكذا أكد القرآن هذه الحقيقة بعد مواقف اليهود الثابتة المتكررة **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ}** [المائدة: 82].

ولم ينس اليهود هذه الهزائم، فكادوا كيدهم، ومكروا مكرهم، في عداوة الإسلام وأهله، واتخذوا لذلك أساليب شتى، بعضها ظاهرة، وأكثرها باطنة، منذ عصر النبوة، فعصر الراشدين، فمن بعدهم، طوال التاريخ، وإلى اليوم.

ففي عهد النبوة، أهدت يهودية شاة مسمومة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقبلها النبي صلى الله عليه وسلم عملًا بحسن النية، فأكل منها بعض أصحابه فمات، وما زال مفعول هذا السم في جسد الرسول، حتى كان له أثره في موته، كما أخبر عن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

وهناك أصابع اتهام تشير إلى أن اليهود كان لهم ضلع في قتل عمر رضي الله عنه.

ولا ينسى أحد الدور الخطير الذي قام به عبد الله بن سبأ اليهودي في إشعال فتيل الفتنة، ثم تأجج نارها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى انتهت بقتله.

ثم ما قام به من دور أظهر وأكبر وأخطر، في عهد علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه. فهو الذي ابتدع الغلو في علي وآل بيته، واخترع مقولات كالرجعة وغيرها، كانت سبب فتن وضلالات لقرون عدة، وانتهت بتمزق أمة الإسلام إلى اليوم.

ثم عمل اليهود في تعكير صفاء الثقافة الإسلامية، فيما عرف باسم «الإسرائيليات» التي لوثت معارف المسلمين - وخصوصًا في تفسير القرآن - بالأوهام والأباطيل، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم أن من الثابت تاريخيًا: أن اليهود عاشوا في كنف الإسلام، وفي ذمة المسلمين، وحضانة الإسلام، وساهموا في بناء الحضارة الإسلامية مع غيرهم من أهل الملل والنحل، وقد أقرت الحضارة الإسلامية مبدأ «التنوع» في ظل الوحدة.

وفي ظل التسامح الإسلامي ملك اليهود الثروات الطائلة، ووصلوا إلى المناصب الرفيعة، حتى حسدهم بعض المسلمين على ما وصلوا إليه. وقال في ذلك شاعر مصري ساخر:

يا أهل مصر، إني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك!

وحين سقط الحكم الإسلامي، وطويت صفحة الحضارة الإسلامية في الأندلس «إسبانيا» وطرد اليهود من هناك، ومن بلاد أخرى في أوربا، لم

يجدوا ملاذًا آمنًا يلوذون به غير بلاد الإسلام، فهي التي وسعتهم، وفتحت صدورها لهم، وعاشوا فيها آمنين مطمئنين قرونًا طويلة.

نشوء الحركة الصهيونية:

وظل الحال على هذا المنوال، حتى نشأت «الحركة الصهيونية» الحديثة بطموحاتها وأحلامها الكبيرة، وتطلعاتها إلى إقامة وطن قومي لليهود المشتتين الذين قطعهم الله في الأرض أممًا، عقوبة لهم على ما اقترفوا وأفسدوا في الأرض، كما حدثتنا سورة الإسراء، وسورة الأعراف خاصة، فقد قال تعالى: **{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ 167 وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا}** [الأعراف: 167، 168].

وكان تفكير هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ومن سار في دربه متجهًا إلى أي وطن في أي قارة من القارات، قد تكون أمريكا الجنوبية، وقد تكون أفريقيا، ثم ترجح لديه أن يكون هذا الوطن في «فلسطين» خاصة، لما يرتبط بها من صفات دينية، مثل كونها «أرض الميعاد» ونحو ذلك، مما يساعد على إشعال حماس اليهود في أنحاء العالم للبذل والتضحية من أجل الوطن المنشود.

وقد حاول اليهود أن يشتروا هذا الوطن من السلطان عبد الحميد - خليفة آل عثمان - بملايين الليرات الذهبية لخزانة الدولة، ولخزانته الخاصة، فرفض ذلك بإباء وصلابة، وكان موقفه هذا سببًا في خلعه من ملكه، ولكنه - إن خسر الملك - فقد كسب رضا الله تعالى، وتقدير الناس.

وبدأ عهد جديد من الصراع المباشر بين الصهيونية أو اليهودية العالمية والإسلام، وازداد هذا الصراع قوة واشتعالًا، منذ دخل الإنجليز فلسطين في سنة 1917، ومنذ أن أقرت «عصبة الأمم» انتداب بريطانيا على فلسطين، ومنذ صدر «وعد بلفور» المشؤوم بإعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، مكافأة لهم على ما قدموه للحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وكأن فلسطين وطن بغير شعب، حتى تمنح لشعب بغير وطن!

لقد تجسدت عداوة اليهود التاريخية المخبوءة في صدورهم الحاقدة، في مواجهة الإسلام والمسلمين في فلسطين وفي غيرها وعلى مستويات شتى.

وهكذا واجه الإسلام عداوة اليهود وكيدهم، حين صمموا على إقامة دولة لهم، في قلب بلاد العروبة والإسلام، أي في فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والقبلة الأولى للمسلمين، وبلد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. إقامة هذه الدولة على الرغم من أهل البلد، بل بقتل أصحاب الدار، أو تشريدهم في الأرض، واحتلال دورهم بدلًا عنهم.

أصبحت المواجهة مع الإسلام وأمته أمرًا مفروضًا، وتأكدت فرضيته بعد أن وقعت الواقعة، وحقت الحاقة، ونزلت الطامة، وقامت دولة الكيان الصهيوني «إسرائيل» وساندتها كل القوى المعادية للإسلام، صليبية وشيوعية ووثنية.

لقد كانت اليهودية تعلم منذ خطط لإقامة دولتها: أن الإسلام هو العقبة الكؤود أمام أطماعها، وأنه هو القادر على تعبئة الأمة ضدها، لهذا بيتت النية، ووضعت الخطة، على محاربة كل ما هو إسلامي، وخصوصًا حركات

الإحياء والبعث الإسلامي، والاستعانة بالقوى العالمية الأخرى وإعانتها أيضًا - مثل الاستعمار والشيوعية - في ضرب كل تحرك إسلامي، وكل تجمع إسلامي حقيقي، وكل عمل إسلامي مخلص.

من مكايد اليهودية للإسلام:

ولقد بدأت اليهودية ضرباتها العملية بالمساهمة الملموسة في تفويض القلعة الإسلامية التاريخية «الخلافة» ومحوها من الوجود، وبهذا سقط آخر تجمع للمسلمين تحت راية القرآن، وعقيدة التوحيد، وكلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وكان لليهودية دورها مع الاستعمار، في إشاعة وتوسيع وترسيخ العصبيات القومية والإقليمية، التي نجمت قرونها - كقرون الشياطين - ولا سيما بعد انهيار الخلافة الجامعة، وتحلل الرابطة الواشجة، فظهرت القومية الطورانية، والقومية العربية، والعصبيات الوطنية، مصر للمصريين، وسوريا للسوريين، ورأينا رئيس الحكومة المصرية يقول يومًا: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين.

وكان لليهودية العالمية دورها في تشويه صورة الإسلام: رسالته وحضارته وسيرة رسوله، وتعاليم كتابه، وتاريخ فتوحه، وسير أبطاله ... إلخ، عن طريق الدراسات الاستشراقية، التي لليهود فيها دور لا ينكر، مثل دراسات جولد زيهر، وشاخت، وغيرهما.

وكان لليهودية أو الصهيونية دورها في ميلاد الشيوعية في روسيا، وفي رعايتها منذ ولادتها، وقد أثبتنا علاقة اليهودية بالشيوعية، بوقائع وأدلة لا

تقبل الشك، ستأتي في الفصل القادم.

وبهذا تمكنت اليهودية من ضرب الإسلام وشعوبه وجمهورياته العريقة في آسيا، وجماعاته وحركاته الفاعلة بيد الشيوعية التي أسهمت في صنعها وترويجها.

وكان للصهيونية أو اليهودية العالمية دورها في نشر الانحلال والفساد والأفكار الهدامة، التي تحدثت عنها «بروتوكولات حكماء صهيون» سواء صحت نسبتها إليهم أم لم تصح، وكذلك عن طريق مؤسسات تديرها من وراء ستار، وتعمل عملها في الأوطان والشعوب، عمل «الميكروبات» في الأجسام، وعمل السرطان في الخلايا الحية. بلا دوي كدوي الرصاص، بل هي أشبه ما تكون بالقتل بالمسدس الكاتم الصوت. وأخطر هذه المؤسسات بلا نزاع هي «الماسونية» وسنتحدث عنها ببعض التفصيل بعد.

سبب المعركة والعداوة بيننا وبين دولة الصهاينة:

ويلزمني هنا أن أبين سبب العداوة والصراع القائم بيننا وبين اليهود، وبعبارة أخرى: بيننا وبين دولة الكيان الصهيوني. فإن إسرائيل تشيع دعايات مضللة، تريد أن تكسب بها الرأي العام العالمي، ولا سيما في الغرب، ملخص هذه الدعايات أننا نعادي لأنها دولة سامية، كما أننا نعاديها بل نحاربها، لأنها دولة يهودية.

هل سبب المعركة أنها سامية؟

فهل سبب العداوة والحرب المستعرة بيننا - نحن العرب والمسلمين - وبين إسرائيل حقًا: أنها دولة سامية؟

والجواب: أن هذا أبعد ما يكون عن تفكير المسلمين، ولا يتصور أن يرد هذا بخواطرهم، لسببين أساسيين:

الأول: أننا - نحن العرب - ساميون، ونحن مع بني إسرائيل في هذه القضية أبناء عمومة، فإذا كانوا هم أبناء إسرائيل - وهو يعقوب - ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلامت، فنحن أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليه السلامب.

ولا تستطيع إسرائيل أن تزايد علينا في ذلك، ولا أن تتهمنا بأننا أعداء «السامية» التي تتاجر بها في الغرب، وتشهرها سيفًا في وجه كل من يعارض سياستها، أو ينتقد سلوكياتها العدوانية واللا أخلاقية، بل اعتبر القرآن المسلمين كافة أبناء إبراهيم: **{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}** [الحج: 78].

والثاني: أن المسلمين عالميون إنسانيون بحكم تكوينهم العقدي والفكري، وليسوا ضد أي عرق من العروق أو نسب من الأنساب، وقد علمهم دينهم أن البشرية كلها أسرة واحدة، تجمعهم العبودية لله، والبنوة لآدم، كما قال تعالى: **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير}** [الحجرات: 13].

وقال رسولهم الكريم: «**أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد**». رواه أحمد.

على أن اليهود اليوم لم يعودوا كلهم ساميين، كما يزعمون، فقد دخل فيهم عناصر شتى من سائر أمم الأرض، كما هو معروف عن يهود «مملكة الخزر» وغيرهم. وهذا طبيعي، فاليهودية ديانة، وليست جنسية.

هل سبب المعركة والصراع أنها يهودية؟

وإذا كانت «السامية» ليست واردة في أسباب حربنا وعداوتنا لإسرائيل، فكذلك «اليهودية» باعتبارها ديانة ليست هي السبب.

إن اليهودية في نظر المسلمين «ديانة كتابية» من الديانات السماوية، جاء بها رسول الله موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور، وهو من أولي العزم من الرسل، وفي القرآن نقرأ قوله تعالى: **{قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ 144 وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا}** [الأعراف: 144، 145].

والقرآن اختار لليهود والنصارى «لقبًا» يوحي بالقرب والإيناس منهم، وهو «أهل الكتاب» وينـاديهم بذلك «يا أهل الكتاب» ويعني به: التوراة والإنجيل، إشعارًا بأنهم - في الأصل - أهل دين سماوي، وإن حرفوا فيه وبدلوا.

اليهود أقرب إلى ملة إبراهيم من النصارى:

بل أزيد على ذلك فأقول: إن اليهود - من الناحية الدينية - أقرب إلى المسلمين في كثير من الأمور، من النصارى المسيحيين، لأنهم أقرب منهم إلى ملة إبراهيم عليه السلام سواء في العقيدة أم في الشريعة.

فإن النصارى غيروا كثيرًا من أصول الدين وفروعه، على حين احتفظ اليهود ببعض هذه الأشياء مما ورث من ملة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام

ولا تمنعنا عداوتهم لنا، وصراعنا معهم أن ندلي بهذه الشهادة: **{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ}** [المائدة: 8].

فاليهود لا يقولون بالتثليث الذي يقول به النصارى، ولا يؤلهون موسى كما يؤله النصارى المسيح عيسى عليه السلامب.

وإن وقع اليهود في تشبيه الخالق بخلقه، كما يبدو ذلك بجلاء لكل من يقرأ أسفار التوراة، وحديثها عن الألوهية.

على أن كل ما يؤمن به اليهود فيما يتعلق بالألوهية والنبوة، يؤمن به المسيحيون، لأن التوراة وملحقاتها «كتاب مقدس» عندهم.

ويزيدون على اليهود ما انفردوا به من تأليه المسيح أو القول بالتثليث.

هذا من ناحية العقيدة، أما من ناحية الشريعة، فنجد أن اليهود يختنون أولادهم على سنة إبراهيم عليه السلام كما يختن المسلمون، والنصارى لا يختنون.

واليهود يشترطون لحل أكل الحيوانات والطيور. كما يفعل المسلمون، والمسيحيون لا يذبحون لأن «بولس» قال لهم: كل شيء طاهر للطاهرين!

واليهود يحرمون الخنزير، كما يحرمه المسلمون، في حين أحله النصارى. واليهود يحرمون التماثيل التي تصنع للملائكة أو الأنبياء والقديسين، كما يحرمها المسلمون، في حين لا يحرمها النصارى، ولذلك امتلأت كنائسهم ومعابدهم بهذه الصور والتماثيل من كل حجم ولون.

فلو كنا نحارب اليهود م أجل العقيدة، لحاربنا النصارى المسيحيين أيضًا، فكلاهما كافر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن أجل هذا يتبين لنا خطأ بعض عوام المتدينين الذين يتوهمون أن الحرب القائمة بيننا وبين اليهود حرب من أجل العقيدة، ومعنى هذا: أننا نقاتل اليهود لأنهم يهود كفروا برسالة محمد، وحرفوا كلام الله عن موضعه، وشوّهوا حقيقة الألوهية في كتابهم، فقد شبهوا الخالق بالمخلوق، كما شبه النصارى بعدهم المخلوق بالخالق، ولوثوا صورة الرسل والأنبياء ... إلى آخر ما هو معروف عنهم، مما حكاه القرآن من قتلهم الأنبياء بغير حق، وتطاولهم على الله حتى قالوا: يد الله مغلوبة، وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء!

وهذه النظرة التي قد تخطر في بال الناس خاطئة تمامًا. فاليهود كما رأينا يعتبرهم الإسلام أهل كتاب، يبيح مؤاكلتهم، ويبيح مصاهرتهم، وقد عاشوا قرونًا بين ظهراني المسلمين، لهم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، وقد طردهم العالم، ولفظهم لفظ النواة، من أسبانيا وغيرها، ولم يجدوا صدرًا حنونًا، إلا في دار الإسلام، وأوطان المسلمين ولم يفكر المسلمون يومًا أن يحاربوا اليهود.

والحقيقة أن اليهود هم الذين قاتلونا، وبدئوا بحربنا، وأخرجونا من ديارنا **{وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا}** [البقرة: 246].

اليهود هم الذين صمموا على إبادة وجودنا الإسلامي في فلسطين وأحكموا

لذلك خطتهم، ودبروا أمرهم[41].

وأكتفي هنا بالتركيز على ثلاث نقاط كبيرة وهامة، في صراعنا مع اليهودية وصراع اليهودية معنا، وهي: تهويد العالم، والماسونية، ودولة إسرائيل.

* * *

(41) انظر كتابنا «القدس قضية كل مسلم» فصل: «حقيقة المعركة بيننا وبين إسرائيل» (ص35 – 44) طبعة مكتبة وهبة.

تهويد العالم

تريد الصهيونية العالمية أن تهيمن على العالم شرقيه وغربيه، وبعبارة صريحة: تريد أن «تهود» العالم. وليس معنى «تهويد» العالم أن يدخل في الديانة اليهودية، فاليهود لا يعنون بنشر دينهم، وهو بطبيعته ليس دينًا عالميًا انتشاريًا. إنما هو «دين قومي» مغلق على أهله. إن عقائده وشرائعه وطقوسه وأحلامه وجنته تدور حول «إسرائيل» وشعب إسرائيل، وملك إسرائيل. حتى «الله» ذاته، هو «رب إسرائيل» وليس «رب العالمين» كما هو عندنا نحن المسلمين.

فما معنى «التهويد» إذن؟

التهويد المقصود هنا: أن يسخر اليهود العالم لمصلحتهم، ليدور في فلكهم، وتحقيق أحلامهم، وأن يغسلوا أدمغة البشر ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، مما فيها من مفاهيم ومواريث فكرية، ليملأوها بما يشاؤون من أفكار، يلقنونها على أنها حقائق مسلَّمة، وإن كانت في الواقع أباطيل وترهات.

التهويد هنا: أن يكونوا هم «عقل العالم» كما تدل على ذلك «بروتوكولات» حكماء صهيون، التي نشرت في لغات العالم المختلفة، وإن شكك فيها الكثيرون، ولكن الواقع يصدقها بالفعل.

ولقد رأينا هذا التهويد وآثاره في مجالات شتى، لا يجحدها إلا مكابر، وإن كنت لا أحب المبالغة فيها إلى الحد الذي تصوره بعض الكتب مثل «الدنيا لعبة إسرائيل» وكتاب «أحجار على رقعة الشطرنج» وغيرهما. فأنا أعارض التهويل، كما أعارض التهوين.

ومن آثار التهويد في العالم: ما رأيناه من محاولة اليهود الاستيلاء على الثورة الشيوعية منذ نشأتها، وما كان لهم من ضلع في إشعالها. وسنتحدث عن ذلك بتفصيل عند حديثنا عن «الشيوعية».

وحسبنا هنا أن نتحدث عن «تهويد المسيحية» كما نشير إلى محاولة أخرى من محاولات التهويد للعالم.

تهويد المسيحية:

ومن أخطر ما صنعته اليهودية - ولا تزال تصنعه - هو تهويد المسيحية. ومقتضاه تجنيد المسيحيين المتدينين أو «الأصوليين» لتبنّي قضية «إسرائيل» وملك «إسرائيل» وتأثير ذلك على مئات الملايين من المسيحيين البروتستانت، الذين يؤمنون بالعهد القديم «أسفار التوراة الخمسة» إيمانهم بالعهد الجديد، ويرتبطون عقائديًا وعقليًا وعاطفيًا بأرض التوراة - أي فلسطين - وشعب التوراة. وهذا ما جعلهم يتعاطفون مع تطلعات الصهيونية الحديثة وأحلامها الاستعمارية التوسعية في «أرض الميعاد» كما يسمونها، وقد بدا ذلك في كثير من رجالهم في بريطانيا وفي أمريكا بجلاء ووضوح.

بل أكثر من ذلك: أن نجد هذا التأثير يمتد من الجماهير الشعبية، إلى القيادات السياسية المؤثرة من صناع القرار، وأصحاب النفوذ، حتى رؤساء الجمهوريات، وقد رأينا ذلك بأعيننا، وسمعنا تصريحاتهم بآذاننا، ولمسنا آثار سياستهم بأيدينا.

ومن أكثر الأمثلة بروزًا في الدلائل على ذلك «بلفور» وزير خارجية بريطانيا الذي أعطى الوعد المشهور سنة 1917 أثناء الحرب العالمية الأولى

- لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. فقد كان تأثير «التهويد» عليه منذ طفولته، كما تحكي ذلك ابنة أخته ومؤرخة حياته بلا نسمه روغاول. قالت: لقد تأثر بلفور منذ نعومة أظفاره بدراسة التوراة في الكنيسة، وكان كلما اشتد عوده ازداد إعجابه بالفلسفة اليهودية ... وقد اقتبست منه في طفولتي: أن المسيحية وحضارتها مدينتان بالشيء الكثير لليهود ... وقد كانت أطروحات «شعب الله المختار»، وحقه في أرض الميعاد، وتحقيق النبوءة بتجميع اليهود في دولة إسرائيل في فلسطين، من أبرز معتقدات «بلفور» التوراتية، التي ورثها في طفولته، وتربى عليها، في إحدى الكنائس الإنجليزية[42]. اهـ.

وقالوا: إن بلفور كان يعتبر اليهود «منفيين» يعيشون بعيدً ا عن وطنهم، فخالجته الفكرة بوجوب إعادة وطنهم القديم إليهم.

حتى قال بعض الكتاب الأمريكيين: إن بلفور كان أكثر فهمًا من هرتزل لطموحات الصهيونية[43]!

رأينا ذلك جليًا كل الجلاء في سياسة جيمي كارتر، وفي مذكراته، التي أعلن فيها بصراحة: أن تأسيس «إسرائيل» المعاصرة، إنما هو تحقيق للنبوءة التوراتية، إذ قال أمام الكنيست الإسرائيلي سنة 1979: إن العلاقة بين أمريكا وإسرائيل علاقة فريدة، متجذرة في ضمير وأخلاق ودين ومعتقدات الشعب الأمريكي.

---

(42) «البعد الديني في السياسة الأمريكية» يوسف الحسن، نشر مركز دراسات الوحدة العربية (ص32).

(43) «البعد الديني في السياسة الأمريكية» يوسف الحسن، نشر مركز دراسات الوحدة العربية (ص22).

ورأيناه في سياسة رونالد ريغان، وفي سياسة خلفه جورج بوش، وفي سياسة الرئيس الحالي بيل كلينتون، وتأييدهم المطلق والدائم - على كل المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية والإعلامية - لإسرائيل.

بل رأينا ذلك في سياسة المرشحين المعارضين لهم في الانتخابات، وكلهم يخطبون ود إسرائيل ويتسابقون: أيهم أكثر ركضًا، وأسرع خطًا في إرضائها.

وليس هذا من عمل اللوبي اليهودي الصهيوني في أمريكا وحده، وهو غالبًا ما يستخدم نفوذه في الإعلام والاقتصاد والسياسة، ليفرض وجهته، ويملي إرادته في إنجاح من يريد إنجاحه في الانتخابات، وفي تهديده بإسقاطه بعد الانتخابات، بما ينشرون له من فضائح يعرفونها، ويحتفظون بها للاستخدام عندما يشتهون. ولكن اللوبي يستغل «العنصر الديني» عند الكثيرين في تجنيدهم لتأييد إسرائيل، ومطالب إسرائيل.

وأكثر من هذا أنهم يغسلون أدمغة هؤلاء، ومن وراءهم من الفئات المؤثرة، والجماعات الضاغطة، والجماهير الغافلة، وإدخال ما يريدون من أفكار ومفاهيم تخدم فكرتهم، ويؤيد دولتهم، وتوالي جماعتهم ... إدخال هذه المفاهيم في رؤوسهم، حتى يؤمنوا بها، ويعتقدوا أنها جزء من عقيدتهم، وليست مسربة إليهم.

وهذا ما لمسه الذين يعملون للقضية الفلسطينية من قديم، وكيف استطاع اليهود أن يوظفوا الدين المسيحي في خدمة قضيتهم، وخصوصًا لدى البروتستانت.

نقل الشيخ عبد المعز عبد الستار في كتابه «واقترب الوعد الحق يا إسرائيل» عن المجاهد الكبير الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين رحمه الله قال: كنت أرُدّ زيارة للمندوب البريطاني حاكم فلسطين، فقال لي: إن أمي علمت بوجودك وتود مقابلتك، فقلت له: أهلًا وسهلًا، وجاءت العجوز، فكان أول ما قالته لي: أرجوك إلا تقف ضد إرادة الرب، فقلت لها: يا سيدة، ومن يستطيع أن يقف ضد إرادة الرب؟ قالت: أنت، لأنك لا تريد أن تعطي اليهود الأرض التي أعطاها الله لهم، قلت: إنها أرضي وبيتي وكيف يعطيها الله لهم وأنا أين أذهب؟ قالت: إنها إرادة الله! ولما انتهت المقابلة قلت لابنها: إن والدتك طيبة متأثرة باليهود، قال: لا، بل نحن البروتستانت نؤمن بهذا والأناجيل تبشر به[44].

وما قالته هذه المرأة العجوز وابنها يقوله اليوم ملايين من «الأصوليين المسيحيين» الذين يعتبرون العرب ومن وراءهم من المسلمين «أعداء الله» لأنهم يعارضون «إرادة الرب». ومن ذلك القس الأمريكي الشهير «روبرتسون» الذي يقدم برنامجًا تلفزيونيًا، له عشاقه ومشاهدوه، ويبدو برنامجه باستمرار معاديًا للعرب وهو يعتبرهم أعداء الله، وأنه لا مجال للعدل مع الفلسطينيين، طالما أن رغبة الله هي في تأسيس إسرائيل، وفي تعيين حدودها»[45].

وهذا ما رأينا أثره بجلاء في مواقف الرؤساء الأمريكيين منذ عهد

---

(44) «واقترب الوعد الحق» (ص16).

(45) انظر: «البعد الديني في السياسة الأمريكية» (ص115).

ترومان، إلى اليوم، وهو ما يجسد «البعد الديني المسيحي»[46] في السياسة الأمريكية في الصراع الإسرائيلي مع العرب.

وقد أثرت الأدبيات اليهودية في تكوين العقيدة المسيحية، ولا سيما لدى البروتستانت، وقد دارت هذه الأبيات حول محاور ثلاثة:

الأول: أن اليهود هم شعب الله المختار، والأمة المفضلة على سائر الأمم.

الثاني: أن ثمت ميثاقًا إليها ربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين، وأن هذا الميثاق الذي أعطاه الله لإبراهيم عليه السلام: ميثاق سرمدي حتى قيام الساعة.

الثالث: هو ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيونية: أي بإعادة تجميع اليهود في فلسطين، حتى يظهر المسيح فيهم.

هذه المحاور الثلاثة هي التي تؤلف اليوم - كما ألفت في الماضي - قاعدة «الصهيونية المسيحية» التي تربط الدين بالقومية، والتي تسخر الاعتقاد الديني المسيحي لتحقيق مكاسب يهودية[47].

تعتقد الصهيونية المسيحية أن ثلاث إشارات يجب أن تسبق عودة المسيح:

1- الإشارة الأولى هي: قيام إسرائيل، وقد قامت سنة 1948م)، بمعاونة بريطانيا البروتستانتية والغرب بصفة عامة.

---

(46) قد ألف في ذلك الدكتور يوسف الحسن كتابه القيم الموثق بالوقائع والأدلة «البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني» نشره مركز دراسات الوحدة العربية. وهو في الأصل رسالة دكتوراه قدمها إلى جامعة القاهرة في العلوم السياسية.

(47) انظر: «الأصولية الإنجيلية» لمحمد السماك (ص36، 37)، و«البعد الديني في سياسة أمريكا» ليوسف الحسن.

2- والإشارة الثانية هي: احتلال مدينة القدس، وقد احتلت سنة (1967م). وقد كان لهذا الاحتلال تأثير كبير على الصهيونية المسيحية، فقد اعتبروا انتصار إسرائيل على العرب مؤذنًا بقرب تحقيق الحلم بعودة المسيح.

3- والإشارة الثالثة هي: إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وهذا ما تعمل له إسرائيل منذ زمن، وما تقوم به من حفريات تحت بنيان المسجد الأقصى، بحجة البحث عن آثار يهودية مطموسة، وفي مقدمتها الهيكل المزعوم.

ومن المعروف أن الهيكل قد دمر من قديم، ورغم بحث اليهود وحفرياتهم لم يعثروا له على أثر، وأعتقد أن تواصل هذه الحفريات يعرّض المسجد العظيم لخطر الانهيار، كما أعتقد أن اليهود يعرفون متى سيحدث ذلك، وهم الذين يحددون ذلك اليوم المشؤوم لا قدر الله.

إن اليمين المسيحي الأصولي في أمريكا، الذي يتدين بنصرة إسرائيل، ويتعبد بإعانة اليهود على اغتصاب فلسطين من أهلها، وتشريدهم من ديارهم، واحتلال دورهم وأرضهم بدلًا عنهم، واستمرار إمدادهم بالمال والسلاح والفيتو، هذا اليمين المتطرف هو أثر من آثار التهويد الدائم للعقلية المسيحية. وهو يمين قوي متمكن، حتى إنه يملك ألفًا وخمسمائة (1500) قناة تليفزيونية، وسبعة آلاف (7000) من محطات الإذاعة.

وليس هذا ابن اليوم، ولا وليد الأمس القريب، إنه بدأ منذ عهد الإصلاح، منذ «مارتن لوثر» سنة 1520م.

ولكن الأخطر من ذلك هو تأثير اليهودية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها،

كما نرى ذلك واضحًا في الكاثوليك الأمريكان، فهناك ملايين من كاثوليك أمريكا - وعددهم يبلغ خمسة وستين مليونًا - لا يقلون في تحمسهم للصهيونية ومشروعها الإمبريالي العدواني التوسعي، عن البروتستانت الذين اشتهروا بولائهم لليهودية وشعبها وأرضها من قديم.

بل ما لنا نذهب بعيدًا، وها هو أثر التهويد يتجلى في الكنيسة العظمى للمسيحية، في «الفاتيكان» نفسه، وفي مجمعه المقدس، وفي «باباه» الأعظم، المتحدث باسم المسيح، وقد رأينا كيف اخترق اليهود هذا السور العالي، ودخلوا عقر دار المسيحية الأم، وأثروا بوضوح في موقف الكنيسة وموقف البابا الحالي «يوحنا بولس الثاني» وفي تغيير الموقف التاريخي للمسيحية الذي استمر ألفي (2000) عام، يرى أن اليهود أعداء المسيح، وأنهم مسؤولون عن دمه و«صلبه»، وأنهم ملعونون أينما ثقفوا، وأنهم لا يستحقون عناية الرب ولا تأييده وأنهم ليسوا أهلًا أن يمنحهم الله الملك، ما داموا لا يعترفون بالمسيح مخَلِّصًا فكيف وهم يقولون عنه وعن أمه السوء، ويلعنونه في بِيَعهم!!

وها هي الكنيسة الكاثوليكية تغير موقفها تمامًا بزاوية قدرها (180) درجة، وتبرئ اليهود من دم المسيح، ويتعذر البابا «يوحنا بولس الثاني» علنًا عما وقع لليهود على أيدي المسيحيين طوال القرون الماضية. كما تجلى ذلك في زيارته الأخيرة للأراضي المقدسة في فلسطين. «في شهر مارس سنة 2000م».

في حين لم ينبس ببنت شفة للاعتذار عما جرى للمسلمين من مذابح جرت فيها الدماء أنهارًا وغاص الناس إلى ركبهم فيها، في الحروب الصليبية

الشهيرة، مع ما بعث به بعض المسيحيين العرب الكاثوليك إلى البابا من رسائل مخلصة يلتمسون منه الاعتذار أو ما يشبه الاعتذار، إلى العرب والمسلمين عن جرائم الحروب الصليبية.

تهويد العقل العربي:

وأدهى من ذلك وأمر محاولة «تهويد العقل العربي والإسلامي» بحيث يخضع للمسلّمات اليهودية الصهيونية، ويردد ما تذيعه أبواقها، ويستسلم لما تمليه سياستها، وينسى ما اغتصبته من أرض، وما شردت من رجال ونساء، وينادي بالسلام الذي تريده دولة العدوان والاغتصاب، وفق مفهومها هي للسلام، وتفسير للسلام إنه سلامها هي، وأمنها هي، فهي سيدة المنطقة، وهي مالكة الزمام، وما على الجميع إلا الخضوع والاستسلام. تحكَّم الذئب فاخضع أيها الحمل!

هذه «الإسرائيليات» الجديدة، يجب أن تسود، وأن يقبلها الفلسطينيون، ويقبلها العرب، ويقبلها المسلمون، ويقتنعوا بها، ويدعوا إليها، على أنها أفكارهم الشخصية، وخلاصتها - كما تمليها إسرائيل - تأييد «مسيرة السلام» التي تجلب الخير والمنافع الاقتصادية للمنطقة وأهلها، وتجنبهم الحروب وأعباءها. وأخطارها ومشاكلها وقد جربنا الحرب عدة عقود من الزمن، فماذا حققنا من ورائها؟

وربما زاد على ذلك فاستدلوا ببعض نصوص من القرآن على صواب موقفهم، مثل قوله تعالى: **{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ}** [الأنفال: 61] فحرفوا الكلم عن مواضعه، واستدلوا بالآية في غير ما سيقت له.

علـى أن اليهـود لـم يجنحـوا للسـلم يومًـا مـا، فـلا زالـوا يحتلـون القـدس ويعتبرونها العاصمة الأبدية الموحدة لوطنهم، ولا زالوا يقضمون الأراضـي الفلسـطينية ويضـمونها إلـى أملاكهم، ويقيمـون عليهـا المسـتوطنات، التـي لـم يتوقف بناؤها يومًا، وقد زادت اليوم في عهد «أيهود باراك» الذي استبشر بـه دعاة السلام، بعد سقوط «نتنياهو» وكان اللاحق شرًا من السـابق، وكـانوا كمـا قيل:

ولـيس فـيهم مـن فتـى مطيـع فلعنـــة الله علـــى الجميـــع!

وظهر في بلد كبير كمصر كتّاب وصـحفيون وإعلاميون، يريـدون لمصـر وللعرب طرّا أن يكسروا كل الحواجز مع دولـة العدوان، وأن يهيلـوا التـراب علـى صـراع الماضـي ومآسيه، وأن نتعامـل مـع الصـهاينة جيرانًـا وشـركاء، وأبنـاء عمومـة، وأن نغيـر لغتنـا وأسـلوبنا القديم، الـذي يقـوم علـى التحـريض والتأجيج، والذي لم يعد له جدوى اليوم.

وأن نستعمل لغـة جديدة، نحـذف فيهـا كل مـا يثيـر العداوات، حتـى الآيـات القرآنية التـي تتحـدث عن اليهـود وتطـاولهم علـى الله تعـالى، وقتلهم لأنبيـائهم، وغدرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وشـدة عداوتهم للمؤمنين وغيـر ذلـك، لا داعي لتكرارها في أجهزة الإعلام.

يجـب أن نحـذف مـن إذاعاتنـا وتلفازاتنـا وصـحفنا وأجهـزة إعلامنـا مئـات الآيـات القرآنيـة، من سورة البقرة، وآل عمران والنسـاء والمائدة والأعـراف والأنفال والتوبة والأحزاب والحشر وغيرها، حتى لا نجرح شعور اليهود.

كمـا يجـب ألا نتحـدث عـن صـلاح الـدين الأيـوبي، ونـور الـدين محمـود،

وسيف الدين قطز وغيرهم من أبطال تاريخنا الإسلامي، حتى لا نحرض الجيل الجديد أن يحذو حذو هؤلاء، ويحمل روح الجهاد، ونحن مقبلون على عصر السلام!!

أولئكم هم «جماعة كوبنهاجن» الذين فتحوا صدورهم وأذرعتهم لإسرائيل، ودعوا لفتح الأبواب على مصاريعها أمام إسرائيل.

الماسونية ذراع طويلة لليهودية العالمية:

وسأكتفي في حديثي عن الماسونية بنقل فقرات معبرة من كتاب رجل متخصص في دراستها وتتبعها وكشفها، وله فيها رسائل وكتب، وهو الجنرال التركي رفعت أتلخان، ومن كتابه الشهير «أسرار الماسونية» في طبعته العربية.

وسأنقل الفقرات مع مصادرها مجردة من التعليق، فهي وحدها كافية، صارخة بالمقصود، وفيها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وإليك قارئي العزيز هذه الفقرات:

مَنْ وراء الماسونية؟

إن الماسونيين يتخذون من «خطة تمكين اليهود» من الاستيلاء على العالم أساسًا لأعمالهم[48].

إن الماسونية بعيدة عن معاداة اليهودية، وإن اليهود أحرار في الانتساب

(48) «تاريخ الماسونية الحرة» (ص8).

إليها على قدم المساواة مع غيرهم[49].

لا يوجد محفل ماسوني خال من اليهود، وإن بيع اليهود لا تحتضن المذاهب بل هناك المبادئ فقط، وكذلك الحالة عند الماسونية، ولهذا العلة تعتبر المعابد اليهودية حليفتنا اليهودية، ولذا نجد بين الماسونيين ولذا نجد بين الماسونيين عددًا كبيرًا من اليهود[50].

لقد تيقن اليهود أن خير وسيلة لهدم الأديان، هي الماسونية، وإن تاريخ الماسونية يشابه تاريخ اليهود في الاعتقاد بربط كيانها بخمسة آلاف سنة، منذ بدء الخليقة، وإن شعارهم هو «نجمة داود المسدسة» ويعتبر اليهود الماسونيون أنفسهم - معًا - الأبناء الروحيين لبناة هيكل سليمان. وإن الماسونية التي تزيف الأديان الأخرى، تفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهودية وانتصارها. وقد استفاد اليهود من بساطة الشعوب وحسن نيتها فدخلوا في الماسونية واحتلوا فيها المراكز الممتازة، وبذلك غدت وسيلة اجتماعية وسياسية، وثقافية لتحقيق «أهداف اليهود» وإن لم يوجد يهود في صفوف الماسونيين القدامى، إلا أن اليهود بعد القرن الثامن عشر قد دخلوا في الماسونية وحازوا على مراكز ممتازة فيها ... وبذلك نفثوا «الروح اليهودية» في المحافل الماسونية وسخروها لأغراضهم[51].

وكتب محرر إنجليزي مبينًا العلاقات بين الماسونية واليهودية «إن الماسوني وإن لم يكن يهوديًا بالولادة، إلا أنه رجل متهود». وإن هولت زنكر

---

(49) مجلة أكسيا الماسونية 1908 (ص98).

(50) مجلة أكسيا الماسونية سنة 1908.

(51) السجلات الماسونية.

رئيس محاكم فينا قد عبر عن هذا الرأي بسخرية قائلًا: «إن بين الماسونيين المائة في فينّا مائة واثنين من اليهود» يقول جول ليمتر: إن التساند والاتحاد الملحوظين بين ماسونيي العالم يرجع إلى كثرة العناصر اليهودية بينهم.

يتضح من التدقيقات التي أجريت بحق الماسونية: أن في محافيها أعضاء كبارًا من اليهود الذين ينتمون إلى الجمعية السرية. وأن وظيفة هؤلاء هي توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل وتوجيهها لخدمة اليهودية، وتبين من هذا: أن الماسونية هي واجهة ظاهرية لتنظيم سري كامن خلفها.

إن والتر رتيناو الوزير الألماني اليهودي وعضو جمعيتي بني بريث، واليانس يونيفيرسال إسرائيليت اليهوديين قد صرح قائلًا: «إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم يديرون الأمور في أوربا. والآن في العالم كله، وينتخبون أخلافهم ...».

ولا يسعنا في هذ العجالة أن نلقي ولو بشرارة من العلم لإيضاح هذه المجاهل التي تتعلق بأسرار الحياة.

وأن التنظيم السري المعروف باسم الإخاء اليهودي قد رافق التاريخ منذ أجيال سحيقة، لأنهم يسعون متعاونين ... وإن أثر المنظمات اليهودية واضح في معالم الحياة الاجتماعية للبلد الذي يحل فيه اليهود ... وإن هذه التنظيمات هي التي ربطت يهود العالم بأواصر متينة، وأقواها هي المنظمة اليهودية «اليانس يونيفرسال إسرائيليت» في باريس، ومنظمة بني بريث في نيويورك. ولقد صرح رئيس منظمة «اليانس يونيفرسال إسرائيليت» الساسي الفرنسي إسحاق بيرم في حفلة افتتاح هذه المنظمة في سنة 1860 قائلًا: إن

الاتحاد الذي نعمل لأجله ليس باتحاد سويسري أو ألماني أو فرنسي أو إنكليزي، إنما هو اتحاد يهودي عالمي، ويجب أن تستولي الفكرة اليهودية على العالم، وإن عملنا عظيم ومقدس، وانتصاره مؤكد، وإن الشبكة التي ألقاها بنوم إسرائيل تبتلع العالم يومًا بعد يوم، وإنها آخذة بالاتساع، ولا بد لنا من تحين الفرص، لا نهاب من أحد، وإن يوم انتقال ثروة العالم إلى بني إسرائيل ليس ببعيد.

إن غاية الماسونية قد انبثقت من اليهودية، وإن أكثر عادات الماسونيين مقتبسة من معبد سليمان، كما أن أكثر الإشارات والرموز عبرانية[52].

أن منظمة بني بريث في مقدمة الجمعيات اليهودية، أسست في نيويورك سنة 1834 ولها محافل كثيرة في أوربا والشرق وهي أقوى جمعية يهودية في الشرق، وإن محفلها في لندن الممثل من قبل أنتشتاين قد أبدى فعاليات كثيرة في الأيام الأخيرة[53].

إذا كان هنالك استعمار لا يغلب فهو استعمارنا، لأننا نتقدم دون معارضة وبخطوات متزنة ومتينة نحو أهدافنا[54].

إن اليهودية والماسونية قد انتهجتا سياسة واحدة بالتعاون مع المعارضين في فرنسا وجابهوا نابليون بقوى متزايدة يومًا فيومًا، وبذلك تمكنوا من هدم

---

(52) وماذا تقوله الماسونية وزعماؤها في بلاد العرب والإسلام عن هذه التصريحات من جمعيتين يهوديتين في أمريكا وأوربا؟

(53) مجلة تريينال جويف سنة 1920 (عدد: 61).

(54) 1922 – حاخام فينا ZP. Chages.

سلطان اليسوعيين في فرنسا[55].

إن نابليون الأول كان لعبة بيد الماسونيين، وهم الذين أعلوا من شأنه، ثم ساقوه إلى حرب ماحقة في روسيا في سنة 1812 فأوقعوه في الهاوية[56].

لقد حان الوقت الذي يجب فيه إفشاء سر القوانين المالية الرفيعة اليهودية التي بقيت خافية عن الأنظار حتى الآن[57].

علاقة الماسونية بالمذاهب السياسية:

إن من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن الماضي هي المذاهب الحرة التي تعتبر من نتاج الفكر البشري، وإن دعاة التقدم وأنصار الفكر منذ الثورة الفرنسية، اتخذوا دستور الماسونية الكلمات الثلاث «الحرية، والمساواة، والأخوة» شعارًا لهم. إن الانتصار الذي أحرزته المبادئ الحرة قد ساعد الماسونية فيما بعد على التقدم بخطوات سريعة، كما أن المذاهب والأفكار الأخرى، مثل الإنسانية والمادية والتجريبية واللاإرادية والمثالية والسلبية والاشتراكية قد تُقبلت بحرارة المبادئ الإلهية.

ويقول فيس هاويت مؤسس جمعية الشعلة اليافارية الماسونية «عليكم بوضع المبادئ الجديدة دون أن تفكروا في عواقبها».

ولقد تعجب العلماء الذين حيرتهم الدقائق والمشاكل العلمية التي كانت تتردد في مجال الشك، حيرتهم أن رأوا هذه النظريات والمشاكل العلمية تنشر

---

(55) الحرب الجامعة – للجنرال الألماني لوند رودوف (ص28).

(56) الحرب الجامعة – للجيرال لوند رودوف (ص212).

(57) International Bankalliace - Pares

في أعمدة الصحف، كأفكار مبسطة تتناولها عامة المثقفين بشكل حقائق ثابتة، وتتلقفها الطبقات المثقفة كأنها حقائق علمية ثابتة[58]

إن الأفكار المستقلة التي لا تساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقض اللاذع والعداء المر، والأراجيف من قبل الماسونيين. وعلى سبيل المثال ... إن الأديبين الكبيرين الروسيين دستوفسكي وغرغول قد تعرضا لهجوم ماسوني عنيف وحتى إنهما قد اتهما بالجنون ظلمًا.

أن الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية، لأن مؤسسيها كارل ماركس وأنجلز هما من ماسوني الدرجة الحادية والثلاثون، ومن منتسبي المحفل الإنكليزي، وإنهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية، وبفضلهما أصدرا «البيان الشيوعي» المشهور، وإن المجلة الألمانية الماسونية «لاتونيا» قد أعلنت فرحها واستبشارها بانتشار الاشتراكية في مقال لها بتاريخ 12 تموز سنة 1894 وقالت: «إن الماسونية قد وجدت في المبادئ الاشتراكية خير معوان لها، فلا بد لنا من معاضدتها»[59].

الماسونية والدين:

في مؤتمر الطلاب الذي انعقد في سنة 1865 في مدينة «ليبج» التي تعتبر إحدى المراكز الماسونية أعلن الماسوني المشهور **Lafarge** في الطلاب الوافدين من ألمانيا وإسبانيا وروسيا وإنكلترا وفرنسا قائلًا «يجب أن يتغلب الإنسان على الإله! وأن يعلن الحرب عليه، وأن يخرق السماوات، ويمزقها

---

(58) A. Le Fever Le Religion P. 573

(59) «بيان المشرق الأعظم الفرنسي» 1904 (ص237).

كالأوراق»[60].

إن الإلحاد من عناوين المفاخر، وليعش أولئك الأبطال الذين يناضلون في الصفوف الأولى وهم منهمكون في إصلاح الدنيا.

سوف نقوي حرية الضمير في الأفراد بكل ما أوتينا من طاقة وسوف نعلنها حربًا شعواء على العدو الحقيقي للبشرية الذي هو «الدين» وهكذا سوف ننتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها[61].

ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا ألا نألوا جهدًا في القضاء على مظاهرها[62].

المذهب الإنساني[63] والماسونية:

سوف تتخذ الإنسانية غاية من دون الله [64].

إن الماسونية هي الكيان البشري الموجه نحو النور[65].

إن الماسونية تتولى تربية الإنسان بشرف مع إدراك الإنسانية أو بالأحرى: إن الماسونية تتخذ من النفس الإنسانية معبودًا لها[66].

---

(60) يا لها من فكرة خارقة من عقل شتيت مهووس – المترجمان.

(61) «المحفل الماسوني الأكبر» سنة 1922 (ص198).

(62) مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني سنة 1911.

(63) المذهب الإنساني – هو مذهب الدعوة إلى عبادة الإنسان بذل كافة الوسائل لإعلان شأنه دون النظر لأي دافع آخر أو بتعبير آخر – مذهب تأليه الإنسان.

(64) مضابط المشرق الأعظم سنة 1913.

(65) Ritrural Macon Dutres Soye

(66) Revist Dllamassoneria Italyana Vol. 19. P. 78

إن ذخر البشرية الذي لا يقدر بثمن هو عدم «الاعتراف» بأي حقيقة مقدسة وأن الحقائق تنبثق من نظرة الإنسان ذاته، فعليه لا بد من المحافظة على هذه الحقيقة ... وأن جمال الإلحاد هو في هذا ... وإن هذا لهو أساس الإلحاد[67].

من الواجب علينا تنشئة أخلاق تضاهي الأخلاق الدينية في قوتها[68].

إننا لا نكتفي بالانتصار على المتدينين ومعابدهم ... إنما غايتنا الأساسية هي إبادتهم من الوجود[69].

إن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة[70].

دولة الكيان الصهيوني:

وإذا كانت الصهيونية أو اليهودية العالمية تحاربنا عن طريق «الماسونية» في الخفاء ومن وراء حجاب، فإنها تحاربنا جهرة وعلانية بوساطة دولتها التي قامت على الاغتصاب والعدوان والمذابح البشرية من أول يوم، إنها دولة الكيان الصهيوني، المسماة «إسرائيل».

إن العنف الدموي - وهو إحدى السمات البارزة للصهيونية - قد تجسد أبلغ التجسيد في هذه الدولة. وفيها مارس زعماؤها الإرهابيون هوايتهم، وحققوا هويتهم. فقد قال مناحم بيغن في كتابة «الثورة»: أنا أحارب، إذن أنا موجود! ومناحم بيغن هو أحد زعماء العصابات الصهيونية الإجرامية قبل قيام

---

(67) Jean Jaures 1895 P. 13

(68) «تعميم للمشرق الأعظم» سنة 1913.

(69) مضابط المؤتمر الماسوني العالمي سنة 1900 (ص102).

(70) مجلة أكاسيا الماسونية سنة 1903 (ص860).

دولـتهم. وزعـم ائـتلاف الليكـود بعـد قيـام الدولـة، وهـو المسؤول الأول عـن مجزرة «دير ياسين» الشهيرة.

وهذه القسوة جزء من طبيعتهم العدوانية، وهي قديمة فيهم، وقد وصفهم كتابهم «التوراة» بأنهم «الشعب الغليظ الرقبة» كناية عن القسوة.

ووصـفهم القـرآن بقولـه مخاطبًـا لهـم: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}** [البقرة: 74].

إسرائيل الخنجر المسموم في جسم العروبة والإسلام:

وبهذا نعلم أن أعظم آليات الصهيونية أو اليهودية العالمية في حربها مع الإسلام هي: إقامة الدولة العدوانية في أرضنا، دولة العنصرية الطاغية، والقومية الباغية، وقد باتت تملك ترسانة نووية، وجنودًا مجندة، ومساندة أمريكية وغربية بلا حدود، وها هي - بعد أن استلبت الأرض، وانتهكت العرض، ولوثت المقدسات، وشردت الأبناء والبنات - تملي ما تريده من سلام واستسلام - بشوطها التي تفرضها بمنطق القوة، لا بقوة المنطق - على فلسطين وعلى العرب، السلام الذي يخدم إسرائيل، ويحفظ إسرائيل، ويبقي لإسرائيل القوة والهيبة والهيمنة والتحكم في المنطقة كلها.

والعجب كل العجب أن يسلم الفلسطينيون، وتسلم العرب - إلا من رحم ربك - لما تريده إسرائيل، ويهرول الكثيرون هنا وهناك إلى مسيرة السلام المزعوم.

ولولا بقايا من أولي العزم والإيمان، من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من جند الإسلام الصادقين، في فلسطين وفي لبنان، وقفوا في وجه

الطوفان، وقالوا بملء أفواههم: لا. ثم لا، وصدقت أفعالهم أقوالهم، ووقَّعوا على هذا الإباء المؤمن، والإيمان الأبي، بدمائهم الزكية، لولا هؤلاء وأمثالهم لقلنا: على الأمة العفاء.

وهذا ما يجعل الصهيونية ورجالها يزدادون حنقًا وغيظًا على الإسلام، وعلى الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، فهي العقبة الأولى، وهي العدو الأول لأطماعها وأحلامها.

ولا غرو أن يزداد الإسلاميون عداوة لها، فهي التي تكيد لهم في كل موطن، وتؤلب عليهم كل القوى وتصفهم بالأوصاف المخفية والمقلقة للناس، من العنف والدموية والإرهاب، وتحرِّض حكوماتهم عليها، وتعمل على عقد المؤتمرات التي تطاردهم، ولا تميز بريئًا من مسيئ فكل من يدعو إلى عقيدة الإسلام، أو شريعة الإسلام، فهو إرهابي دموي عنيف! وإن كان يقاسي في بلده من الاضطهاد والأذى ما يقاسي.

الصهيونية أخبث أنواع الاستعمار:

وقد بينا في أكثر من دراسة لنا: أن الإرهابي الأكبر هو إسرائيل نفسها، التي تمثل أخبث أنواع الاستعمار، وأعلى مراحل الاستعمار.

ففي العصور الحديثة عرف الناس الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي والإسباني والهولندي وغيرها، وكلها شر على من استعمروهم.

ولكن الاستعمار الصهيوني أشد وأنكى، فهو، كما يقول أخونا الدكتور حسان حتحوت[71]: استعمار إحلالي توسعي عنصري إرهابي ظالم.

---

(71) انظر: فصل «فلسطين» في كتابه القيم «بهذا ألقى الله: رسالة إلى العقل العربي

1- استعمار إحلالي:

إنه استعمار إحلالي، بمعنى أنه استعمار استيطاني، يريد تفريغ البلاد من أهلها ليحل هو محلهم ما استطاع، ويزعجه أن يرى معدل المواليد العرب أعلى منه لدى اليهود، بما في ذلك من تهويد ديموجرافي ... وهو ليس مثل الصليبيين يملك وطنًا آخر يستطيع أن يعود إليه، فلا نية لديه إلا البقاء. وهو لا يحاول التخلص من العرب بالتهجير أو الاضطرار إليه أو هدم البيوت أو تغيير الجغرافيا فقط، بل بجلب مزيد من اليهود من أنحاء العالم ليحلوا محل العمالة الفلسطينية، وهي الخط الحيوي الباقي للفلسطينيين. وقد صرح بهذا ساستهم ومفكروهم، مثل البرفسور «بن زيون دينور» الذي أعلن أن ليس في بلادنا متسع لشعبين.

ومثل «يوري لبراني» «مستشار بيجان للشؤون العربية» الذي قال: سنختزل الجالية العربية إلى طائفة من الحطابين وجرسونات المطاعم! ومثل «شيب الداود» الذي قال: إما «إسرائيل الكبرى» وإما «إسماعيل الكبرى». «يعني بإسماعيل الكبرى: الدولة العربية التي تجمع العرب تحت راية واحدة، وهذا يعني: انتهاء إسرائيل».

2- استعمار توسعي:

وهو ثانيًا استعمار توسعي. ما زالت خريطة من النيل إلى الفرات في الكنيست والخطان الأزرقان في أعلى وأسفل العلم اليهودي يرمزان للنيل والفرات وسئلت «جولدا مائير» عن حدود دولة إسرائيل كما تراها فقالت: عندما نصل إلى الحدود سنخبركم!

= المسلم» (ص195، 196).

وصرح «بن جوريون» بأن الدولة اليهودية تطمح أن تشمل حدودها جنوب لبنان وجنوب سوريا والأردن وشبه جزيرة سيناء «ولهذا لم يتضمن اتفاق «أوسلو» شيئًا عن «الحدود» وستظل سرًا عند قادة إسرائيل، لا يفصحون عنه، إلا عندما تتحقق الأحلام».

3- استعمار عنصري:

وهو استعمار عنصري. وفي تصريح سابق «لرفائيل ايتان» الذي كان رئيس الأركان قال: إن من يتهم البيض في جنوب أفريقيا بالعنصرية كذاب ... السود هناك هم الذين يريدون التحكم في الأقلية البيضاء، تمامًا مثلما يريد العرب أن يتحكموا فينا! وعندما صوتت الدولة الإفريقية بجانب قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية عنصرية في عام 1975 «القرار الذي تم لحسه فيما بعد»، كان تعليق «بيجن»: كيف تحسب الشعوب التي كانت إلى عهد قريب تعيش فوق الأشجار أنها أصبحت تقود العالم؟!

بل إن العنصرية قائمة في اليهود بين بعضهم والبعض. «الأشكينازي» وهو اليهودي الأوربي الأبيض يرى نفسه أرقى من «السيفارديم». وبينما يشكل السفارديم سبعين بالمائة من اليهود، فقد رسم نظام للتعليم والمصروفات الدراسية بحيث لم يسمح لهم بأكثر من ستة بالمائة في الجامعات وثلاث بالمائة عند التخرج.

أما اليهود الأحباش الذين طنطنوا بهم فحثالة المجتمع لدرجة أنه عند التبرع بالدم تنتقي زجاجات دم اليهود الأحباش فتراق، ويرمى بالدم حتى لا يستعمل، وعندما اكتشفت هذه الفضيحة أحدثت مرارة كبيرة لدى الأحباش،

وإحساسًا بالاضطهاد والتفرقة العنصرية {**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ**} [الحشر: 14]. بل إن اليهود الأرثوذوكس أصدروا فتوى بأن المحافظين واليهود الإصلاحيين ليسوا يهودًا.

4- استعمار ظالم:

وأما أنه استعمار ظالم، فبديهية لا تحتاج إلى تدليل. ولكن نحب أن يشهد شاهد من أهلها. فالأستاذ «جودا ماجنس» أول رئيس للجامعة العبرية يقول: إن لليهود حقًا في مطالبة العالم بالعدالة، ولكني على غير استعداد للحصول على العدل لليهود عن طريق الظلم للعرب.

ويقول البروفسور «بنيامين كوهين» الأستاذ بجامعة تل أبيب: لقد كان اليهود على الدوام ضحايا القسوة، فكيف جاز لهم أن يكونوا على هذه القسوة؟

وهناك الكثيرون منهم يرون هذا الرأي.

وفي أمريكا حركتان يهوديتان كبيرتان اسمهما: «السلام الآن» و«الأرض مقابل السلام»، وينكرون الظلم الواقع على الفلسطينيين ويرون إعطائهم وطنًا والعيش معهم في حسن جوار. ومثلهم عدد ضخم من اليهود داخل فلسطين[72].

5- استعمار إرهابي:

وهو كذلك استعمار إرهابي، فهذا أشد وضوحًا، فالإرهاب لحمته وسداه، والإرهاب هو الذي مهد لقيام الدولة منذ عهد العصابات المعروفة: الهاجاناة، والأرجون، والاسترن، والتي اقترفت الفظائع.

---

(72) عن كتاب «بهذا ألقى الله» للدكتور حتحوت السالف الذكر.

والإرهاب هو الذي أسس الدولة، وأقامها بالحديد والنار، فقتل النساء والأطفال والشيوخ بطرق وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا، حتى كانوا يراهنون على ما في بطون الحوامل: أذكر هو أم أنثى؟ ثم يبقرون بطنها - وهم يتضاحكون - ليروا من الفائز منهم؟ ثم يذبحون الأم والطفل معًا!

والإرهاب هو الذي وسع الدولة؟ بأكثر مما أعطاهم قرار التقسيم، ثم ضم إليها ما ضم في حرب يونيو سنة 1967م.

والإرهاب هو الذي يهدد الجيران من العرب، أن يملكوا أي قوة نووية أو غير نووية، يجب أن يملكوا هم القوة وحدهم، ولهذا ضربوا من قديم المفاعل النووي العراقي، بل هم يقتلون الشبان النوابغ من العرب في المجال النووي، كما دل على ذلك أكثر من حادثة. بل هو يهدد المسلمين جميعًا، إذا حاولوا ذلك، كما نرى في الموقف المحنق المغيظ من امتلاك باكستان قنبلة نووية، كما فعلت جارتها وغريمتها الهند.

والإرهاب هو الذي يقتل - بيد الدولة وأجهزتها وبأمر رؤسائها وقادتها - أبطال المقاومة الذين يدافعون عن أرضهم ومقدساتهم وأهليهم، كما رأينا في اغتيال الشقاقي وعياش والشريف، ومحاولة اغتيال خالد مشعل.

الإرهاب الصهيوني هو الذي قتل - من قديم - المصلين في مسجد يافا، وهو الذي صنع مجزرة دير ياسين، وهو الذي قتل أطفال مدرسة «بحر البقر» في مصر، وهو الذي قتل المصلين بعد ذلك في مسجد الخليل في فجر رمضان، وهو الذي قتل من قتل في النفق، وقتل من قتل في «قانا» بلبنان، وقتل أخيرًا العمال البرآء بالقرب من حاجز «ترقوميا» بمنطقة الخليل، ولا

زال يقتل ويقتل ولا تزال يده مغموسة بدماء الأبرار.

والعجب أن يفعل الإرهاب الصهيوني ذلك كله، ويدعي أننا نحن الإرهابيون، أما هو فبرئ من كل تهمة، براءة إخوة يوسف من إلقائه في الجب[73]!

قلق الصهيونية من الصحوة الإسلامية:

ومن أظهر الأدلة على عداء الصهيونية أو اليهودية العالمية: ما تتحدث عنه التقارير المختلفة، والبينات المتعددة، التي تنشرها الصحف خاصة، وأجهزة الإعلام عامة، أو تتناقلها وكالات الأنباء من مشاعر الخوف والقلق والانزعاج من ظهور الصحوة الإسلامية، وتجلياتها المتنوعة في الحياة الإسلامية، والتحذير منها، والتحريض عليها، والتربص بها، والكيد لها، على كل صعيد.

وقد عرضت نماذج من هذه التقارير في كتابي «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه» ردًا على محامي العلمانية - الذي خسر القضية - الدكتور فؤاد زكريا، الذي ادعى دعوى جريئة - وما أكثر اجتراءاته - قال فيها بالحرف الواحد:

«وفي اعتقادي أن من أشد أساطير حياتنا بطلانًا، القول الذي يشيعه كثير من أشياع الحركة الإسلامية بأن الاستعمار بوجه عام، والصهيونية بوجه خاص، يخشون الصحوة الإسلامية، ويعملون على محاربتها؛ ففي مصر كان السادات يشجع التيار الإسلامي في نفس اللحظة التي قرر فيها أن يكون توجهه أمريكيًا ... وفي إسرائيل تقف سلطات الاحتلال إلى جانب الطلاب،

(73) انظر: كتابنا «القدس قضية كل مسلم» (ص136 - 142) نشر مكتبة وهبة.

المنتمين إلى الجماعات الإسلامية في جامعات الأرض المحتلة ... إلى آخر ما قاله من أباطيل.

ولا أدري كيف يجترئ الكاتب على مثل هذا القول، وآلاف الشواهد تكذبه؟! وكيف يطاوعه قلمه أن يكتبه، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الحركة الإسلامية مضطهدة من الغرب والشرق على السواء، وأن ما حاق بها من محن ومآس مريرة، كان بإيحاء القوى الخارجية المعادية للإسلام؟!

والحق أن ما يقوله الكاتب مخالف تمام المخالفة لمنطق الدين، الذي تعلن نصوصه القاطعة موقف القوم من الإسلام وأهله، وخصوصًا العاملين والمتحركين منهم؛ يقول القرآن: {**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ**} [المائدة: 82]، {**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**} [البقرة: 120]، {**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ**} [التوبة: 32]، {**وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ**} [البقرة: 217].

وهو مخالف تمام المخالفة لمنطق التاريخ؛ فمنذ الصراع مع بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وأهل خيبر من اليهود؛ ومنذ معركة مؤتة، وغزوة تبوك، وموقعة اليرموك مع النصارى، ثم معارك حطين، وبيت المقدس، والمنصورة، ودمياط، وغيرها مع الصليبيين، والحرب لم تتوقف، وهي مستمرة، وإن تغيرت الأسلحة، وتبدلت الأسماء.

وهو مخالف تمام المخالفة للواقع، الحافل بالشواهد والأدلة على أن القوم لا يخشون غير صحوة الإسلام، وخروج «المارد» من القمقم، الذي حبس

فيه بالقهر أو الحيلة.

وأستطيع أن أنقل هنا شيئًا قليلًا، مما نشرته الصحف العربية - نقلًا عن مصادر غربية وصهيونية - من قلق اليهود والصليبيين المستمرين من الصحوة الإسلامية، ورعبهم من أي تحرك؛ إسلامي، وعملهم الدءوب لإخماد كل حركة بالدم والحديد، خشية أن تتحول إلى ثورة، فدولة.

على أن ما نشر بالعربية هو شيء قليل قليل، مما ينشر باللغات العالمية، وكذلك ما ينشر هو قليل قليل، مما يكتب في تقارير سرية بين دوائر المخابرات، وصناع القرار، وموجهي السياسات، من وراء الستار.

الوثائق والحقائق تتكلم:

ولن أعتمد - فيما أثبته هنا عن موقف اليهودية والاستعمار من الصحوة الإسلامية - على استنتاجات الدعاة، والمفكرين والباحثين المسلمين وتنبؤاتهم، بل على المعلومات الموثقة المنقولة عن المصادر اليهودية والغربية نفسها، دون تدخل بتفسير أو تعليق. فالحقائق - وحدها - هي التي تتكلم. ولن أذكر هنا كل ما سجلته في كتابي السالف الذكر، بل سأكتفي بأهمه.

1- نشرت صحيفة «يدعوت أحرنوت» الإسرائيلية المعروفة في 1978/3/18 مقالًا رئيسيًا، حللت فيه الهجوم الإسرائيلي على جنوب لبنان، الذي جرى في 1978/3/15، وانتقدت فيه بشدة قيام التلفزيون الإسرائيلي بإجراء مقابلات مع الخائن الماروني سعد الحداد، وانتقدت تمادي التلفزيون اليهودي في إبراز معالم الفرح والبهجة، التي ظهرت في بعض القرى المارونية النصرانية، إزاء احتلال الجيش اليهودي لجزء

كبير من جنوب لبنان. وبررت الصحيفة انتقادها بأن ذلك التصرف الطائش تسبب في حدوث ردة فعل عنيفة بين المسلمين في لبنان، وكل البلاد العربية، وحتى في فلسطين المحتلة أيضًا، وأن ذلك قد حرك فيهم الروح الإسلامية من جديد، وهو الأمر الذي ظلت «إسرائيل» وأصدقائها يحاولون كبته، والقضاء عليه طيلة الثلاثين عامًا الماضية، وأردفت الصحيفة تحليلها قائلة:

«إن على وسائل إعلامنا أن لا تنسى حقيقة هامة، هي جزء من استراتيجية إسرائيل في حربها مع العرب، هذه الحقيقة هي أننا نجحنا بجهودنا، وجهود أصدقائنا[74] في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، طوال ثلاثين عامًا، ويجب أن يبقى الإسلام بعيدًا عن المعركة إلى الأبد، ولهذا يجب ألا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع استيقاظ الروح الإسلامية بأي شكل، وبأي أسلوب، ولو اقتضى الأمر الاستعانة بأصدقائنا[75] لاستعمال العنف والبطش، لإخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية في المنطقة المحيطة بنا».

واختتمت الصحيفة تحليلها قائلة:

«ولكن تليفزيوننا «الإسرائيلي» وقع في خطأ أرعن، كاد أن ينسف كل خططنا، فقد تسبب هذا التصرف في إيقاظ الروح الإسلامية، ولو على نطاق

---

(74) يعنون بأصدقائهم: الحكام العلمانيين، الذين يدعون الوطنية، وهم متفقون مع اليهود سرًا في ضرب أي تحرك إسلامي.

(75) يعنون بأصدقائهم: الحكام العلمانيين، الذين يدعون الوطنية، وهم متفقون مع اليهود سرًا في ضرب أي تحرك إسلامي

ضيق، ونخشى أن تستغل الجماعات الإسلامية، المعروفة بعدائها لإسرائيل، هذه الفرصة لتحريك المشاعر ضدنا، وإذا نجحت في ذلك، وإذا فشلنا - بالمقابل - في إقناع «أصدقائنا» بتوجيه ضربة قاضية إليها في الوقت المناسب، فإن على إسرائيل حينئذ أن تواجه عدوًا حقيقيًا «لا وهميًا»، وهو عدو حرصنا أن يبقى بعيدًا عن المعركة.

وستجد إسرائيل نفسها في وضع حرج، إذا نجح المتعصبون، أولئك الذين يعتقدون أن أحدهم يدخل الجنة، إذا قتل يهوديًا، أو إذا قتله يهودي».

2- ذكرت صحيفة القبس الكويتية في عددها الصادر في 1979/1/26، نقلًا عن وكالات الأنباء العالمية أن موشيه دايان، قال في خطاب ألقاه أمام وفد من الأمريكيين اليهود المتعاطفين مع إسرائيل: «إن على الولايات المتحدة والدول الغربية أن تأخذ العبرة من أحداث إيران الأخيرة، التي تمخضت عن اندلاع ثورة إسلامية، بشكل لم يكن متوقعًا أبدًا».

وقال دايان: «إن على دول الغرب - وعلى رأسها الولايات المتحدة - أن تعطي اهتمامًا أكبر لإسرائيل باعتبارها خط الدفاع عن الحضارة الغربية، في وجه أعاصير الثورة الإسلامية، التي بدأت من إيران، والتي من الممكن أن تهب بشكل مفاجئ وسريع ومذهل في أية منطقة أخرى في العالم العربي، وربما في تركيا وأفغانستان أيضًا».

وبنبرة غاضبة حاقدة أكد موشيه دايان أن عدوه الأول هو الإخوان المسلمون، وأنه لن يطمئن على مستقبل إسرائيل إلا إذا تم القضاء عليهم.

وانتقل موشيه دايان بعد ذلك إلى تهديد عرب فلسطين المحتلة المسلمين

قائلًا: إن عليهم أن يدركوا أن إسرائيل لن تسمح بانجرافهم نحو الاتجاهات الإسلامية المتعصبة، وأنه في الوقت الذي تشعر فيه إسرائيل أن العرب، الذين بقوا في فلسطين قد بدأوا في التمسك بالاتجاهات الإسلامية المتعصبة، فإنها لن تتردد في القذف بهم بعيدًا، لينضموا إلى إخوانهم «اللاجئين».

3- اعترف مسئول صهيوني كبير في سلطات الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين المحتلة، في مقابلة صحفية أجرتها صحيفة ها آرتس الإسرائيلية، في عددها الصادر في 2 شباط 1979، بأن هناك مزيدًا من الدلائل تشير إلى تزايد المد الإسلامي، الذي بدأ يظهر بين عرب «إسرائيل» على حد تعبير المسؤول اليهودي، والذين يبلغ عددهم حوالي نصف مليون(76)، وبين عرب الضفة الغربية وقطاع غزة، الذين يبلغ عددهم حوالي مليون(77).

وقال المسؤول اليهودي: «إن الذي يثير قلقنا هو أن مواقف العرب داخل إسرائيل بدأت تتحول من مواقف مبنية على قاعدة قومية، إلى مواقف تستند إلى قواعد دينية، وأن الشباب العربي بدأوا يتحولون عن زعاماتهم التقليدية إلى الزعامة الدينية، التي يمثلها علماء الدين، وهم في غالبيتهم من الشباب، الذين لا يستبعد أن تكون لهم ارتباطات بحركات إسلامية متعصبة».

ومضى المسؤول اليهودي يقول:

«إن خطرًا حقيقيًا بدأ يهدد الاستقرار في الشرق الأوسط، وقسمًا كبيرًا من إفريقيا، وهذا الخطر هو خطر انتشار ثورة إسلامية شاملة، يقوم بها متدينون

(76) هم الآن مليون ومائة ألف عربي.
(77) هم الآن حوالي ضعف ذلك العدد.

متطرفون».

4- وفي ندوة عقدها أهم معهد أبحاث إسرائيلي متخصص في رصد الشؤون العربية، كان موضوع احتمال انتشار «يقظة إسلامية» في فلسطين المحتلة، هو الموضوع الرئيسي، الذي تناوله عدد من كبار المتخصصين اليهود في الشؤون العربية، خلال ندوة خاصة نظمها معهد «شيلواح» في جامعة تل أبيب في أواخر شهر كانون الثاني 1997.

وقد أجمع العلماء اليهود المشاركون في الندوة على أن اليقظة الإسلامية، التي اجتاحت إيران بصورة مفاجئة ومذهلة وبدون سابق إنذار محسوس، تنذر بأن ما حدث في إيران، يمكن أن يحدث في أي مكان آخر في المنطقة المحيطة بفلسطين المحتلة، ويكان يكون أمرًا لا مفر منه أمام اليهود من التحسب له بشكل جدي.

وفيما يلي مقتطفات من أقوال العلماء اليهود المتخصصين في الشؤون العربية، الذين شاركوا في الندوة:

البروفسور شارون: مستشار مناحيم بيغن - رئيس وزراء الاحتلال الصهيوني - للشؤون العربية قال:

«ما من قوة في العالم تضاهي قوة الإسلام، من حيث قدرته على اجتذاب الجماهير، فهو يشكل القاعدة الوحيدة للحركة الوطنية الإسلامية».

البروفسور «يوشواح بورات» قال:

«إن المساجد هي - دائمًا - منبع دعوة الجماهير العربية إلى التمرد على الوجود اليهودي».

البروفيسور «الباريش» قال:

«إن الإسلام قوة سياسية واجتماعية، قادرة على توحيد الجماهير، وخاصة في الضفة الغربية، حيث يقوم علماء الدين لمهمة توحيد الصفوف ضد اليهود».

البروفسور «موشيه شارون» قال:

«إن الجهود الأولى التي بذلت منذ أكثر من نصف قرن بواسطة علماء الدين المسلمين؛ من أمثال مفتي فلسطين الأسبق الشيخ أمين الحسيني، والشيخ حسن البنا في مصر، وغيرهما من العلماء المسلمين، والتي ما زالت، حتى الآن، كان لها تأثير كبير في كسب العالم الإسلامي إلى جانب العرب الفلسطينيين باسم الإسلام وباسم حماية الأماكن المقدسة الإسلامية».

وختمت الندوة أعمالها بالإشارة إلى عدة نقاط، كان أهمها الاعتراف بوجود يقظة إسلامية حقيقية، بدأت في الظهور بين عرب فلسطين المحتلة، رغم كل الجهود، التي بذلها اليهود خلال الثلاثين عامًا الماضية لدمجهم في المجتمع الإسرائيلي.

5- نقلت وكالة الأنباء الفرنسية في نبأ لها من بيت المقدس بتاريخ 19 شباط «فبراير» 1979، أن السلطات الإسرائيلية قامت باعتقال اثنى عشر عالمًا من علماء المسلمين، ومعظمهم من الشباب في بيت المقدس.

وذكرت الوكالة أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي بدأت تبث رجالها في المساجد، لرصد الشباب المسلم، الذي يرتاد المساجد بصورة متزايدة.

6- نقلت صحيفة «القبس الكويتية» في عددها الصادر في 1986/6/30 عن

صحيفة «فورتشن» مقالًا تحت عنوان «الصحوة الإسلامية تقلق أمريكا ... وإسرائيل تتوقع جهادًا إسلاميًا مقدسًا لتحرير الأراضي». وجاء في مقال «فورتسن» ما يلي:

«إن صحوة الإسلام الجديدة، تزعزع الإسرائيليين كثيرًا، فإسرائيل تعرف تمامًا أنه إذا فشلت محادثات السلام مع مصر، فإنها ستكون هدفًا لحرب «الجهاد الإسلامي»، التي ستشنها الصحوة الإسلامية المتزايدة ...».

وتردف صحيفة «فورتشن» قائلة:

«إنه حتى في الجامعات العبرية في إسرائيل بدأ الطلاب العرب المسلمون يبدون اهتمامًا متزايدًا بالعودة إلى دينهم، وبدئوا يمارسون ضغوطًا على السلطات اليهودية للسماح بفتح كليات للثقافة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، في الجامعات اليهودية، كما بدأ العديد منهم يطلقون لحاهم ويؤدون العبادات الإسلامية، في حين بدأت الفتيات المسلمات في ارتداء الزي الإسلامي الشرعي».

وقالت «فورتشن» في مقالها:

«إن استفتاء جرى مؤخرًا في الضفة الغربية أظهر أن سكانها - وخاصة المثقفين منهم - يطالبون بالعودة إلى الإسلام، بعد أن يئسوا من جميع الأنظمة والأيديولوجيات، التي تنازعت أفكارهم سنوات طويلة».

وأردفت الصحيفة تقول:

«إن الإسرائيليين يشعرون أنهم يعيشون في بحر متلاطم، يسيطر عليه الإسلام، وإن إسرائيل مهددة بالغرق والاندثار في هذا البحر الإسلامي».

7- وأول ما نطالع في ملحق صحيفة «ها آرتس» عن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية في قرى المثلث العربي، المحتلة منذ عام 1948، مقالًا عنوانه «الإسلام يعم قرى المثلث في إسرائيل ...».

وجاء في المقال:

«إن يوم الجمعة من كل أسبوع، أصبح عيدًا لغالبية سكان «باقة» الغربية وهي من أكبر قرى المثلث العربي في إسرائيل» ويردف المقال قائلًا:

«إن سكان قرى المثلث لم يكونوا إلى ما قبل أشهر قليلة، وعلى مدى الثلاثين عامًا الماضية، لم يكونوا يكترثون أبدًا أو يهتمون بيوم الجمعة، فقد كان يمضي كأي يوم آخر من أيام الأسبوع، أما الآن، فقد أصبح ليوم الجمعة أهمية كبيرة، إذ ما أن يبدأ مؤذن المسجد برفع صوته بالأذان، حتى يهرع جميع السكان إلى المسجد، ليؤدوا الصلاة».

ويمضي المقال قائلًا:

«إن من يزر قرية «باقة» الغربية يوم الجمعة، يشعر أن النشاط فيها قد انتقل من الشارع العام، ومن المتاجر والمساكن والمقاهي، إلى المساجد الثلاثة التي في القرية، وليس باقة الغربية وحدها، التي يشعر فيها الزائر بذلك، بل إنه يشعر بنفس الشعور، حين يزور قرى قلنسوة، وكفر قاسم، وأم الفحم، والطيبة، وكفر قرع، والطبرة، وغيرها من القرى العربية».

إن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية في المناطق، التي يقطنها عرب في «إسرائيل» ليست مقتصرة على القرى وحدها، بل إنها تبرز في المدن أيضًا وخاصة عكا، وإجمالًا فإن القطاع العربي من إسرائيل يعيش حاليًا مرحلة

العودة إلى الإسلام، فلقد أخذ الجميع، وخاصة الشباب يؤمون المساجد، بعد أن كانوا يمضون وقتهم في المدن الكبرى في المقاهي والنوادي والاجتماعات الحزبية، وهذه لم تشهد الأقلية العربية لها مثيلًا من قبل».

وفي نفس ملحق صحيفة «هآرتس» اليهودية الصادر بتاريخ 1979/7/13م، والذي خصصته كاملًا عن اليقظة الإسلامية بين شباب قرى المثلث العربي بفلسطين المحتلة عام 1948م، نطالع مقالًا آخر تحت عنوان:

«العودة إلى الإسلام من جديد، أسئلة ... وتساؤلات ...».

يقول المقال:

«طوال الثلاثين عامًا المنصرمة، كانت الأقلية العربية في إسرائيل تمارس نشاطًا سياسيًا متحفظًا، غالبًا ما كان تحت مظلة الحزب الشيوعي الإسرائيلي، أما الآن فإن الأقلية العربية بدأت تتجه اتجاهًا مختلفًا نحو جذورها وأصولها الدينية، ولقد أصبحت ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية في صفوف الأقلية العربية، موضع اهتمام السلطات الرسمية، التي تنظر - بريبة وخوف - إليها».

ويردف المقال قائلًا:

إن ظاهرة تزايد اليقظة الإسلامية بين «عرب إسرائيل!!» أصبحت مصدر قلق أكيد لكل يهودي، فلقد أصبح كل يهودي يتساءل بقلق وخوف هذه التساؤلات:

ما هي أهداف هؤلاء الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد ... ؟!

ومن هؤلاء الذين يقفون وراء هذه الظاهرة ... ؟!

وهل حركتهم هذه حركة عفوية، لن تلبث أن تزول أم أنها ستتحول إلى حركة إسلامية ثورية، كما حدث في مناطق أخرى في الشرق الأوسط؟!

وقبل أن يبدأ المقال في محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، يشير إلى أن الخطر الحقيقي الذي تمثله ظاهرة العودة إلى الإسلام بين عرب إسرائيل هو «أن الآلاف من الشباب، الذين يعودون إلى الإسلام من جديد، هم من طلاب المدارس الابتدائية والثانوية ومعاهد المعلمين، أي أنهم من الجيل المثقف، ومن جيل المستقبل».

وينتقل الكاتب بعدئذ إلى الإجابة عن التساؤلات حول أهداف اليقظة الإسلامية، ومن هم الذين يقفون وراءها، فيقول: إنه لاحظ أن الكثير من رجال الدين، الذين لهم نشاط مرموق، غالبًا ما يكونون من أعضاء الحركة الإسلامية، التي يصفها الكاتب اليهودي بقوله:

«إنها حركة دينية متعصبة، أنشئت في مصر عام 1929م وانتشرت في أنحاء العالم العربي».

ويردف المقال قائلًا:

«إن النشاط الإسلامي ليس مقتصرًا على رجال الدين وحدهم، بل إن الواعظات المسلمات لهن دور كبير في تزايد اليقظة الإسلامية بين عرب إسرائيل - حسب تعبيره - ففي قرية «باقة» الغربية مثلًا، تلقي واعظة شابة، وتأتي من نابلس دروسًا دينية كل يوم ثلاثاء أمام نساء وفتيات القرية، وقد كان لهذه الدروس أثر كبير في عودة الكثيرات إلى الإسلام، وامتلاء المساجد

بهن في الأماكن المخصصة لهن».

8- ونقلت صحيفة الشرق الأوسط في 1981/2/28، التي تصدر بالعربية في لندن وجدة في وقت واحد، تحليلًا بثته وكالة رويتر حول اكتشاف تنظيم إسلامي في فلسطين المحتلة منذ عام 1948م، وجاء في التحليل:

«إن الصحوة الإسلامية التي انتشرت بين سكان الأراضي المحتلة فلسطين، تثير قلق سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وإن هذه السلطات تنظر بقلق بالغ إلى تزايد أعداد المترددين على المساجد، وخاصة الشباب الذين أصبحوا ينادون - علانية - بضرورة العودة إلى أصول الدين والإسلام».

وأنهت وكالة أنباء رويتر تحليلها قائلة:

«إن السلطات الإسرائيلية لا تخفي قلقها من أن تكون هذه الصحوة الدينية بين شباب فلسطين المحتلة منذ عام 1948م، قد أدت إلى تشكيل منظمات إسلامية شبه سرية على غرار جماعة الإخوان المسلمين».

9- نشرت جريدة «الرأي» الأردنية في 1981/4/12م، ترجمة حرفية لدراسة نشرتها جريدة «يديعوت أحرنوت» في ملحقها الأسبوعي الأخير، ونقتطف من الدراسة هذه العبارات:

«إن الحركة السرية، التي تنشط في فلسطين المحتلة عام 1948م، قد رسمت خطواتها بروح الإسلام، ولم تتأثر بأية روح قومية أو وطنية أخرى».

«الشباب المسلم في فلسطين بعد أن فقد الأمل في جميع الحركات العربية، أصبح يصرخ بأعلى صوته:

«لا عزة ولا قوة، إلا بالإسلام».

«إن المساجد التي كانت في السابق مقرًا لتجمع الشيوخ والعجائز، أصبحت اليوم مليئة بالشباب».

«الفتيات المسلمات يشاركن في نشاطات الحركة الإسلامية في فلسطين».

«الخطب في المساجد تحولت إلى خطب سياسية، فيها تحريض واضح ضد الحكم الإسرائيلي».

«الحركة الإسلامية تتسع وينتمي إلى صفوفها اليوم، أكثر من عشرين بالمائة من شباب القرى العربية في فلسطين المحتلة عام 1948م».

«دعاة الحركة الإسلامية يقولون لمؤيديهم: إنه من أجل بث روح الإسلام في فلسطين فلا بد من اللجوء إلى ضرب الاحتلال ومقاومته في سبيل الله».

10- نقلت صحيفة «الرأي» الأردنية في عددها الصادر في 1981/8/14م، عن مجلة «نيوزويك» الأمريكية مقابلة، أجرتها مراسلة النيوزويك في نيويورك، السيدة «مارلين ديسنر» مع «أهارون ياريف» أحد مديري المخابرات الإسرائيلية السابقين، والرئيس الحالي لمركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب، ومن الأسئلة التي وجهت إلى «أهارون ياريف» هذا السؤال:

«هل سيكون بمقدور الأقطار العربية على المدى البعيد أن تزيل إسرائيل ...؟».

وكان جواب «أهارون ياريف» كما يلي:

«لا أعتقد أن العرب - بأوضاعهم الحالية - يستطيعون أن يزيلوا إسرائيل من الوجود. حتمًا مع وجود أسلحة جديدة ومتطورة، ولكن الأمر قد يصبح أكثر خطورة بالنسبة لإسرائيل في المستقبل، إذا نجح المتعصبون المسلمون في تغيير الأوضاع في الأقطار العربية لصالحهم. ولكنا نأمل أن أصدقاءنا الكثيرين سينجحون في القضاء على خطر المتعصبين المسلمين في الوقت المناسب».

11- نقلت صحيفة «القبس» الكويتية في عددها رقم 3386، الصادر في 1981/10/12، نص مقابلة إذاعية، أجراها راديو إسرائيل مع مناحيم بيغن، قبل أسبوعين من مقتل السادات، وفيما يلي أهم ما ورد على لسان مناحيم بيغن في تلك المقابلة:

«سؤال المذيع: ألا تقلقك المصاعب، التي تواجه الرئيس السادات من قبل المعارضة؛ بسبب معاهدات كامب ديفيد ... ؟.

جواب بيغين: إنني أدرك تمامًا الأخطار، التي تهدد صديقنا الرئيس أنور السادات، ولست أنكر أنني حذرته مرارًا من أولئك المتعصبين المتطرفين، الذين يحملون أفكارًا عدائية لإسرائيل، ويريدون العودة إلى تطبيق قوانين وعادات العصور الوسطى، بل العصور الحجرية. «يقصد قوانين الشريعة الإسلامية».

وعندما كنت في أمريكا قام الرئيس السادات بحملة اعتقالات ضد أعدائه من الإخوان المسلمين[78]، وقد سمعت اعتراضات كثيرة هناك ضد هذه

(78) الواقع أن الاعتقالات شملت كل قوى المعارضة الإسلامية، والوطنية، والقومية.

الحملة باعتبارها تتعارض مع التقاليد الديمقراطية، ولكنني دافعت عن إجراءات السادات بحرارة، وأقنعت المعترضين بأنه يجب عليهم أن يتناسوا التقاليد الديمقراطية، حين يتعلق الأمر بالمسلمين ... انتهى ...

هذ أخبار وتصريحات وتحليلات نقلتها بحروفها من مصادرها[79]، دون أن أعقب عليها بكلمة واحدة، لتتحدث هي للقارئ بنفسها، وإن فيها لعبرة لكل ذي لب، وذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

فهل تقنع هذه الأقوال الموثقة كاتبنا أستاذ الفلسفة، الذي يكابر ويماري في أشد الحقائق وضوحًا، ليعلن - في جرأة يحسد عليها - أنها من أشد الأساطير في حياتنا بطلانا؟!

وهبني قلت: هذه الصبح ليل أيعمي العالمون عن الضياء؟!!

* * *

(79) اعتمدنا في هذه النقول الموثقة من مصادرها على الدراسة الوثائقية، التي أعدها ونشرها الأخ الفاضل الأستاذ زياد أبو غنيمة، ونشرتها دار الفرقان في عمان. وينبغي أن يضاف هنا ما كتبه الأستاذ عادل حسين في صحيفة «الشعب» المصرية، التي يتولى رئاسة تحريرها، تقريرًا وتعبيرًا عن موقف أمريكا واليهود من الصحوة الإسلامية، من خلال زيارته لأمريكا، أوائل 1987م.

(3)
الشيوعية

الشيوعية باعتبارها فكرة «عقيدة ونظامًا».

الشيوعية باعتبارها دولة تعادي الإسلام.

لماذا نرفض الشيوعية؟

الشيوعية مذهب مادي ضد عقيدتنا.

ضد شريعتنا وقيمنا الأخلاقية.

ضد الحرية.

مذهب متناقض.

ضد وحدة الأمة.

استعمار جديد.

التخريب من الداخل علاقة اليهودية بالشيوعية.

أداة الصليبية لحربنا.

دعوة رجعية.

مذهب لا حاجة بنا إليه.

* * *

الشيوعية

العدو الثالث للحل الإسلامي - بعد الاستعمار والصهيونية - هو الشيوعية.

والشيوعية عقيدة وفكرة ومذهب، كما أنها نظام ودولة وحكومة، منبثقة عن العقيدة. وهي - بكلا الاعتبارين - تحارب الإسلام - وتعتبره عدوًا مبينًا لها، وخطرًا على وجودها وامتدادها.

عقيدة الشيوعية تناقض الإسلام:

فهي - باعتبارها عقيدة وفكرة - تعادي الأديان كلها، وتخص الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة، كما تعد الدعاة إلى الإسلام ألد أعدائها.

إنها «فكرة مادية» تقوم على فلسفة «المادية التاريخية» التي قال بها «ماركس» والتي لا ترى وجودًا إلا للمادة، ولا تؤمن بما وراء المادة أو الحس «الميتافيزيقا» وما دام «الله» الخالق للكون والإنسان غير مادي بمعنى أنه لا يرى ولا يلمس ولا يشم ولا يذاق، ولا يدرك بأي حاسة من الحواس المعروفة، فهي لا تؤمن بوجوده، بله أن تعترف بحاكميته لخلقه، وحقه - جلّ شأنه - في أمرهم ونهيهم والتشريع لهم.

إن فلسفة ماركس تؤكد ما قاله الفلاسفة الماديون قديمًا وحديثًا، مثل «فويرباخ» الذي قال: ليس صوابًا أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله!.

فالدين في نظر الشيوعيين «خرافة» روّجتها طبقات الملوك والنبلاء والأثرياء والإقطاعيين وأمثالهم، لإلهاء الفقراء والمستضعفين والطبقات

الكادحة والمسحوقة في المجتمعات البشرية، عن المطالبة بحقوقهم، والثورة على ظالميهم، على أمل أن يعوضوا عن ذلك في الجنة.

والدين بهذا الاعتبار يعد «مخدرًا» أو «أفيونًا» للشعوب، كما قال ماركس ومن تبعه.

على حين يرى الإسلام أن الدين هو جوهر الحياة، وروح الوجود الإنساني، والحياة بغير دين، هي حياة الأنعام، لا حياة الإنسان: **أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}** [الفرقان: 43، 44].

والشيوعية لها فلسفة في تفسير الكون والحياة والإنسان والتاريخ، تناقض فلسفة الإسلام وفكرته الكلية في تفسير هذه الأشياء. فالكون هو هذا المادي المنظور، ولا يوجد كون آخر غير منظور، ولا خالق يدبر هذا الكون. والحياة هي هذه التي نعيشها، ولا حياة أخرى وراءها للحساب والجزاء ... والإنسان هو هذا الغلاف الطيني المادي الذي نراه، ولا روح فيه. والتاريخ إنما تحركه وتسيره عوامل اقتصادية بحتة، وعلاقات الإنتاج وأساليبه هي التي تحدد مسيرته. أما العوامل الروحية والأخلاقية والفكرية، فليس لها اعتبار يذكر، في حين اعتبر القرآن هذه العوامل النفسية هي التي تغير الحياة، وتصنع التاريخ: **{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}** [الرعد: 11].

الشيوعية تقوم على فلسفة حتمية الصراع بين الطبقات، أما الإسلام فيقوم على ضرورة الإخاء والتعاون بين الناس كما في الحديث: «**وكونوا عباد الله**

إخوانًا»[80] وفي القرآن: **{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ}** [المائدة: 2].

نظام الشيوعية يناقض شريعة الإسلام:

والشيوعية ليست مجرد عقيدة وفلسفة نظرية، بل هي عقيدة ينبثق منها نظام للحياة، يصبغ حياة المجتمع كلها بصبغته، في الاقتصاد، وفي الاجتماع، وفي السياسة، وفي الثقافة، وفي التربية، وفي التشريع، وفي التقاليد، وفي الفنون، وفي كل شئون الحياة فردية وأسرية واجتماعية، مادية ومعنوية، محلية ودولية.

وهي - بهذا الاعتبار أيضًا- تعارض الإسلام ويعارضها، على خط مستقيم. فالإسلام يتميز بأنه عقيدة وشريعة ومنهج كامل للحياة يصحب الإنسان بأحكامه ووصاياه، منذ أن يولد إلى أن يموت، بل من قبل أن يولد، وبعد أن يموت وكما يصحبه «زمانيًا» في رحلة حياته كلها، طالت أم قصرت، يصحبه «مكانيًا» في جوانب حياته كلها، في البيت وفي الطريق، وفي المسجد وفي المزرعة أو المصنع أو المتجر، أو المدرسة أو الجامعة أو المكتب أو المحكمة أو الديوان **{وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ}** [البقرة: 115].

ولا يخلو عمل أو تصرف من تصرفات الحياة إلا وللإسلام فيه حكم من أحكامه الشرعية الخمسة: الوجوب، أو الاستحباب، أو التحريم، أو الكراهة، أو الإباحة، ابتداءً من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

---

(80) جزء من حديث متفق عليه.

وللإسلام أحكام قطعية تعد من الثوابت التي لا يجوز التنازل عنها أو التفريط فيها، مثل أحكام الزواج والطلاق والمواريث، وحل البيع، وحرمة الربا، وتحريم المسكرات والزنى والاعتداء على الملكية الخاصة للناس، وإقامة الحدود والقصاص ... إلخ.

وللشيوعية في كثير من هذه الأحكام مواقف مضادة، ومن هنا لا بد من الصدام مع الإسلام، الصدام الفكري أولًا، ثم الصدام العملي بعد ذلك.

فإذا كانت الشيوعية تصطدم بالمسيحية مثلًا بوصفها عقيدة، فهي تصطدم بالإسلام بوصفة عقيدة ونظامًا ومنهاجًا متكاملًا للحياة.

الشيوعية باعتبارها دولة:

علمنا أن الشيوعية ليست مجرد عقيدة ومذهب ونظام للحياة، وقد كانت كذلك منذ عهد ماركس وإنجلز، ولكنها بعد عهد لينين، أصبحت دولة وحكومة، بل دولة كبرى، تعتبر الدولة الثانية وأحد قطبي العالم، وإحدى القوتين العظميين.

وهذه الدولة تتوجس خيفة من الإسلام من جهتين: من داخلها، ومن خارجها.

فمن ناحية الداخل، نجدها تضم ملايين المسلمين في داخل روسيا نفسها من التتار والقوقازيين وغيرهم.

كما يضم الاتحاد السوفيتي «جمهوريات إسلامية» هي في حقيقة أمرها «أوطان إسلامية» كاملة، لها استقلالها، ولها هويتها، ولها حضارتها وتاريخها، ضمت بالقوة القاهرة إلى الاتحاد السوفيتي، وأدخلت قسرًا تحت

الستار الحديدي، وعدهم الناس ضمن «الأقليات الإسلامية».

هؤلاء المسلمون قاوموا الثورة الشيوعية، وضربوا بيد من حديد، وسحقتهم القوة الجبارة سحقًا، وذبحت الملايين، وسجنت وشردت، ونكلت وعذبت، واستخدمت كل أدوات البطش والقهر، حتى رضخ الناس أخيرًا، حين قلمت أظافرها، وخلعت أنيابها، وكسرت أسلحتهم وأدواتهم، ولم يبق لهم ما يدافعون به عن أنفسهم.

وكلما بدا منهم شيء، وحتى بدون أن يبدو شيء، مجرد هواجس أو مخاوف تعرّض هؤلاء المسلمين لإبادات منظمة، بالتقتيل أو بالتهجير، من أرض إلى أرض، محاولة للتغيير «الديمجرافي» وخصوصًا النفي إلى صحراء «سيبريا».

هذا من ناحية الداخل، أما من ناحية الخارج، فإن الإسلام يقف عقبة في سبيل انتشار الشيوعية في العالم العربي، والعالم الإسلامي، في آسيا وفي إفريقيا، وهو السد المنيع الحائل دون المد الشيوعي.

ورغم وجود أقوى حزب شيوعي في آسيا في بلد إسلامي - وهو إندونيسيا - لم يستطع أن يستولى على الحكم، وفي أول فرصة انهار الحزب ولم تقم له قائمة.

وكذلك كان أقوى حزب شيوعي في إفريقيا في بلد إسلامي آخر، هو السودان، وقد سقط الحزب كذلك على أم رأسه، فلم يستطع أن يجد له فرصة بعد ذلك.

هناك بلدان إسلاميان صغيران دخلتهما الشيوعية في غفلة من المسلمين:

البلد الأول: هو «ألبانيا» من أوربا الشرقية.

والبلد الثاني هو: «اليمن الجنوبي» من الجزيرة العربية.

وكلا البلدين شقى بالشيوعية، ولم يطعم الناس فيه من جوع، ولم يأمنوا من خوف، ولم تحقق الشيوعية لهم «الجنة» التي وعدتهم بها، ولم يجن الناس من ورائها غير الشوك والحنظل، والثمرة من جنس البذرة **{وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}** [الأعراف: 58]

علاقة الشيوعية باليهودية:

وهناك عامل آخر يزيد نار العداوة الشيوعية اشتعالًا للإسلام ودعاته، ذلك: أن الشيوعية أو الماركسية، أو الاشتراكية العلمية هي بنت اليهودية. وعلاقة الشيوعية باليهودية علاقة وثيقة لا تنكر، في روسيا أو في غيرها، قبل الثورة البلشفية في روسيا وبعدها في الفكر والتخطيط والتمويل والتنفيذ.

ومن أدلة ذلك:

1- أن كارل ماركس مؤسس الشيوعية نفسه من أسرة يهودية عريقة. فقد كان جده حاخامًا معروفًا، وكذلك كان والده، وإن اضطر إلى اعتناق البروتستانتية في منتصف عمره، لكي يستطيع أن يمارس مهنته في بيئة ألمانية تكره اليهود ولا تثق بمعاملاتهم، وتقيد عليهم ممارسة بعض المهن والحرف.

لقد ظلت العقيدة اليهودية تعمل عملها في نفس ماركس، وأخذت «المشكلة اليهودية» قدرًا كبيرًا من كتاباته وتفكيره. وقد ألقى اللوم في اضطهاد اليهود على الظروف الاقتصادية التي تكتنف الجماعات التي يعيش بينها اليهود، لا

على العناد اليهودي نفسه الذي يريد أن يفرض منزلته «كشعب الله المختار» على الجماعات الأخرى، بكل الوسائل «ومنها الربا» مما يدفع هذه الجماعات إلى المقاومة والاستنكار والانتقام من اليهود.

ولقد كان ماركس وثيق الصلة بل التلمذة على مؤسس النظرية الصهيونية وفيلسوفها الأول «موثه هيس» الذي وضع أسس الحركة الصهيونية نظريًا وتطبيقيًا في كتابه العميق «الدولة اليهودية» وفي بحثه الآخر «روما والقدس» اللذين استوحى منهما «هيرتزل» الزاد الفكري للترويج للحركة الصهيونية.

التقى كارل ماركس و«موثه هيس» سنة 1862 لقاء صداقة عميقة متواصلة طويلة، وبلغ إعجابه به حد العشق والافتتان، كما يلحظه كل مطلع على كتب ماركس، مثل أطروحته عن «المشكلة اليهودية» وخصوصًا رسائله إلى «أورباخ» وقد وصف صديقه «موثه هيس» بما يلي:

إنني قد اتخذت هذا العبقري قدوة لي ومثالًا، لما يتحلى به من دقة في التفكير، وتوارد في الخواطر، وتوافق في الآراء مع عقدتي وما أؤمن به ... فهو رجل نضالي في الفكر والسلوك ...».

وكثير من أقطاب الفكر الصهيوني المعاصر يؤكدون صلة ماركس بالصهيونية، وإخلاصه لها، مثل الحاخام «لويز رونس» في كتابه «أغرب من الخيال» الذي يقول فيه: «إن كارل ماركس حفيد الحاخام «مردخاي ماركس» كان في روحه واجتهاده وعمله ونشاطه، وكل ما قام به وأعد له من فكر وأسلوب، أشد إخلاصًا لإسرائيل من الكثيرين ممن يتشدقون اليوم

بأدوارهم في مولد الدولة اليهودية»[81]

2- لقد انتهى كارل ماركس في دراسته للمشكلة اليهودية إلى أنها لا تنحل نهائيًا إلا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره، وإذابة الأديان والقوميات كلها في بوتقة الماركسية. وما دامت الماركسية فكرة وحرة تتوخى إخضاع المجتمع إلى «طليعة ثورية» تجمع في يدها كل مقدرات الأمة، فقد وجد اليهود في هذه الفكرة ما يتفق واعتقادهم بأنهم «شعب الله المختار» لذلك جاهدوا أن يكونوا هم هذه «الطليعة القيادية» المختارة، لكل الحركات الماركسية في العالم.

ولا غرو أن وجدت تعاليم ماركس في روسيا يهوديًا خارق الذكاء، حديدي العزم، استطاع أن يحول الماركسية من فكرة وحركة إلى ثورة ودولة تتسلم زمام الحكم في روسيا، ذلك هو «لينين» الذي لولا أساليبه الجهنمية ما كان هناك احتمال لوصول الماركسيين في أي مكان إلى سدة الحكم، كما هو رأي أكثر المؤرخين.

كان لينين يهودي الأصل، وكانت زوجته ورفيقة حياته في العمل الماركسي يهودية أيضًا. وكذلك الأغلبية الساحقة من زملائه وأعوانه في الحركة الماركسية، خارج الاتحاد السوفيتي وداخله، في سدة الحكم البلشفي، وفي أيام منفاه، أمثال «تروتسكي» و«رادك» و«روزا لوكسمبورغ» وعشرات غيرهم من أقطاب الحركة الماركسية كلهم من اليهود من مختلف الجنسيات.

---

(81) «موسكو وإسرائيل» للدكتور عمر خليفة (ص30، 31).

ولهذا لا نعجب إذا كان أكثر زعماء الحكم الشيوعي الجديد من اليهود، بعضهم روس، وبعضهم بولنديون، وبعضهم من ألمانيا، ومن غيرها من البلاد والتبعيات.

3- وفي الأيام الأولى من تسلم البلشفيك «الشيوعيين» الحكم في روسيا، وفي الأسبوع الأول بالضبط من حكم «لينين» سنة 1917، أصدرت الحكومة السوفيتية الجديدة قرارين رئيسين:

أحدهما: اعتبار العداء لليهود جريمة يعاقب عليها القانون.

وثانيهما وهو أهمهما: إعلان الحكومة السوفيتية برياسه «لينين» التأمين الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين.

وقد نشرت ذلك مجلة «فرنسا القديمة» في مجلد عام 1920[82] أي في الأيام المعاصرة لحكم لينين نفسه. ولفت النظر إلى هذا القرار كاتب عربي هو الأستاذ «إبراهيم الحلو» في كتابه «الشيوعي والصهيوني توأمان»[83].

وليس شيء أدل على هذا القرار من تغلغل النفوذ اليهودي في الدولة الاشتراكية الأم منذ بدء قيامها، حتى إنها لتصدر في الأسبوع الأول من حكمها مثل هذا القرار الخطير، في نفس الوقت الذي صدر فيه أيضًا «وعد بلفور» المشهور، وإن هذا الوعد الإنجليزي وذاك القرار الروسي ليدلاننا على مدى المكر اليهودي ومبلغ سيطرته على القوى السياسية الكبرى في العالم، وإن كان الناس يعرفون وعد «بلفور» ويذكرونه، ولكنهم يجهلون

(82) «موسكو وإسرائيل» (ص48، 49).

(83) صادر في دمشق وليس عليه تاريخ. انظر: «موسكو وإسرائيل» (ص31، 32).

قرار «لينين» الذي ظهر أثره جليًا فيما بعد في محافل هيئة الأمم، ودور الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية قاطبة، في خلق إسرائيل وإبقائها.

4- وفي معبد الماركسية الرئيسي في موسكو ظل خبراء الشؤون العربية السوفيات مقصورين على المثقفين من الثوريين اليهود، من مختلف الجنسيات.

فأكبر خبير في أول سنوات الحكم البلشفي سنة 1917 - 1927 في الشؤون العربية والإسلامية كان المدعو «ميخائيل بافلو فيتش» واسمه الحقيقي «لازار فالثمان» وهو يهودي عيّنه البلشفيك رئيسًا للجمعية العلمية للدراسات الشرقية، وتولى هذا اليهودي تحرير مجلة «الشرق الجديد» التي أصبحت مصنعًا فكريًا ومرجعًا رئيسيًا لأي تخطيط عقائدي أو سياسي أو تنفيذي، بالسياسة السوفيتية، وللماركسية العالمية في «الكومنترن» بشأن قضايا العرب والإسلام.

وتكفل الاجتهاد اليهودي بإعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي من الزاوية الماركسية، ليفهم أهل الحل والربط في السياسة السوفيتية وفي «الكومنترن» مواطن الضعف والقوة في دنيا العرب والإسلام.

ومن أمثلة هذا الإعداد والاجتهاد لدرس سبل الوصول الماركسي إلى الساحة العربية: هذا البحث المبكر الذي نشره اللسان الرسمي لأعلى مرجع في المعهد السوفيتي كله «المجلة القانونية للحزب الحاكم».

في هذا البحث جاء هذا القول:

عالم العرب تتفاوت جماعاته في مستوى النضوج الاقتصادي

والاجتماعي، من وجهة النظر الاشتراكية العلمية، ولكنهم جميعًا يتحدون في شيء واحد، وهو رسوخ العقيدة الدينية الرجعية في طباعهم، ثم يليها النزعة القومية، وهي نزعة أساسها اللغة والثقافة العربية الإسلامية «فلا بد من التغلب أولًا على الدوافع الثقافية؛ لأنها أسهل منالًا وأقل استحكامًا ... فالوعي في دنيا العرب ضعيف، والتسرب إليه وتوجيهه يساريًا أمر ممكن، وخصوصًا أن شعار «مكافحة الاستعمار» سريع الرواج في الوسط العربي القومي والديني».

«والتعليم يساعد التوسع في التوجيه الثقافي والتعليمي والإعلامي من الزاوية اليسارية ... وخير مكان للدخول إلى ذلك هو من المركز التقليدي للثقافة العربية ... من القاهرة»[84].

5- ولا عجب أن رأينا دعاة الماركسية الثورية الأوائل في العالم العربي من اليهود.

فأول حزب شيوعي في مصر أسس سنة 1921 على يد يهودي يدعى «روزنبرغ» وهو صاحب مخزن لبيع الجواهر في الإسكندرية، ثم تطورت الحركة الماركسية على يد جماعة من اليهود في مصر رمز لها باسم «حدتّو» أي الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، والذي أسس هذه الحركة وموّلها ورعاها يهودي أجنبي إيطالي الأصل «متمصر» اسمه «هنري كوريل»[85] صاحب «بنك كوريل» بالقاهرة[86].

---

(84) «موسكو وإسرائيل» (ص48، 49).

(85) كان هذا اليهودي معتقلًا معنا سنة 1949 في معتقل «هايكستب» بالقرب من القاهرة. فقد جمع هذا المعتقل الإخوان والشيوعيين، وكان «كوريل» يحرك الشبان المصريين

ومن عجب أن يكون هذا المليونير اليهودي الأجنبي هو الداعية الحنون لرعاية الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين المصريين!!.

وكل المنظمات اليسارية في مصر كان يقوم عليها اليهود: حركة «دال شين» يرأسها يوسف درويش وريمون دويك وهما يهوديان. وحركة «اسكرا» يرأسها «إيلي شوارتز» وهو يهودي. وحركة «م ش م» ترأسها أوديت وسلامون زوجها وهما يهوديان. وهذه هي التنظيمات الشيوعية الرئيسة في مصر قبيل الحرب الفلسطينية وخلالها، وهي التي اندمجت وانقسمت بعد ذلك حتى وصلت إلى حوالي ثلاثين منظمة ... لم تخرج عن سيطرة اليهود[87].

وتاريخ اليسار الماركسي الثوري في العراق مدين أيضًا لليهود في التنظيم والحضانة، والتمويل من أمثال المليونير «قطاف» وغيره، كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ الحركة الماركسية في العراق[88] وكان سكرتير الحزب الشيوعي في عام 1947 هو «شلومو دلال»[89].

واللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعي السوري اللبناني، كان سكرتيرها العام هو «جاكوب تيبر» وكان «تيبر» هذا يهوديًا روسيًا قدم من

= والسودانيين الشيوعيين كأنهم دمي في يده!.

(86) وثائق الحركة اليسارية المصرية التي نشرها هنري كوريل نفسه، وطبعها ووزعها الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1956، وكذلك سلسلة المقالات التي نشرها الأستاذ أحمد زين العابدين المحامي، أحد زعماء اليسار في السودان في مجلة «النداء» السودانية أعداد مايو 1966 انظر: «موسكو وإسرائيل» (ص29).

(87) انظر: «دراسة في فكر منحل» للأستاذ جلال كشك (ص149).

(88) «موسكو وإسرائيل» (ص29).

(89) «دراسة في فكر منحل» (ص149).

فلسطين إلى بيروت واسمه الحزبي: الرفيق «شامي»[90].

وحتى بعد انتخاب القيادة الجديدة برئاسة أول شيوعي مسلم الأصل، وهو خالد بكراش أرسلت فرج الله الحلو إلى تل أبيب لتنسيق العمل، واستقدمت اليهودي «نخمان لينفسكي» بوصفه مستشارًا أو خبيرًا في التنظيم الماركسي[91].

حملة الشيوعية على الإسلام منذ قيام دولتها:

وحملة الشيوعية على الإسلام، ومحاولة مسخه وتشويهه ونشر الأكاذيب من حوله - قضية قديمة، ليست بنت اليوم، ولا وليدة الأمس القريب. إنها برزت سافرة مكشوفة القناع منذ سيطر الشيوعيون على الحكم في روسيا.

فقد عقد أعضاء «الكومنترن» - وهو الهيئة الدولية للشيوعية - مؤتمرًا في مدينة «باكو» بالقوقاز (من 7/19 إلى 8/7 سنة 1920) كان رئيسه «كار راديك» اليهودي الماركسي العتيد. وكان اللحن الرئيسي لهذا المؤتمر - كما وصف راديك - هو خلق شعار «حركة التحرير الوطني» للشعوب العربية والإسلامية.

وقد تمخض مؤتمر «باكو» عن بيان أو «مانيفيستو» موجه إلى الشعوب الإسلامية. اشتمل هذا البيان على عبارات ونداءات - بشأن القضية الفلسطينية - لازالت دستورًا للماركسية الدولية والعربية إلى اليوم. مثل:

---

(90) «تاريخ الأحزاب الشيوعية في العالم العربي» (ص16).

(91) «صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان» محمد علي الزرقا، وإلياس مرقص.

« ... انظروا ما فعل الاستعمار البريطاني في فلسطين. لقد ساعدوا اليهود الأبرياء (كذا)».

« ... فإذا استمر هذا العداء ستضعف قوى الطرفين: العربي واليهودي، ليسود الاستعمار البريطاني والرجعية العربية عليهما معًا. وتتمزق صفوف الجماهير العربية واليهودية معًا ...».

والذي يعنينا في هذا الموضوع هو ما احتواه البيان الماركسي في ذلك العهد المبكر، من شتائم وأكاذيب ضد الإسلام ونبيه، تستفز شعور أدنى المسلمين غيرة على دينه.

من هذ الشتائم السافلة هذه الفقرة:

«يا شعوب الشرق.

«كم من مرة دعتكم حكوماتكم الرجعية إلى الحرب المقدسة ... إلى الجهاد ... ومشيتم إلى الحرب تحت راية النبي الخضراء ... ولكن مثل تلك الحروب كانت خدعة لكم، لا يستفيد منها سوى الرجعية والإقطاع ... وتلك الراية كانت زائفة؛ لأن النبي نفسه زائف ومخادع، جاء بدعوة تخدم الرجعية والإقطاع».

هذه الفقرة من البيان الذي أراد به مصدِّروه بلشفة العالم الإسلامي، والذي علقت عليه المجلة العسكرية السوفيتية حينذاك، والتي كان يشرف عليها اليهودي «تروتسكي» وزير الحربية وخليفة «لينين» فوصفته بأنه «قرار جديد للمسلمين»!.

ولا غرو أن غضب المسلمين في الاتحاد السوفيتي نفسه، حين نشرت

أخبار المؤتمر وبياناته، وثاروا على عنف التحدي لعقيدتهم الإسلامية، مما اضطر «لينين» نفسه - وكذلك «ستالين» - أن يرسل توبيخات شديدة لأعوانه «اليهود» الذين أشرفوا على مؤتمر «باكو» لتسرعهم في مواجهة الإسلام بهذه السرعة وهذا العنف[92].

أساليب الشيوعيين في محاربة الإسلام:

وللشيوعيين أساليب متنوعة في حرب الإسلام، ومقاومة الاتجاه الإسلامي. فمن هذه الوسائل:

الدراسات المضللة:

1- ويعني بها الدراسات الخبيثة المضللة التي يقوم بها كتاب الشيوعية ومستشرقوها، فكما أن للمسيحية مبشريها الذين يلبسون مسوح الدين، وهم يستحلون الكذب على الإسلام ونبيه وتاريخه، نرى للشيوعية مبشريها الذين يتزيون بزي أهل العلم والبحث وما هم من العلم والبحث في شيء إنما هم ناشرو أكاذيب، ومروجو أباطيل

ومن أمثلة ذلك النشرة التي كتبها أحد مبشري الماركسية الروس، ونشرها شيوعيو العراق - في عهد عبد الكريم قاسم - وعرفت باسم «الكراسة الرمادية» وهي تحتوي جملة من التهم الملفقة الباطلة التي يضللون بها من ليس لهم أدنى علم بأصول الإسلام وتاريخه.

وقد رددنا عليها في بحث نشر في مجلة الأزهر ومستقلًا تحت عنوان

---

(92) «موسكو وإسرائيل» (ص40 – 45) وقد نقل المؤلف هذه الوقائع والنصوص من مراجع الشيوعيين أنفسهم.

«الإسلام بين شبهات الضالين وأكاذيب المفترين»[93] وقد ترجمه الأزهر إلى الإنجليزية.

ولا بأس أن أضع للقارئ بعض النماذج «العينات» التي كتبها الشيوعيون الروس في موسوعتهم عن «الإسلام» ليعلم القارئ الواعي المنصف إلى أي درك انحط هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم الموضوعية والعلمية في البحث والتفكير.

وأنقل هذه الفقرات من كتاب «أضواء على الشيوعية».

كتبت الموسوعة الروسية تهاجم نبي الإسلام وكتابه في الصفحة 599 من المجلد الثامن تقول: «إن القرآن هو الكتاب المقدس الأساسي للإسلام. وهو عبارة عن مجموعة من المواد الدينية والعقائد تستخدمه الطبقات الاستغلالية وعلماء الدين الإسلامي الرجعيون كسلاح لخديعة الجماهير الكادحة وقهرها!».

وتمضي الموسوعة الشيوعية في انتهاكها حرمة الإسلام فتقول:

«ولد محمد حوالي 570م وتوفي عام 632م، ويعتبر موحدًا للإسلام. ويصوره العرف الإسلامي الديني كأعظم الأنبياء وخاتمهم. وكان أول من وضع سيرة محمد هو ابن إسحاق من المدينة، وكان هذا جامع خرافات شعبية وأساطير. ويوجد في هذه السيرة عدد كبير من الخرافات والأساطير!!

---

(93) اشتركت فيه مع أخي وزميلي أحمد العسال، وكان ذلك بتكليف من الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر في عهد الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

بل إن سيرة محمد في هذه الأيام تستمد بالدرجة الأولى من مواد شبه خرافية من القرآن، وهو مواد يتقبلها دعاة الإسلام البرجوازيون دون أي اعتراض.

وقد أرغم سكان مكة بقوة السلاح على اعتناق الإسلام والاعتراف بسلطته.

ولقد أصبح لمحمد في أذهان الأجيال من المسلمين مكانة التقديس فهو صانع المعجزات وشفيع المؤمنين أمام «الله»، وأما المعاصرون المتعصبون للإسلام فإنهم يبذلون جهدهم للإفادة من شخصية محمد الخرافية في محاولاتهم إضعاف النضال الطبقي».

وتضيف الموسوعة المضللة أيضًا في مجلدها الثاني عشر صفحة 488 ما يلي:

«إن الإسلام كغيره من الديانات الأخرى يقوم دائمًا بدور رجعي بحيث يكون سلاحًا للضغط الروحي بأيدي الطبقات المستغلة، تشهره على الطبقات العاملة الكادحة. وقد استخدم الإسلام لاستعباد الشعوب في الشرق.

والرأي القائل «بشيوعية» الإسلام في أول عهده، وأن «محمدًا» وهو الرجل المفترض فيه بأنه مؤسس الإسلام، وأنه كان ثائرًا ومصلحًا اجتماعيًا كبيرًا. إنما هو رأي قصد به أن يخفي الجوهر الحقيقي للإسلام، فالقرآن الذي يدافع بشدة عن نظام الاستعباد والذي يعتبر الرقيق نظامًا من عند الله. والذي يشجع الاستغلال وعدم المساواة في الملكية والمركز الاجتماعي بين الناس، إنما ينهض دليلًا على بطلان ذلك الرأي المضلل. ولم يكن الإسلام يستخدم

كـأداة لتنظـيم المـذابح بـين الشـعوب الرازحـة تحـت الظلـم فحسـب، بـل كـان يستعمل ضد روسيا أيضًا.

ففـي النصـف الثـاني للقـرن التاسـع عشـر أخـذت فكـرة التوسـع الإسـلامي تنتشـر فـي بـلاد الشـرق وهـي حركـة رجعيـة تهـدف إلـى توحيـد الشـعوب الإسلامية».

بل جاء أيضًا في هذه الموسوعة المليئة بالمهاترات في المجلد الثامن عشر صفحة (516) بالذات ما يلي:

«علـى أثـر الانتصـار الـذي أحرزتـه ثـورة أكتـوبر الاشـتراكية فـي روسـيا، أصـبح الإسـلام أداة داخليـة مناهضـة للثـورة بأيـدي المسـتعمرين. ففـي عـام 1919 أقيمت إمارة في شمال القوقاز عين عليها شيخ أعلن أنـه سيقيم حكمـه علـى أسـاس أحكـام الشـريعة الإسـلامية، وفـي تركسـتان طالـب علمـاء الـدين الإسلامي الـذين كـانوا عمـلاء للاسـتعماريين الأجانـب بـأن تـدار شـؤون البـلاد بمبـادئ الإسـلام. وقـاموا بالتظـاهر ضـد نظـام الحكـم السـوفياتي تحـت سـتار الدفاع عن الإسلام، ونتيجة لانتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات الاستغلالية في الاتحاد السوفياتي، دمرت أصـول الإسـلام الاجتماعيـة كمـا دمـرت أصـول غيره من الأديان. ولم يعد الإسلام في الاتحاد السوفيتي اليوم سوى بقيـة شـكل من أشكال مبادئ المجتمع الاستغلالي»[94].

التخريب من الداخل:

ومـن وسـائل الشـيوعية فـي حـرب الإسـلام: التخريـب مـن الـداخل، وذلـك

(94) انظر: كتاب «أضواء على الشيوعية» (ص42 – 45).

بالتسلل إلى داخل المجتمع الإسلامي، واصطياد السطحيين المخدوعين الذين تضللهم الشعارات البراقة، فيركضون وراء سربها مصدقين، والمحرومين الذين أجج النظام الاجتماعي في صدورهم نار الحقد على كل الأوضاع القائمة، فلم يعودوا يفكرون إلا في الهدم والتدمير والعملاء الذين يتسترون بالثورية والماركسية، ليفذوا منها لضرب الإسلام في عقر داره ويعادي أهله أنفسهم.

ولقد فشلت الشيوعية سنين عددًا، ولم تجد في ديار العرب مسلمًا واحدًا يؤمن بها، وينخرط في حزبها، كما يتبين ذلك في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، والأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط بصفة عامة، فقد كان أعضاؤها الأوائل من اليهود أولًا، ثم انضم إليهم بعض النصارى، وأخيرًا استطاعوا أن يوقعوا في شباكهم أفرادًا من أبناء المسلمين.

وكان هذا نصرًا كبيرًا بلا شك: أن يحول الشباب المسلم ولاءه إلى المادية الجدلية بدل الرسالة الإسلامية، وأن يؤمن بزعامة ماركس ولينين بدل محمد رسول الله، وأن يتغنى بالبيان الشيوعي بدل التعبد بتلاوة القرآن الكريم، وأن يتجه إلى موسكو بدل مكة والمدينة.

أصبح هؤلاء ينتظرون الوحي دائمًا من موسكو، وغدت هي قبلتهم الجديدة فلها ولاؤهم، وإليها اتجاههم وحجهم، ومنها استمدادهم. ولا عجب أن تجد من هؤلاء من يخرج على إجماع أمته كلها، إذا كان مخالفًا لوحي سادته في موسكو.

لقد نامت موسكو وبكين وغيرهما من عواصم الشيوعية ملء الجفون،

حين أفلحت في تخريج تلاميذ مخلصين، بل عبيد مطيعين، يحملون عنها عبء التبشير بالدعوة الماركسية، والعداوة للرسالة المحمدية، والمقاومة المستميتة للفكرة الإسلامية.

حفظ هؤلاء «أكليشهات» الماركسية واللينينية عن الدين ورجاله وتاريخه، فهم «ينقشونها» كما هي بمناسبة أو بغير مناسبة.

كنت أفكّر أن أنقل هنا بعض النماذج لتلاميذ الماركسية، لنعلم أي مدى من التخريب بلغته الشيوعية في بلادنا، ولكني اكتفيت بشهرة ذلك عن تسجيله. ثم إن سقوط الشيوعية في بلادها الأم ثبطني.

ومن أساليب الشيوعية في محاربة الإسلام، تحريض الحكومات الموالية على الإسلام والحل الإسلامي، ومقاومة الاتجاه الإسلامي الصحيح، والإيعاز إلى الحكومات العلمانية الموالية لها، والتي تمدها - أو تكبلها - بالقروض والمساعدات، والسلاح والخبراء، والإيحاء إليها بضرب الحركات الإسلامية الواعية بعنف وقسوة، وتشريد رجالها في غير رحمة ولا هوادة، وشن حملات التضليل الجبارة لتلويث سمعتها، وتحريف أهدافها، وتشويه أساليبها، وتنفير العامة والخاصة من فكرتها ودعوتها.

ولا يزال الناس يذكرون سنة 1965 زعيمًا كبيرًا، أعلن بجوار قبر لينين العظيم! اكتشاف مؤامرة دبرها الرجعيون الإسلاميون، مؤكدًا أمام سادة الكرملين: إنه سيضرب بشدة، ولم يرحم أبدًا!!.

* * *

لماذا نرفض الشيوعية؟

إذا كانت الشيوعية أو الماركسية ترفض الإسلام، وتتخذه عدوًا لها، كما بينا في الصفحات السابقة، فإننا - نحن المسلمين - نرفضها كذلك، بل نقاومها ونحاربها، لعوامل وأسباب شتى، يطول الحديث عنها، ولكن ينبغي لنا هنا أن نوجز القول فيها، لنقيم الحجة على المخدوعين، ونخرج ألسنة الخادعين، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

1- الشيوعية مذهب مادي ضد العقيدة:

أول الأسباب في رفض الشيوعية أو النظرية الماركسية: أنها مذهب مادي، ينكر كل ما وراء الحس، وما بعد الطبيعة، فلا يؤمن أنَّ للكون إلهًا، ولا أن للإنسان روحًا ولا أن بعد الدنيا آخرة، ولا أن لله تعالى رسلًا وأنبياء أرسلهم لهداية الناس، وكل ما يقال في هذا المجال، إنما هو أباطيل اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء، والأقوياء لابتزاز الضعفاء، والحكام والمحكومين، فالماركسية أو الشيوعية تتبنى هنا ما قاله بعض الفلاسفة الماديين: أن الله لم يخلق الإنسان، بل الإنسان هو الذي خلق الله!.

يعنون أن فكرة الألوهية لا حقيقية لها، وإنما هي فكرة ابتكرها خيال الإنسان، واستغلها أولو الغنى والقوة والسلطة.

والدستور الروسي الشيوعي يقول: لا إله، والحياة مادة.

والتعليم الروسي، والثقافة الروسية، والإعلام الروسي، كلها تقوم على غرس الفكرة المادية وتثبيتها، ونفي ما عداها. فكلها تتبنى الإلحاد.

إن الشيوعية ليست ضد العقيدة الإسلامية وحدها، بل هي ضد المسيحية، وضد كل الأديان والرسالات الإلهية. لأن أساس الأديان «الوحي» وهو شيء غير مادي.

ومن عور الماركسية أو عماها أنها جعلت العامل المادي هو العامل المؤثر الفعال - عمومًا ودائمًا وعلى كل حال - في سلوك الفرد، وسلوك الجماعة، وسير التاريخ، ولو اكتفوا بقولهم: إن له تأثيرًا مهمًا ما خالفناهم، فهذا ما يصدقه الواقع، وما يؤيده ديننا الذي أثبت أن من الناس من قتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق.

ولكنهم - لعماهم وغلوهم - أغفلوا كل العوامل الأخرى فكرية وروحية وعاطفية وكونية قدرية!.

والعلم والواقع يؤكدان أن بين الفكر والمادة تفاعلًا، كلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، بل المؤكد أن الفكر الإنساني أعمق تأثيرًا من المادة في توجيه الأفراد وتغيير المجتمعات. يقول الفيلسوف المعاصر برتراند رسل: إن التغييرات التي تلحق بأدوات الإنتاج ترتد في أساسها إلى أسباب ذات طبيعة عقلية، وهي تتمثل في كشف العلم ومخترعاته. واستقراء التاريخ لا يؤيد رأي الماركسية في أن كشوف العلم ومخترعاته تنشأ عن الأوضاع المادية[95]

يقول إنجلز في كتابه «ضد دوهرنج»:

«ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى

(95) «الفلسفة الخلقية» دكتور توفيق الطويل (ص289، 290).

الخارجية على حياتهم اليومية، وهم انعكاس تتخذ فيه قوى فوق الطبيعة»[96].

ولكن لو كان الدين مجرد انعكاس للظروف الاقتصادية ولأسلوب الإنتاج خاصة، فلماذا عاش دين كالمسيحية ألفي عام رغم تطور أساليب الإنتاج، بل لماذا عاشت اليهودية أكثر من ذلك؟ ولماذا تتعدد الأديان في البيئة الواحدة رغم وحدة الوضع الاقتصادي وأسلوب الإنتاج؟ لماذا كان في الهند مسلمون وهندوس؟ وكان في الشرق العربي مسلمون ونصارى؟

ما الظروف الاقتصادية التي جعلت المسيح يخالف اليهود ويأتي بدين جديد؟ وجعلت محمدًا يرفض الوثنية ويدعو إلى التوحيد؟ وما أسلوب الإنتاج الذي تغير، فأوحى إليه هذا القرآن العظيم؟ إن الرحى والطاحون والمغزل اليدوي كانت قبل الإسلام بقرون وقرون، وظلت بعده بقرون وقرون، فما الذي حدا بهذا النبي وبأصحابه أن يخاصموا قومهم، وتعرضوا للبلاء والاضطهاد والعذاب، ويعرضوا مصالحهم الاقتصادية للخطر والضرر، حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم، بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. **{لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ}** [الحشر: 8]

إن الإنسان - بناء على فلسفة ماركس - ليس مسؤولًا عن تصرفاته وسلوكه، لأنه مجبر عليها لا محالة، يقهره عليها الوضع الاقتصادي وأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه، ومقتضى هذا التفسير أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور والشرور لها ما يسوغها ويبررها. فقد كانت في وقتها أمورًا لا مفر منها، تفرضها أساليب الإنتاج، ومظالم عصر الرق الروماني، ومظالم عصر

(96) «تفسير التاريخ» للأستاذ الباكستاني عبد الحميد الصديقي (ص110).

الإقطاع، ومظالم الرأسمالية الغربية كلها، لم تكن في الحقيقة مظالم، إنها أثر حتمي للوضع الاقتصادي، أو لأسلوب الإنتاج الذي ساد في المجتمع.

وكأن ماركس بهذه الفلسفة البائسة يعتذر عن ظلم الظالمين، أو يحامي عما اقترفت أيديهم من موبقات في حق المستضعفين والمسحوقين.

ثم إن الشرف والصدق والعدل والشهامة وغيرها مما نعتبره فضائل لا مكان لها في قاموس الماركسية. فليس عندها «قيمة» ثابتة، ولا فضائل دائمة. فكل هدف الماركسيين أن يدحروا خصومهم، ويبنوا مجدهم ولو فوق أشلائهم.

«إن حركة العمال «البروليتاريا» متحررة من أساطير الدين، ومن الديمقراطية والأخلاقية السامية، التي ليست كلها إلا سلسلة صنعتها الطبقة المتوسطة «البرجوازية» للسيطرة على الطبقات الفقيرة واستعبادها، وما من شيء أخلاقي سوى ما يمهد للقضاء على الرأسمالية قضاء تامًا نهائيًا. والقانون الأعلى هو انتصار الثورة ونجاحها».

يقول ألكسندر جري: إن ماركس واضع أساطير، الحقيقة فيها أمر ثانوي، ما دامت الأسطورة تصور ما يرغب هو في أن يعتقده، وما دام في هذه الحقيقة قوة تلهم العمل، هذه الفلسفات لا داعي لأن تكون صحيحة في نفسها، ولكنها يجب أن تتفق مع عواطف الجماهير المكافحة»[97].

الشيوعية ضد الشريعة:

وكما رفضنا الشيوعية لأنها ضد عقيدة الأمة، فنحن نرفضها أيضًا، لأنها

(97) «تفسير التاريخ» (ص125).

ضد شريعة الأمة التي ارتضتها، وارتضاها الله لها، وأتم بها عليها النعمة، حينما قال تعالى: **{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا}** [المائدة: 3].

جاء ذلك في القرآن بعد أن ذكر جملة أحكام، تتعلق بالوفاء بالعقود، وبالحج وشعائره، وبالمحرمات من الأطعمة، وكلها من أحكام الشريعة التي تعبَّد الله بها عبادة.

الشيوعية لا تعترف بهذه الشريعة، ولا تعترف بالله تعالى آمرًا أو ناهيًا، محلًا أو محرمًا، فلا تقبل أحكامه في العبادات، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، ولا أحكامه في شؤون الأسرة من الزواج وما يتعلق به، والطلاق وتوابعه، وحقوق الزوجية، وحق الميراث، وغير ذلك، فهي ترفض تعدد الزوجات، وكذلك الطلاق، والميراث بضوابطه الشرعية.

وهي ترفض أحكام الشريعة في الملكية وحقوقها، وواجباتها، وفي طرائق تملك المال، وتنميته، وفي سائر أجزاء النظام الاقتصادي في الإسلام.

وهي ترفض أحكام العقوبات الإسلامية مثل حد الزنا، وحد السرقة، وحد الحرابة، وحد القذف، وحد الشرب، وحد الردة، وغيرها من العقوبات النصية والتقديرية «التعزيرية».

ورفض الشيوعية لشريعتنا، لا يحتاج إلى مزيد بيان، لأن هذا أمر معروف، ولا نزاع فيه.

الشيوعية ضد الأخلاق:

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها ضد ثبات الأخلاق، والقيم

الأخلاقية، فلا شيء عندها ثابت.

إن الماركسية تنكر أن في الحياة قيمًا أخلاقية ثابتة، وفضائل عامة مطلقة، إنما توجد قيم نسبية متغيرة تتطور بتطور الأحوال المادية، وبخاصة الأوضاع الاقتصادية، وبعبارة أدق: بأساليب الإنتاج، فالنظام الرأسمالي الذي يقر الملكية الفردية يقتضي تحريم السرقة حتى تصان الملكية. فإذا انتفت الملكية الفردية بدا تحريم السرقة غير ذي موضوع! وهكذا الحرية الفردية، والعفة الجنسية، وغيرها من الفضائل، إنما كانت فضائل في مرحلة معينة، وليس من الضروري أن تبقى فضائل أبدًا!

لقد نظرت الماركسية العوراء إلى القيم الجزئية المتطورة التي تنشأ من تغير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وعميت عن أن وراء هذه - القيم النسبية المنوطة بظروفها وأسبابها - قيمًا إنسانية عليا أصيلة يلتقي عندها البشر في كل زمان ومكان.

يقول «إنجلز» رفيق ماركس وشريكه في فلسفته وبيانه الشيوعي:

«إننا نرفض كل زعم ينادي بتعاليم أخلاقية قبْلية مقررة باسم الدين، أو أي ناموس أخلاقي خالد ثابت، يراد به أن تكون للعالم الأخلاقي مبادئ ثابتة تسمو على التاريخ وعلى الفوارق القومية. ونحن نؤكد - على العكس - أن كل نظرية أخلاقية غابرة لا تنتج - في التحليل الأخر - إلا عن الوضع الاقتصادي في المجتمع المعاصر لها»[98].

---

(98) «المذاهب الأخلاقية» للدكتور عادل العوا (109/2) نقلًا من كتاب إنجلز: ضد دوهرنج (ص182).

ويعلن لينين في خطاب شهير له سنة 1920: «نحن نقول: إن أخلاقنا كلها تهدف إلى مصلحة النضال الطبقي البروليتاري وتشتق من هذه المصلحة ... وعندنا أن الأخلاق كل الأخلاق تنبع من مصالح الصراع الطبقي»[99]. فالنضال الطبقي لا يتبع الأخلاق ولا يلتزم بها، بل الأخلاق هي التي تتبعه وتبرر كل ما يفعله أو يريد فعله.

أقام ماركس نظريته المادية على أن الإنسان حيوان منتج، فالخصيصة الأولى للإنسان - عنده - هي الإنتاج، لا التفكير كما قال قوم، ولا الأخلاق كما قال آخرون، ولا التدين كما قال غيرهم.

وبهذا أصبح الإنتاج - في نظره - أعظم مقومات الحياة في المجتمعات الإنسانية.

وهذا في الحقيقة - كما لاحظ بعض النقاد - يخالف واقع الإنسان، فإن الإنتاج نفسه تسبقه صفات إنسانية تجعله ممكنًا. منها: أن يكون الإنسان مطالب غير مطالب الحيوان، وأن تكون له قدرة تمكنه من تدبير مطالبه بالإنتاج، وإنتاج ما يريد وفقًا لمطالبه وكفاياته، وهذه مقدمات تنشأ عنها الإنتاج، ولا يكون هو سببًا في وجودها[100].

الشيوعية ضد الحرية:

ونرفض الشيوعية، لأنها ضد الحرية، ونحن نحب الحرية، ونمقت الاستبداد والدكتاتورية، ونحب أن نكون عبيدًا لله وحده لا للطواغيت. وقد قال

---

(99) «المذاهب الأخلاقية» للدكتور عادل العوا (109/2) نقلًا من كتاب إنجلز: ضد دوهرنج (ص182).

(100) «الفلسفة الخلقية» للدكتور توفيق الطويل (ص289).

الإمام علي ابن أبي طالب: لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًا.

الشيوعية في كل بلاد الدنيا عدو لحرية البشر، وفلسفتها قائمة على وأد الحريات السياسية. واتخاذ الدكتاتورية سبيلًا لها. فما تكاد تقبض العصبة الاشتراكية على زمام الحكم، حتى تنصب المشانق والمقاصل لقصف رقاب المعارضين، وحتى تسل سيف الإرهاب على المواطنين، وتفتح السجون والمعتقلات، والمنافي، وتصادر الأموال والملكيات، وتعمل على تصفية خصومها بكل أسلوب، رضيته الأخلاق أو لم ترضه، فكل أسلوب عندها مشروع، والغاية تبرر الوسيلة، والأخلاق والأديان التي تحرم القسوة والاضطهاد والتعذيب ونحوها إنما هي صناعة برجوازية.

والثوريون أنفسهم يجاهرون بهذا ولا يخفونه، بل يباهون به كأنه مأثرة أو مفخرة.

يقول لينين في رسالة له إلى مكسيم جوركي: لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم، ليكون الربع الباقي شيعيًا!

لقد ادعى ماركس أن النظام الشيوعي يؤدي إلى دكتاتورية العمال وإلى الديمقراطية، ولكننا لو بحثنا الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم في الدول الشيوعية لوجدنا أنه أبعد ما يكون عن الحكم الديمقراطي، إذ ليس له من صفات هذا النظام إلا الاسم، فهو حكم دكتاتوري بحت. وكان الأمر يهون لو كان النظام نظام دكتاتورية عمالية حقًا، ولكنه في الواقع دكتاتورية فرد أو عدة أفراد، أما بقية أفراد الطبقة العمالية، فإنهم يقاسون من هذه الدكتاتورية.

حقًا إن النظام السوفيتي في تكوين سلطاته له مظهر الديمقراطية، ولكنه

من الناحية الواقعية الفعلية حكم دكتاتوري، فهناك مجالس للقرى، ومجالس للمقاطعات، ومجالس للجمهوريات، ثم مجلس للسوفيت، وكلها تتم بالانتخاب، وهذ الهيئة الأخيرة، كان لينين يسميها البرلمان العالي. وهذه الهيئات مرتبة ترتيبًا تصاعديًا، ابتداء من مجالس القرى حتى الهيئة المركزية، التي تعين رئيس الاتحاد، وتشرف على النواحي التشريعية والتنفيذية، وكل هذه الهيئات محصورة عضويتها في الحزب الشيوعي الذي يشرف في الواقع على الحياة السياسية الروسية عن طريق البليتبورو **Politburo** والأورجبورو **Orgburo** والأمانة أو السكرتارية. ولكن حق الانتخاب محصور في الحزب الشيوعي وأعضائه، وهذا الحزب لا يضم جميع الروس، ففي سنة 1947 كان أعضاؤه ستة ملايين، بينما كان تعداد الشعب الروسي 190 مليونًا ثم إن هذا الحزب الوحيد ليس مفتوحًا للجميع، إذ لا تقبل عضوية أي فرد إلا بعد توفر عدة شروط، من أهمها أن يزكيه ثلاثة من أعضائه. ولا يمكن لشخص أن يرشح نفسه للانتخاب إلا إذا وافق الحزب الشيوعي على ترشيحه. ثم إن وظائف رئيس الدولة ورئيس الوزارة والوزراء، وغيرهم من كبار رجال الحكم محصورة في كبار رجال الحزب الشيوعي، بحيث تكونت في روسيا طبقة من الوزراء والمستوزرين بيدهم مقاليد الأمور، كما في كثير من الدول الرأسمالية، وهذه الطبقة التي نستطيع أن نسميها طبقة الحكام - طبقة جديدة - لها امتيازاتها ومستواها المعيشي، ومركزها الأدبي، وفوق كل الطبقات: «اللجنة المركزية» للحزب.

وعلى رأس الجميع «الزعيم» الذي يضفى عليه لون من «التأليه» الذي رفضته الشيوعية حين جاء من قبل الدين ثم تقبلته حين جاء بل فرضته من

قبل «الأيديولوجية»[101].

الشيوعية مذهب متناقض:

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها - من الناحية الفكرية النظرية - مذهب متناقض، يهدم بعضه بعضًا. يتمثل هذا التناقض في عدة أشياء نذكر منها:

أن الماركسية لا ترى في الوجود قيمة مطلقة ولا شيئًا أبديًا، كل المبادئ والقيم والأفكار هي نسبية متغيرة، لأنها - كما ذكرنا من قبل - انعكاس للظروف الاقتصادية أو لأسلوب الإنتاج، فإذا تغير تغيرت تلك القيم والأفكار. وكان يجب أن ينطبق هذا على الماركسية نفسها، وفكرتها عن التاريخ، فإنها ليست إلا انعكاسًا للعصر الذي عاش فيه ماركس وأحواله الاقتصادية. وعلى هذا لا تعود الماركسية صحيحة مطلقة في كل زمان ومكان. ربما كانت صالحة لزمان ماركس وبيئته، ولا تصلح للأزمنة التي تليه، والبيئات التي لم تعشها، فالمفوض مع تغير الزمن أن تتغير النظرة والتفسير. ولكن الماركسيين لا يقبلون هذا أبدًا. فوقعوا بهذا في تناقض لا مخلص لهم منه بحال. ولم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يحل هذا الإشكال.

ويبدو تناقض الماركسية الفكري في صورة أخرى: ذلك أن ماركس يرى الصراع بين الطبقات أمرًا حتميًا، حتى إذا نجحت الشيوعية انتهى هذا القانون الحتمي.

ومن تناقض الماركسية أنها ترفض الغيبيات التي يجئ بها الدين، لأنها لا

---

(101) انظر: كتاب «الشيوعية اليوم وغدًا» (ص146 وما بعدها).

تؤمن إلا بما هو محس وواقع، ثم تفحصها فإذا هي مشحونة بالتنبؤات التي لا يسندها حس ولا يؤيدها واقع.

ومن تناقض الماركسية أنها ترفض الجنة التي وعدت بها الأديان، لأنها لا تؤمن إلا بالحاضر المادي الملموس، ثم إنها تعد معتنقيها بجنة من نوع آخر، جنة في هذه الدنيا، جنة المجتمع الشيوعي الذي تزول فيه الطبقات، ويأخذ فيه كل بقدر حاجته لا بقدر عمله، وتزول الدول بشرطتها وعقابها وسجونها.

وقد مر أكثر من نصف القرن على قيام الثورة الماركسية في روسيا، ولم نر هذه الجنة ولا ظلالها، وقد سقطت الشيوعية ولم تقترب من هذه الجنة الموعودة.

إن المادية الجدلية التي دعا إليها ماركس تؤمن بمبدأ الصيرورة أي بالتغير الدائم، والتبدل المستمر، نتيجة لتغير الظروف الاقتصادية، وبمقتضى مبدأ «النقيض» الذي أخذه ماركس من فلسفة هيجل الفيلسوف الألماني الشهير بفلسفته المثالية.

ولكنها تخرج على هذا المبدأ الجدلي حين تبشر بمجتمع أخير لا يقبل النقيض، هو المجتمع الشيوعي المثالي الكامل!

والحقيقة كما قال أحد النبهاء: إن الماركسية لا تمحو الطبقات بحذفها، ولكنها تستعيض عنها بطبقة أخرى. لها نبيها، ولها قديسوها، ولها جنها، ولها شيطانها، ولها طقوسها.

ومن تناقض الماركسية أنه رفضت الدين الذي ورثته الإنسانية عن طريق النبوات الهادية، والكتب السماوية. ثم اصطنعت هي عقيدة لها كل ما للدين

من خصائص.

الشيوعية ضد وحدة الأمة:

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها ضد وحدة الأمة، فنحن نؤمن بأن المسلمين - حيثما كانوا - أمة واحدة، تجمعهم وحدة العقيدة، ووحدة العبادة، ووحدة الآداب، ووحدة القبلة، ووحدة المشاعر، ووحدة التشريع، عبر القرآن عن رابطتهم بعنوان الأخوة، فقال **{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: 10]. واعتبرهم أمة واحدة **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** [البقرة: 143] **{وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ}** [المؤمنون: 52] وصور الرسول الكريم ترابطهم وتعاطفهم بأنهم «**كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**» متفق عليه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وتؤكد الشريعة وحدة الأمة بعدة أحكام أساسية تقررها: وحدة المرجعية الفكرية والتشريعية للأمة، ووحدة دار الإسلام مهما تباعدت أقطارها. ووحدة القيادة المركزية المتمثلة في الخلافة.

والشيوعية ترفض الدين - كما ترفض القومية - رابطة الناس.

بل هي تعمل على تقسيم المجتمع الواحد، فهي تؤجج صراع الطبقات لتستفيد منه في النهاية، وتنادي العمال أن يتحدوا أي ضد الطبقات الأخرى. والإسلام يؤاخي بين الطبقات جميعها، ويوجب إقامة العدل بينها، ولا ينحاز لطبقة ضد أخرى.

الشيوعية استعمار جديد:

ونرفض الشيوعية، لأنها ضد سيادتنا، إنها استعمار جديد، ونحن نرفض الاستعمار، أيًا كان نوعه أو شكله أو اسمه، سواء كان استعمارًا إنجليزيًا أم أمريكيًا أم روسيًا أو صينيًا، سواء كان لونه أزرق أم أحمر أم أصفر.

وقد أثبتت لنا الوقائع المشاهدة أن الشيوعية هي أعلى درجات الاستعمار. فإن الاستعمار التقليدي يكتفي باحتلال الأرض، وانتهاب الخيرات، واصطفاء فئة من السكان يُسلِّمهم الزمام، ويحركهم من وراء ستار. أما الاستعمار الشيوعي فلا يكتفي باحتلال الأرض حتى يحتل العقول والأفكار، ولا يكتفي بفئة توليه بل يعمل على إخراج الشعب كله قهرًا من عقائده ومُثله. وإخضاعه لأفكاره ونظامه، وإبادة كل فريق يتمرد أو يتردد في طاعته والخضوع لسلطانه.

ثم إن الاستعمار التقليدي يمكن مقاومته حتى يحزم أمتعته ويرحل. أما الاستعمار الشيوعي، فهو إذا دخل أرضًا لا يفارقها ولا يبقي فيها قوة ما تقدر على المقاومة. وإن راودت فكرة المقاومة يومًا شعبًا ما في بلد ما، فيا ويله ثم يا ويله. وعند المجر وتشكوسلوفاكيا الخبر اليقين، فقد دكتهما الدبابات الروسية، والقوات الروسية، حتى استسلم البلدان.

الشيوعية بنت اليهودية:

ونرفض الشيوعية، لأنها بنت اليهودية، واليهود الآن هم عدونا الأول، هم الذين اغتصبوا الأرض، وسفكوا الدم، وشردوا الأهل، وهتكوا كل حرمة، ولم يرقبوا في مؤمن إلًّا ولا ذمة.

وقد وضحنا هذه القضية «صلة الشيوعية باليهودية» في الصفحات الماضية بما يكفي من الوقائع والأدلة.

الشيوعية أداة الصليبية في حربنا:

ونرفض الشيوعية، لأنها أمست الآن الأداة الأولى للصليبية الغربية في حربنا.

إنها يئست أن تدخلنا في دينها، فاكتفت بأن تخرجنا من ديننا، لم تستطع أن تجعلنا نصارى، فتحاول أن تجعلنا شيوعيين ... لتفسح المجال للمبشرين الماركسيين بعد فشل المبشرين المسيحيين.

إن المهم هو هدمنا، ولا بأس أن يكون بمعاول حمراء.

المهم أن نتخلى عن مصدر قوتنا ووحدتنا «الإسلام» وإن أصبحنا بغير دين قط.

المهم أن نتخلى عن القرآن، وإن استبدلنا به «رأس المال» لا الإنجيل.

المهم أن نقطع حبالنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وإن صحبنا بعده ماركس ولينين، لا المسيح ولا بولس.

لا تعجبوا فإن حقد الصليبية الأسود المسموم، يجعلها تستعين علينا بألد أعدائها!.

لا تعجبوا فقد قال مبشر نصراني في أفريقيا لطبيب مسلم كان هناك، نحن لم نستطع أن نحولكم إلى مسيحيين فلنجتهد أن نحولكم إلى شيوعيين، إن دعاة الشيوعية هم مبشروننا الجدد عندكم.

ولا تعجبوا من اتفاق الطرفين علينا، فالكفر كله ملة واحدة كما قال فقهاؤنا، وصدق الله **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ}** [الأنفال: 73] **{وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ}** [الجاثية: 19]

الشيوعية معناها التبعية لغيرنا:

ونرفض الماركسية أو الشيوعية، لأننا نرفض التبعية العقائدية والفكرية لغيرنا، نرفض التسول ومد الأيدي إلى غيرنا، وقد جعلنا الله أغنياء بما عندنا من عقيدة ومنهج للحياة، وفلسفة كاملة للإنسان والكون والتاريخ. فإن من قيمنا الأصيلة أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

إن تسول الأغنياء جريمة يحرمها الدين، وتمكرها الأخلاق، وترفضها الأعراف، وتعاقب عليها القوانين، وهذا ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد.

نحن نرفض التسول، ونرفض أيضًا الاستيراد: استيراد العقائد والمذاهب من عند غيرنا، وعندنا عقيدتنا الشاملة الكاملة المتوازنة.

إن استيراد بضاعة أجنبية، مع وجود بضاعة وطنية خير منها وأيسر، لا يجوز في عرف الاقتصاديين ولا عرف العقلاء من الناس كافة. إن الاستيراد من صديق في هذه الحالة لا يجوز، فكيف من عدو؟

وإذا كان استيراد البضائع الأجنبية ضد المصلحة الاقتصادية، فإن استيراد العقائد ضد الدين والإيمان. إنه الكفر البواح الذي لا يقبله الله بحال.

ولا يغرنك ما يقال من التفرقة بين العقيدة الاجتماعية والعقيدة الدينية، فهذا محض وهم، أو لعب بالألفاظ. فالعقائد كلها دينية في طبيعتها وجوهرها، وإن

كانت إلحادية في مضمونها. ولهذا أطلق بعض الدارسين على هذه «الإيديولوجيات» العلمانية تسمية «أديان بغير وحي» وسماها آخرون: الأديان البديلة.

نعم، نرفض الشيوعية لأننا نرفض التبعية الفكرية والأيديولوجية، نرفض أن نكون ذيولًا وقد خلقنا الله رؤوسًا، وأن نكون تلاميذ لفروخ اليهودية العالمية. وقد شاء الله لنا أن نكون معلمين للبشرية وشهداء على الناس: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}** [البقرة: 143].

الشيوعية دعوة رجعية:

ونرفض الماركسية أو الشيوعية لأنها دعوة «رجعية» دعوة إلى «الانتكاس» بالبشرية، وليس إلى «تقدم» الإنسانية، هي رجوع الإنسانية إلى العبودية، ورجوع بالفكر والإيمان إلى الجبرية، ورجوع بالإنسانية إلى الوثنية، ورجوع بالأخلاق والقيم إلى الحيوانية، كما أنها انحطاط بالإنسان من أفق «الرشد» الذي يؤمن بالغيب إلى حضيض «الطفولة» الإنسانية. فالطفل هو الذي لا يؤمن إلا بالحس، فإذا رشد ونضح بدأ يدرك المعنويات، ولا يزال يرتقي حتى يؤمن بالغيبيات.

الشيوعية مذهب لا حاجة بنا إليه:

ونرفض الشيوعية أو الماركسية، لأنها مذهب لا يعالج مشاكلنا، ولا يلبي مطالبنا، وليس بنا حاجة إليه.

لقد قامت الشيوعية، لتعالج مشكلات الرأسمالية المتجبرة، المصاصة

للدماء، التي تأكل عرق العمال ولا تعطيهم من الأجر ما يكفيهم.

ونقول: إن هذه الرأسمالية التي أدركها كارل ماركس، وشن عليها غارته، لم تعد موجودة الآن في أي جزء من العالم بتلك الصورة البشعة التي شهدها القرن التاسع عشر.

لقد شهد ماركس الرأسمالية وهي في أوْج قسوتها وعنفوانها وشراهتها. وقد عدلت الرأسمالية المطلقة من اتجاهها وسلوكها، وقامت «نقابات العمال» في البلاد الرأسمالية بحماية حقوق العمال وفرض مطالبهم العادلة على المؤسسات بل على الحكومات في كثير من الأحيان، وأصبح في كثير من البلاد الرأسمالية من أنواع الضمانات الاجتماعية والمعيشية، ما يجعل العامل آمنًا على نفسه وأهله وولده ومستقبله، ومن المؤكد أن العمال في البلاد الشيوعية - بلاد دكتاتورية العمال - لا يحصلون على فتات العمال في بلاد الرأسمالية.

أما في بلادنا، فلم تبلغ درجة الرأسمالية الكبرى في وقت من الأوقات، حتى نحتاج إلى اشتراكية ماركس للتحرر من نيرها، والتخلص من وطأتها وضراوتها.

على أن ماركس قد يكون معذورًا، لأنه لم يقدر له أن يطلع على نظام آخر يخلو من عيوب الرأسمالية، ويشتمل على أحسن ما فيها من عناصر ومزايا.

ومن يدري، لعله لو اطلع على نظام الإسلام الذي يقر الملكية الخاصة. ويحميها، ولكنه لا يتدخل لحمايتها إلا إذا جاءت من طرق مشروعة، ثم هو يضع قيودًا على المالك في تنميته لما يملط وتثميره له، وفي تصرفه

واستهلاكه وإنفاقه، كما يلزمه بواجبات اجتماعية مالية، بعضها موكول لضميره، وبعضها تقوم الدولة على تنفيذه، وأبرز هذه الواجبات هو الزكاة التي بها يزكي المالك نفسه، ويطهر ماله.

وهذه الزكاة هي الحد الأدنى في المال، وحق الله الذي لا يسقط بلا لا ينقص بحال، ولكن في المال حقوقًا سوى الزكاة تحددها الضرورات والحاجات التي تصيب المجتمع. إن الزكاة هي أول الحقوق في المال وليست آخرها.

لقد جاء الإسلام ليحد من طغيان الأغنياء، وليرفع من مستوى الفقراء، وليقيم التوازن الاقتصادي، ويحقق العدل الاجتماعي، ويربط بين الاقتصاد والإيمان، وبين الاقتصاد والأخلاق، ويجعل الأمة كلها كالأسرة الواحدة، بل كالجسد الواحد ... لو اطلع ماركس على محاسن هذا النظام، وقواعد هذا المنهج، لربما وجد فيه ضالته، وأغناه عن منهجه الذي شط عن الصواب، وحاد عن الصراط المستقيم.

* * *

(4)
الحكام المنافقون

الحكام المرتدون مفروغ منهم.

الحكام المنافقون هم المشكلة.

موقفهم من محكمات القرآن.

* * *

الحكام المنافقون

ليس للحل الإسلامي مشكلة مع الشعوب الإسلامية، فالشعوب - في مجموعها - مع هذا الحل قلبًا وقالبًا، وهي تتنادى في سائر الأقطار بوجوب تحكيم الشريعة الإسلامية.

وطالما نادينا - بل تحدينا - العلمانيين أن يستفتوا هذه الشعوب، استفتاء حرًا نزيهًا، حول القضية المصيرية: أيحكمون بالشريعة الإسلامية أم بالقوانين الوضعية؟ أيسيرون وراء شرع محمد أم قانون نابليون أم منهاج ماركس؟

وأنا موقن بأن الأغلبية العظمى لن تبيع محمد صلى الله عليه وسلم بأحد من الخلق، لا نابليون وما ماركس ولا غيرهما.

مشكلة الحل الإسلامي ليست مع الشعوب، ولكن مع الحكام، الذين فرضوا - أو أكثرهم - على الأمة، في هذا الزمن الأخير.

الحكام المرتدون مفروغ منهم:

ولن أتحدث هنا عن الحكام الذين انسلخوا من أمتهم كما تنسلخ الشاة من جلدها، ومرقوا من دينهم كما يمرق السهم من الرمية، وأصبحوا في واد وجمهور أمتهم في واد، فهزأوا بالعقيدة، وسخروا من الشريعة، واستخفوا بالقيم، ولم يرضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن منهجًا، فكفروا كفرًا بواحًا، وارتدوا ردة صراحًا، ولم يعرفوا صلاة ولا صيامًا، ولا عبادة لله جلّ شأنه.

عرفنا ذلك في الشيوعيين الأقحاح، وفي العلمانيين الصرحاء، الذين اعتبروا الدين معوقًا للأمة، أو مخدرًا للشعوب. وقامت فلسفتهم جهارًا على تجفيف منابع التدين في حياة المجتمع، بحذف كل ما يغرس التدين الحق وينميه في الفكر والشعور والسلوك، من التعليم ومن الإعلام، ومن الثقافة. وظهر ذلك في حياة وتصريحات بعض الحكام في تركيا وإندونيسيا وتونس وغيرها، في بعض الأوقات.

وأمثال هؤلاء لن نتحدث عنهم هنا، لأن وعاءهم مكشوف، وموقفهم معروف، وشعوبهم تكرههم وتلفظهم، وتتمنى يوم الخلاص منهم. وقد انتهى بعضهم فعلًا من حياة شعبه، وبعضهم لا يزال جاثمًا على أنفاسه.

هؤلاء قد حصحص فيهم الحق، وتبين الصبح لذي عينين، وفرغت الأمة منهم.

الحكام المنافقون هم المشكلة:

إنما الذي يستحق الحديث هنا هم الصنف الآخر من الحكام، الذين يظهرون بوجهين، ويتكلمون بلسانين، ويرقصون على الحبلين، ويؤيدون الفريقين المتنازعين، فهم كما قال الشاعر:

يومًا يمان إذا ما كنت ذا يمن وإن لقيت معدّيًا فعدناني!

هؤلاء يدعون الإسلام، ويعلنون أنهم مسلمون، وقد تراهم في المسجد مصلين، أو في رمضان صائمين، أو في مكة حجاجًا أو معتمرين.

ولكن مشكلتهم الجوهرية مع الشريعة وأحكامها، فهم يقبلون الإسلام عقيدة، ولا يرضونه شريعة، يؤمنون به دعوة، ولا يؤمنون به دولة، يريدونه

علاقة بين المرء وربه، لا علاقة بين الإنسان والإنسان، فردًا أو جماعة. أعني: أنهم يريدون حبسه في ضمير صاحبه، فإن كان لا بد له أن يخرج من حنايا صدره، فإلى المسجد لا إلى الحياة.

فلا علاقة للدين عندهم بالسياسة ولا بالاقتصاد ولا بالثقافة ولا بالاجتماع، فماذا بقي للدين إذن؟

ربما جاز ذلك في دين كالنصرانية التي يقول إنجيلها: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله! فأجاز أن تنقسم الحياة قسمين، بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة، أو بين السلطة الدينية «الكنيسة» والسلطة المدنية «الحكومة».

أما الإسلام فيقول: الحياة كلها لله، قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ}** [الأنعام: 162، 163].

ويقرر القرآن الكريم في آيات كثيرة: أن لله من في السماوات ومن في الأرض، وما في السماوات وما في الأرض، مِلكًا ومُلكًا.

فماذا يصنع هؤلاء الحكام - إن كانوا مسلمين حقًا - أمام النصوص المحكمة، الآمرة الناهية، من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، التي تشمل الحياة كلها، والتي توجه الإنسان وتشرع له، من المهد إلى اللحد، وتصحبه في رحلة حياته منذ كان جنينًا إلى أن يموت.

هناك أحكام تتعلق به جنينًا ومولودًا ورضيعًا وفطيمًا وصبيًا ويافعًا وشابًا وكهلًا وشيخًا ومحتضرًا وميتًا.

وهناك أحكام تتعلق بالأسرة وبالمجتمع، وبالحكومة، وبالاقتصاد

وبالسياسة، وبالعلاقات الدولية.

وهذا كله يدلنا على أن الإسلام رسالة شاملة، جاء كتابها تبيانًا لكل شيء من رب كل شيء، كما قال تعالى: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}** [النحل: 89]. وقال تعالى في ختام سورة يوسف: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [يوسف: 111].

وهذا متسق مع فطرة الحياة نفسها، فهي في الحقيقة وحدة لا تتجزأ، لا ينفصل فيه دين عن دنيا، ولا عبادة عن معاملة، ولا سياسة عن اقتصاد، ولا ثقافة عن سياسة، ولا أخلاق عن ذلك كله.

ولهذا رأينا «الأيديولوجيات» الوضعية نفسها تجتهد أن تقبض على أزمة المجتمع كله، وتوجه شؤون الحياة كلها، فإنها يؤثر بعضها في بعض.

حتى الكنيسة نفسها التي قال لها إنجيلها: دع ما لقيصر لقيصر، لم تدع لقيصر ما له، بل عملت في عصور شتى أن تكون هي القيصر، فإن لم تستطع نصبت هي القيصر، ووجهت القيصر إلى ما تريد.

لماذا يراد للإسلام وحده، أن ينحصر في الجانب الروحي، على عكس تعاليمه، وعكس تاريخه كله؟ والإسلام ليس له سلطة دينية متمكنة - كالمسيحية - فإذا زالت عنه السلطة التي تجمع بين الدين والسياسة، أو التي تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وسياسة الدنيا به - كانت النتيجة أن تنزع السلطة كلها من الإسلام، ويبقى معزولًا عن الحياة ولا شيء بيديه.

والأهم من ذلك كله: أن الإسلام يرفض أن يعزل عن الحياة، وأن تسلب سلطته في التشريع والتوجيه والقيادة.

يرفض الإسلام أن يؤخذ عقيدة ولا يؤخذ شريعة، وأن يؤخذ عبادة ولا يؤخذ معاملة، وأن يؤخذ وصايا أخلاقية، ولا يؤخذ أحكامًا عملية.

إنه يعتبر هذا «التبعيض» أو «التجزئة» لتعاليمه وأحكامه «كفرًا» به، ومروقًا منه، ويتوعد من فعل ذلك بأشد العذاب. وهو ما عاب عليه بني إسرائيل حين أخذوا بعض دينهم وتركوا بعضًا، فقرعهم الله سبحانه بقوله: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ 85 أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}** [البقرة: 85، 86].

موقف الحكام من هذه الآيات القرآنية:

ونقول للحكام الذين يقولون: إنهم مسلمون، وإنهم يعتزون بالإسلام، وإنهم يصلون ويصومون، ولكنهم لا يطبقون كل شريعة الإسلام في كل شؤون الحياة المختلفة، بل يأخذون منها ويدعون، فأمسوا هم الحكام على الشريعة، ولم تعد الشريعة هي الحاكمة عليهم. ما موقفهم أمام هذه النصوص الزاجرة البينة في مثل قوله عز وجل: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا}** [الأحزاب: 36].

وقوله تعالى: **{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [المائدة: 44].

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} [المائدة: 45].

{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ} [المائدة: 47].

ولا يقول قائل: إن هذه الآيات إنما جاءت في شأن أهل الكتاب، فقد جاءت بلفظ عام، والأصل أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب.

يؤكد ذلك: أنه لا يتصور أن يحكم الله تعالى - وهو الحكم العدل - على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بالكفر أو الظلم والفسوق، إذا لم يحكموا بكتابهم الذي أنزله الله عليهم، ويعفي من ذلك المسلمين إذا فعلوا فعلتهم، ولم يحكموا بكتابهم الذي أنزل عليهم من ربهم.

أيكل الله تعالى بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغيرهم؟ أم أن عدله واحد مع الجميع، كما قال تعالى يخاطب المسلمين: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: 123]

أم كان كتاب المسلمين أهون عند الله من الكتب الأخرى، حتى إن من أعرض عن الحكم به لا يعاقب بما عوقب به أهل الكتب الأخرى؟

وهذا مردود يقينا، فإن كتاب المسلمين «القرآن» هو أعظم هذه الكتب، الموصوف بالإعجاز، والحفظ والخلود، والشمول، والهيمنة على سائر الكتب، كما قال تعالى: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: 48]. إلى أن قال: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ

49 أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 49، 50].

وما موقف هؤلاء الحكام الذين يدعون أنهم مسلمون ويصلون ويصومون، ولكنهم يعرضون عن حكم الشريعة إذا دعوا إليها، من قبل العلماء والدعاة الإسلاميين والجماعات الإسلامية، وقبل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ... ما موقفهم أمام هذه النصوص المنذرة الهادرة كالرعد، القاصفة كالبرق، الواضحة كفلق الصبح، مثل قوله تعالى في سورة النساء: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا 60 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا 61 فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا 62 أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا 63 وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا 64 فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا}** [النساء: 60 - 65].

لقد بينت هذه النصوص المحكمة من كتاب الله الكريم، مجموعة أمور تدل على النفاق، منها:

1- التحاكم إلى «الطاغوت» والطاغوت: كل ما يعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله تبارك وتعالى، ولذا أطلق على الشيطان، وأطلق على الأصنام المعبودة من دون الله أو مع الله، وأطلق على الكهان الذين يحلون

ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون في الدين ما لم يأذن به الله، وأطلق على كل ما اتخذهم الناس من دون الله يشرعون لهم ما شاءوا. ولو كان مناقضًا لحكم الله تعالى وأمره.

ومن هنا كان التحاكم إلى فلسفة البشر، وقيم البشر، وأنظمة البشر، وتقاليد البشر، وقوانين البشر - بمعزل عن هداية الله وشرعه - تحاكمًا إلى الطاغوت ولا ريب. وهذا شأن المنافقين: **{أَلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا}** [النساء: 60].

2- الصدود والإعراض عن حكم الله ورسوله إذا دُعوا إليه، وهذا من دلائل النفاق، وخلق النفاق **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا}** [النساء: 61].

3- التظاهر بحسن النية وقصد الخير والإصلاح، والحلف على ذلك كذبًا وبهتانًا: **{فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا}** [النساء: 62].

4- نفي الإيمان نفيًا كليًا بالقسم على من لم يقبل حكم الله ورسوله مع الرضا والتسليم المطلق: **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا}** [النساء: 65].

وما موقف هؤلاء الحكام أيضًا من هذه الآيات الزاجرة من سورة النور وهي قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ 47 وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا**

فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ 48 وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ 49 أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ 50 إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [النور: 47 - 51].

تؤكد هذه الآيات ما قررته آيات سورة النساء من نفي الإيمان عمن قال: آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى عن اتباع ما أُمر به، واجتناب ما نُهي عنه، والإذعان لما حكم **{وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ}** [النور: 47]. «وبهذا النفي الجازم» **{وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ}** [النور: 48].

كما تبين الآيات أنهم لا يستجيبون لحكم الله وشرعه إلا فيما كان فيه هوى أو مصلحة لهم: **{وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}** [النور: 49].

ثم تبين الباعث وراء هذا الموقف الذي لا يصدر من مؤمن **{أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ}** [النور: 50].

ثم تبين الآيات ما يفرضه منطق الإيمان على صاحبه، وهو الإذعان والانقياد والقبول لحكم الله ورسوله بلا تردد ولا تلكؤ: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ}** [النور: 51].

وبذلك تتوافق هذه النصوص الإلهية كلها: في سورة النساء، وفي سورة النور، وفي سورة الأحزاب، على أن مقتضى الإيمان هو الانقياد المطلق

لحكم الله وحكم رسوله، دون ارتياب ولا تبرم، بل مع القبول والرضا، واليقين بأن فيه الخير كل الخير، في الدنيا والآخرة، فليس الإنسان أعلم من ربه بمصالح خلقه: **{قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ}** [البقرة: 140]، **{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ}** [الملك: 14].

وليس الإنسان أبر وأرحم بالعباد من ربهم وخالقهم، الذي هو أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، وقد سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وقد وسع رزقه كل حي منهم، كما وسعت رحمته كل شيء: **{إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [البقرة: 143].

اضطهاد دعاة الحل الإسلامي:

وليت الأمر وقف بهؤلاء الحكام المنافقين - عند الإعراض عن حكم الله ورسوله، أو عن شريعة الإسلام، أو عن الحل الإسلامي، بل امتد إلى الوقوف في وجه كل من يدعو إلى «الحل الإسلامي» وتحكيم شريعة الإسلام في حياة المسلمين.

والعجيب أن هؤلاء الحكام - وهو غرباء عن الاتجاه الحقيقي لأمتهم - اعتبروا أن ما هم عليه هو الأصل، وهو المشروع، وأن كل من يدعو إلى غيره، إنما يدعوا إلى التخريب، وإلى زعزعة الاستقرار، وزلزلة بنيان المجتمع، واتهم بمحاولة «قلب نظام الحكم» إلى غير ذلك من «الاتهامات» المخزونة في جعبة هؤلاء، والتي سرعان من تنطلق بها أبواق الإعلام للتشويه، والتشويش على الدعاة الأصلاء المخلصين.

مع أن الواقع يقول بكل وضوح: إن الذي قلب نظام الحكم وحوله من الشريعة الإسلامية التي تؤمن بها الأمة، إلى القوانين والأنظمة الوضعية، المفروضة عليها من خارجها، إنما هو «الاستعمار» الذي كان أول ما فعله حين تحكم في ديار المسلمين، هو إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية، وإحلال قوانينه ومناهجه محلها، كان ذلك بأوامر فوقية من السلطة المستعمرة المهيمنة، ولم يكن بإرادة الشعوب ولا باختيارها.

وهؤلاء الحكام ورثوا هذه الأوضاع العوج من المستعمر، بعد الاستقلال، وكان مقتضى الاستقلال: أن يتحرروا من آثار الاستعمار التشريعية والثقافية، كما تحرروا من ربقته العسكرية والسياسية، ولكنهم - للأسف - أقروا هذه الأوضاع المنافية لعقيدة الأمة، بل باركوها، وربما وسع بعضهم في دائرة الانحراف، أكثر مما صنع الاستعمار، فجار على قضايا «الأحوال الشخصية» وشؤون الأسرة، التي كان الاستعمار تركها للشعوب، لخصوصيتها الشديدة، واتصالها بدين الناس، وهويتهم الحضارية.

لو كان هناك قضاء عادل يمثل أمامه هؤلاء الحكام، لتحاكمهم شعوبهم، لكان أول تهمة توجه إليهم: أنهم خانوا شريعة الأمة، وعطلوها عمدًا، ومشوا في ركاب المستعمر، الذين زعموا يومًا أنهم حاربوه وطاردوه، وهم اليوم يسيرون في نفس خطه، ووفق منهجه الذي رسمه.

إن كثيرًا من الحكام اليوم كان ينبغي أن يكونوا في قفص الاتهام، لأنهم أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، وأسقطوا ما فرض الله، وشرعوا للناس ما لم يأذن به الله. ولكن الواقع المشهود هو العكس: أن يساق الدعاة إلى الله وإلى شرعه ومنهجه إلى السجون والمعتقلات، بمحاكمات عسكرية غير

مقيدة بأصول القضاء الطبيعي وتقاليده، أو بغير محاكمات أصلًا عند اللزوم.

كم رأينا الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار الصحابية، والقواعد الفقهية، توظف - بالباطل - ضد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين سيق بهم إلى المعتقلات، وقذف بهم في جحيم السجون، وصبت عليهم ألوان العذاب والتنكيل، وسلطت عليهم الكلاب لتنهش من لحمهم، والسياط لتشرب من دمائهم، والآلات الجهنمية لتسحق من عظامهم، ولا جرم لهم إلا أن قالوا: ربنا الله، ومرجعنا الإسلام، ودستورنا القرآن، وقائدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

اتهموا هؤلاء الدعاة بأنهم عصوا «أولي الأمر» منهم، وما عثوا أولي الأمر، وإنما نصحوا لهم، كما أمرهم الله ورسوله، ودعوهم إلى تحكيم شرع الله لا إلى شيء آخر. والله تعالى يقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ}** [النساء: 59]. فكان الواجب عند التنازع مع أولي الأمر في شيء هو رده إلى الله ورسوله، والرد إلى الله يعني: الرد إلى كتابه وقرآنه، والرد إلى الرسول، يعني: الرد إلى سنته ومنهجه، ولكنهم رفضوا الاستجابة إلى أمر الله، ولم يردوا الأمر إلى أهوائهم ومذاهبهم المستوردة من الغرب والشرق.

وأغرب من ذلك: اتهام هؤلاء الدعاة بأنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، واستشهدوا في ذلك بآية سورة المائدة التي نزلت في شأن بعض المرتدين كما يرى بعض السلف، أو في قطاع الطريق المفسدين في الأرض، كما يرى جمهور الفقهاء، وهي قوله تعالى: **{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ**

يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ 33 إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} [المائدة: 33، 34].

إن مما يندي له الجبين، وتذهب عليه النفس حسرات، وتنقطع له القلوب زفرات: أن نجد هؤلاء الحكام الذين يلبسون لبوس الوطنية، أو يزهون برداء القومية، ينفذون - حرفيًا - ما أوصى به أعداء الأمة، وأعداء دينها وتقدمها ووحدتها: من ضرب الدعوة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، وإيقاف سيرها، أو - على الأقل - تعويق تقدمها ونفوذها وهيمنتها على الجماهير، وخصوصًا الشباب المثقف في الجامعات والمعاهد.

هذا مع أن هذا الشباب المسلم المؤمن بربه، المعتز بدينه، المتأخي على عقيدته، الحريص على المسلك الطاهر النظيف، في قوله وفعله، ومأكله ومشربه، ومدخله ومخرجه، ومعاملته مع نفسه ومع ربه، ومع أهله، ومع مجتمعه، ومع الناس أجمعين ... هذا الشباب هو ثروة طائلة لوطنه، ورصيد هائل لا يقدر قدره في المعركة الوطنية والقومية مع الأعداء، كما أنه عنصر أساسي وهام في البناء والتقدم والتنمية. وهو العنصر المأمون الذي يصعب على أعداء الأمة اختراقه عن طريق الخمر أو المخدرات أو النساء، فقد كفاه الله بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه.

ولقد كنا نعذر هؤلاء الحكام أيام النفوذ الاستعماري، الذي كان يتصرف في أوطاننا ومقدراتها تصرف القيم في القاصر، أحيانًا مباشرة وبصراحة، وأحيانًا أكثر من وراء ستار، ونقول: إن هؤلاء القادة والزعماء ليس لهم في

الواقع من الأمر شيء وأنهم يؤمرون فيطيعون، ويُدعون فيلبون، ويعتقدون أن إشارة المستعمر أمر ورغبته حكم، فلما ولى الاستعمار وخرج من ديارنا استبشرنا خيرًا، وقلنا قد انزاحت الغمة، وتحررت أعناقنا من الأغلال، وأيدينا من القيود، وأرجلنا من السلاسل، وبقينا أحرارًا في بلادنا، نفعل ما نشاء، ونحكم ما نريد.

ولكنا - وا أسفاه! - وجدنا في كثير من الأحيان والأحوال أن المستعمر كان أخف وطأة، وأقل جرأة، وأهون شرًا من بعض من ورثه من «الحكام الوطنيين» الذين ركبوا ظهر الإسلام حتى ارتقوا سنام السلطة، وتسلموا زمام الحكم، فإذا بهم يتنكرون للإسلام، وينقلبون على شريعته، ويفقون في وجه دعوته، ويعلنون الحرب الضروس على دعاته، ويتخذون «العلمانية الغربية» شعارًا ودثارًا لهم، ومرجعية لتفكيرهم وتشريعهم وتعليمهم وسلوكهم، وتفضلوا على الدين فحصوره في المسجد، وفي الاحتفال بالمناسبات الدينية، التي قد يحضرونها بأنفسهم أو بمندوبيهم، وربما كانت أفواههم لا تزال تشم منها رائحة الخمر.

استوى في ذلك الحكام المسلمون أو الذين ينتسبون إلى الإسلام في بلاد العرب، وفي بلاد العجم، من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، من جاكرتا إلى موريتانيا. كلهم - بعد استقلالهم وتحررهم من الاستعمار الغربي - ساروا في ركاب هذا الاستعمار، ومشوا في خطه، ونهجوا نهجه، ونفذوا خططه، وجعلوا ولاءهم للاستعمار وأهله، ولم يجعلوا ولاءهم لله ولرسوله وللذين آمنوا، على طريقة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: **{بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا 138 ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ**

ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: 138، 139].

وقال تعالى في نفس السورة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا 144 إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا}** [النساء: 144، 145].

ويبين الله عز وجل جهة الولاء التي يجب أن يتجه إليها الفرد المؤمن، والجماعة المؤمنة، فقال: **{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ 55 وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ}** [المائدة: 55، 56].

واستوى في الموقف من الإسلام: الحكام اليمينيون الليبراليون الديمقراطيون - كما يسمونهم - والحكام اليساريين الثوريون الاشتراكيون.

فقد حكم الليبراليون اليمينيون بعد استقلال أوطانهم، ولم يولوا الإسلام، واصطدموا بدعاته، وساقوهم إلى المعتقلات والسجون.

ثم سقط هؤلاء وورثهم الاشتراكيون الثوريون اليساريون، فكانوا شرًا منهم على الإسلام ودعاته وجماعاته، كانوا أقل رحمة، وأشد نقمة، وأضرى هجمة، كانت ضرباتهم أقسى وأشد إيجاعًا، وأكثر وحشية، وأحد أظفارًا وأنيابًا!

كانت ضحاياهم أكثر عددًا، وتنكيلاتهم أوسع مساحة، وتنكرهم للإسلام أكثر صراحة، بل أبلغ وقاحة، سالت دماء أغزر، وأزهقت أرواح أكثر، وكان أسلوبهم أشرس وأحقر، حتى شووا الجلود، وسحقوا العظام، وأكلت سياطهم اللحوم، وشربت الدماء، حتى النساء الفضليات علقن من أرجلهن في

«زنازين» العذاب، وحتى استخدمت الأساليب اللا أخلاقية في التنكيل والتعذيب، مما يخجل المرء أن يبوح به أو يذكره صراحة للناس.

وهناك من خروا صرعى تحت أتون العذاب المكثف المستمر، ولقوا ربهم شهداء، ودفنوا في الصحاري القريبة، بلا غسل ولا تكفين ولا صلاة!

وفي بعض البلاد العربية أخذت مئات - بل آلاف - من الأحرار الشرفاء، واقتادوا إلى سجون لا يعلم عنهم شيء، ولا يزورهم أحد، وأفرج عن بعضهم بعد بضعة عشر عامًا، وقد شوه وحطم بدنيًا ونفسيًا، وعاد خلقًا آخر، وبقي آخرون لا يعرف عنهم أهلوهم شيئًا: أفي الأحياء هم أم في الأموات؟ ولو علموا أنهم ماتوا لقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسألوا الله أن يأجرهم في مصيبتهم وأن يخلفهم فيها خيرًا. ولكن هذه الحالة التي هي «لا حي فيرجى، ولا ميت فينسى» فهي أشد وأنكى من الموت قطعًا.

ومن المآسي التي تذكر هنا أن بعض البلاد كان يحكمها الملوك، فتحولت أنظمتها من الملكية إلى الجمهورية، وظن الناس بهذه الجمهوريات الجيدة خيرًا، وتصوروا في بداية الأمر أن الخير سيجري في ركابها، وأنها ستطعم الناس من جوع، وستؤمنهم من خوف، وأنهم سيأكلون في ظلها المن والسلوى أو السمن والعسل، وأنهم سينعمون بالحرية والمساواة والكرامة، وحقوق الإنسان، فإذا هذه الجمهوريات كانت شرًا على الشعوب من الملكيات، لم يذق الناس في عهودها إلا لباس الجوع والخوف، وضاعت حرية الإنسان، وهانت كرامة الإنسان، وأمست شعوب كاملة رهينة بإرادة شخص واحد، يقدس الجميع اسمه، ويسبحون بحمده، وينحنون له، وينفذون أمره، بل إشارته. لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يعمل، ولا يقول له

أحد: لم؟ بله أن يقول: لا!

وكان من مزايا «الجمهوريات» أن رؤساءها يبقون فترة أو فترتين ثم يتغيرون، ولكن الرؤساء في أوطاننا لا يتغيرون، والدنيا تتغير من حولهم، فهم مفروضون على شعوبهم رغم أنوفها. وإن كانوا يصوغون ذلك في صورة مطالبات جماهيرية تطالبهم بالبقاء والاستمرار، وتؤكد ذلك نتائج الاستفتاءات التي يحصلون فيها على 99.99% من الأصوات.

وأعجب من ذلك: أن هؤلاء الرؤساء الذين ابتليت بهم الأمة، قد حولوا هذه الجمهوريات إلى ملكية وراثية بالفعل، وعلى مرأى ومسمع، فكل رئيس يعد ابنه ليكون ولي عهده، ووارث ملكه من بعده، فابن الوز عوام، ومن يشابه أباه فما ظلم. وهكذا عادت كسروية أو قيصرية، لها من القيصر جبروته وسرفه، وليس لها منه جلاله وشرفه، كما قال شوقي رحمه الله .

وبات الناس يترحمون على أيام الملوك، وعهود الملكية، وينشدون قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه، فلما صرت في غيره بكيت عليه!

حتى كتب بعض أساتذة العلوم الاجتماعية والسياسية، يقترح على البلاد العربية، أن تستبدل بالأنظمة الجمهورية الحالية: الملكية الدستورية، فقد وجد أنها أحسن حالًا، وخير مآلًا، من هذه الجمهوريات الحديثة، ذات المخالب والأنياب، التي تعلن «الديمقراطية» وتمارس «الدكتاتورية».

ولقد كان مما يخفف سطوة الوراثة في النظام الملكي الدستوري: أن الملك فيه يملك ولا يحكم، بخلاف هؤلاء «الملوك الجمهوريين» فإنهم يملكون

ويحكمون، ويورثون الملك والحكم لذرياتهم!!

وقد قال بعض رؤساء الجمهوريات: إن الديمقراطية قد تكون لها أنياب أحد من أنياب الدكتاتورية. وقد استطاع بهذه الأنياب أن يفترس خصومه، وتحت علم الديمقراطية!

والأعجب من كل ما ذكر: أن تجد بعض الكتاب والصحفيين والإعلاميين قد باعوا أنفسهم بثمن بخس - وربما بلا ثمن - لهذه الأنظمة المتسلطة، يبررون لها سلوكها، ويدافعون عن انحرافاتهم وتحريفاتها، ويباركون لها كل اتجاهاتها، يصدقونها إذا ادّعت، وينظمون قصائد الإطراء، أو يدبّجون مقالات الثناء، فهؤلاء شر على الأمة من الحكام الجائرين والمستبدين.

* * *

(5)
عبيد الفكر الغربي

المراد بالفكر الغربي ومقوماته.

ماذا نعني بعبيد الفكر الغربي.

المشترك بين عبيد اليمين وعبيد اليسار.

أخطر ما صنع الاستعمار.

نماذج وأمثلة: المكشوفون والمقنّعون.

المحرفون للكلم عن مواضعه.

مع الغالب المنتصر.

موقفنا من عبيد الفكر الغربي.

عبيد الأمس شبه معذورين.

* * *

عبيد الفكر الغربي

العدو الخامس للحل الإسلامي، والفكر الإسلامي، والعمل الإسلامي، هم جماعة «العلمانيين» الذين أسميتهم «عبيد الفكر الغربي»، وإن كانوا من بني جلدتنا، ويتكلمون بلساننا العربي:

العداوات السابقة - من الاستعمار والصهيونية والشيوعية - عداوات خارجية، وإن كان لها تأثير لا يجحد في حياتنا الداخلية، بوسائل شتى، أما هذا العدو، والعدو السابق «الحكام المنافقون» فهو عدو من داخلنا مباشرة، وهذا هو الأشد خطرًا، والأعمق أثرًا.

ونعني بالفكر الغربي: الفكر النظري الذي يسود الغرب الحديث في أوربا وأمريكا. ولسنا نعني به «الفكر العلمي» القائم أساسًا على الملاحظة والتجربة والذي عبرت عنه العلوم الطبيعية والرياضية، التي تفوق فيها الغرب تفوقًا ملحوظًا. إنما نعني به الفكر الفلسفي الذي يحدد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة، وإلى الكون والإنسان. فهو يشمل الفلسفة المتافيزيقية «ما وراء الطبيعة» إثباتًا أو أنكارًا، والفلسفة الأخلاقية بشتى مدارسها، والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها. وقد عبرت عن هذا العلم الفلسفة بشتى مدارسها، والنظريات الأخلاقية، والعلوم الاجتماعية، والمذاهب الأدبية.

وسواء كان هذا الفكر يبراليًا أم اشتراكيًا، ورأسماليًا أم شيوعيًا، فهو فكر غربي واحد في الأساس والأصول، والسمات والخصائص، وإن اختلفت

صوره وفروعه، وتميز بعضها عن بعض.

أما «الفكر العلمي» القائم على المنهج الاستقرائي أو التجريبي، فلا اعتراض لنا عليه، بل الواقع أن أصله مقتبس من الحضارة العربية الإسلامية التي ارتكزت عليه، وتفوقت في استخدامه في شتى المجالات، واعتبره العلماء المسلمون منهجًا قرآنيًا، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب، ومؤرخو العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين في ذلك، وأخذ الغربيين عنهم، كما في كتابات «بريفولت» و«جورج سارتون» و«جوستاف لوبون» وغيرهم من الشهود العدول[102] كما نقد علماء المسلمين - أمثال ابن تيمية - المنهج أو المنطق الصوري الأرسطي، قبل أن ينتقده الغربيون المحدثون بعدة قرون.

سمات الفكر الغربي وخصائصهِ:

هذا الفكر الغربي النظري فكر خاص له سماته وخصائصه التي ينفرد بها عن فكر الشرق عامة، والشرق العربي والإسلامي خاصة، وهي خصائص عميقة الجذور، لازمته منذ نشأته فلا بلاد الإغريق، وانتقاله إلى الرومان، حتى انتقل إلى أوربا المعاصرة، ومن ورائها أمريكا، وأثرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون، تركت «بصماتها» عليه إلى اليوم.

1- الغبش في معرفة الألوهية:

أول سمات الفكر الغربي: غبش رؤيته لحقيقة الألوهية، فليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره، وإنما هي رؤية غائمة مضطربة، تحيط بها

(102) انظر رسالتنا: «الدين في عصر العلم» من رسائل «ترشيد الصحوة الإسلامية»، نشر مكتبة وهبة.

الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب - كما يظهر من تاريخه - لم يعرف الله جلّ شأنه معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره، ولم يعرف حقيقة الألوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة. وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية، والوحي المعصوم، معرفة مباشرة، فيما علمنا من تاريخه. ومن ثَمَّ سار في الطريق وحده باحثًا عن «العلة الأولى» أو «المحرك الأول» أو «واجب الوجود» فتعثر وتخبط وغلبت عليه الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة «الإلهيين» أي الذين اعترفوا بالألوهية في الجملة، مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصورهم للألوهية تصورًا صحيحًا، بل كان تصورًا قاصرًا مضطربًا مشوبًا بكثير من الأوهام والتخليطات.

لنأخذ مثلًا «إله» أرسطو «المعلم الأول»[103] لدى الإغريق، لنرى أي إله هو؟ أهو الإله الذي نعرفه نحن، خالق كل شيء، ورازق كل حي، ومدبر كل أمر، العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون، الفعال لما يريد، والقادر على كل شيء؟ أم هو إلى آخر غير هذا الإله الذي نعرفه؟

لنستمع في ذلك إلى أحد مؤرخي الفلسفة المعاصرين ...

يقول «ول ديورانت» في «مباهج الفلسفة»:

«يتصور أرسطو «الله» بوصفه روحًا تعي ذاتها، وهذه هي الأخرى

(103) هكذا أطلقت عليه المدرسة الفلسفية المشائية في الحضارة الإسلامية: الفارابي وابن سينا ومن وافقهما.

روح غامضة خفية، وذلك لأن إله «أرسطو» لا يقوم أبدًا بأي عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة، إلى حد تجعله لا يفعل أبدًا، وهو كامل كمالًا مطلقًا، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب في أي شيء، ولذلك لا يعمل أي شيء! ووظيفته الوحيدة هي التأمل في جوهر الأشياء، ونظرًا لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشياء، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل في ذاته. يا لإله أرسطو من إله مسكين! إنه ملك، لا يحل ولا يربط، فالملك يملك ولكنه لا يحكم!

ولا غرو أن يحب الإنجليز «أرسطو» فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل من ملكهم، أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات»[104].

وإذا كان إله أرسطو مسكينًا، لأنه لا يستطيع أن يحل ولا يربط في الكون، ولا يتأمل إلا في ذاته فأشد منه مسكنة إله أفلوطين - الذي تنسب إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمل في شيء، حتى في ذاته نفسها!![105].

2- النزعة المادية:

ومن سمات الفكر الغربي: المادية، ونعني بها تلك النزعة التي تؤمن بالمادية وحدها، وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك، وتنكر الغيبيات، وكل ما وراء الحس، فهي لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون، ولا برسل له ينزل عليهم الوحي، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا. ولا بعالم غيبي غير هذا العالم المنظور، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللذات الحاضرة، لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس، ولا تهدي إليها الملاحظة

(104) «مباهج الفلسفة» (ص161، 162) من الترجمة العربية.
(105) انظر: «الله» للأستاذ عباس محمود العقاد.

والتجربة.

الفكر الغربي مادي، يحتقر الروحيات ... حسي، لا يحفل بالمعنويات ... واقعي، لا يؤمن بالمثاليات.

وأود أن أنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد، فلا يحتج علينا محتج بأن في الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين، فيه أمثال جيمي كارتر الرئيس الأمريكي الذي قال: إنه ولد ولادة مسيحية جديدة. فيها المسيحية الأصولية الموالية لليهود، المساندة لإسرائيل، إن العبرة بالأغلب، والنادر لا حكم له، والأكثر له حكم الكل، كما هو معلوم.

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة، سواء منها الجانب النظري أم الجانب العملي، حتى أصبح معروفًا لدى الدارسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقية اليوم هي «المادية».

وربما أنكر هذه الحقيقية أو استغربها الذين ينظرون إلى الأمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق. إذ المعروف لديهم: أن أمم الغرب في مجموعها تدين بالمسيحية، وينص كثير من دساتيرها على ذلك، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة في العالم، وإنجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية. وقد ورثها في ذلك الآن الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة، تولى بعضها الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين البريطاني يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية ... فكيف يسوغ لنا - بعد هذا - أن نشكك في

أيمان الغرب بالدين وتمسكه به؟

ولكن ينبغي ألا تخدعنا الصور عن الحقائق، ولا القشور عن اللباب، ولا الأسماء عن المسميات.

فالمسيحية عند هؤلاء «شعار» يرتبطون به، و«صليب» يتجمعون حوله، ونزهة إلى «الكنيسة» في أيام الآحاد، وليست «قيمًا» يؤمنون بها، و«عقائد» يخضعون لها، ويكيفون حياتهم وفقًا لها، ونحن نتحدث طبعًا عن الغالبية العظمى، لا عن أفراد يعدون شواذ بالقياس إلى مجتمعهم، فهم في قومهم كحلقة في فلاة.

فالغربي الحديث إذا كشفت عن جوهره الحقيقي وجدت إنسانًا لا يعرف إلا المادية دينًا، والنفعية مذهبًا.

وننقل هنا كلمة رجل أوربي باحث متعمق هو «ليربولد فايس» النمساوي الذي اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم «محمد أسد» في كتابه المعروف «الإسلام على مفترق الطرق» يقول:

«إن الأوربي الحديث - بما ينطوي عليه من جحود مهمل لوجود النفس على أنها حقيقة عملية - لم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما. لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراءه ظهريًا».

«إن الاتجاه الديني مبني دائمًا على الاعتقاد بأن هناك قانونًا أدبيًا مطلقًا شاملًا، وأننا - نحن البشر - مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر لخضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه

الرفاهية»[106]!

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوربية للدين، وأعاده إلى سببين أساسيين:

أولهما: وراثة أوربا للمدنية الرومانية، مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية، وقيمتها الذاتية.

والثاني: ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعية في الإنسان[107].

وقد حلل الحضارة الرومانية - التي هي أم الحضارة الغربية - تحليلًا دقيقًا، ينبغي لنا أن نسجله، وأن نعيه وعيًا جيدًا. قال:

«إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية. لقد كانت أشباحًا سُكت عن وجودها حفاظًا للعرف الاجتماعي، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية».

«تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة في أثناء تطورها، ثم إنها بطبيعة الحال قد حورت وبدلت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومية، في أكثر من ناحية واحدة، ولكن الحقيقة الباقية: أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراق

---

(106) «الإسلام على مفترق الطرق» (ص30) ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثانية.
(107) «الإنسان على مفترق الطرق» (ص40) ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثانية.

الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية».

«وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعيًا بحتًا، ولا دينيًا - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو في الغرب الحديث».

«إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة - أي جحودًا في قوة وصراحة - ولكنها لا ترى مجالًا ولا فائدة «لله» في نظامها الفكري الحالي».

«وهكذا يميل الأوربي الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه، ولا تحت ذاك، فإن العقل الأوربي يميل بداءة إلى إسقاط «الله» من دائرة الاعتبارات العملية»[108].

ولم ينكر «ليوبولد فايس» أن في الغرب بعض الأفراد المتدينين، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية، أو يؤثروا في توجيه التيار الفكري العام. قال:

«لا ريب أنه يوجد في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط».

«إن الأوربي الحديث - سواء كان ديموقراطيًا أم فاشيًا، رأسماليًا أم بلشفيًا، صانعًا أم مفكرًا - يعرف دينًا إيجابيًا واحدًا. هو التعبد للرقي المادي،

(108) «الإسلام على مفترق الطرق» (ص34) وما بعدها.

أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ...».

«إن هياكل هذه الديانة - أي معابدها وكنائسها - إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما، وقادة الصناعات وأبطال الطيران! وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال: هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة - أي اللذة - وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، ومصممة على أن يفني بعضها بعضًا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة».

«أما على الجانب الثقافي، فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر، إنما هو التقدم المادي لا غير»[109].

وليست شهادة «ليوبولد فايس» على المدنية الغربية هي الشهادة الوحيدة، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد، وأكدوا ما قال، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن الأستاذ «جود» الإنجليزي قوله: «إن نظرية الحياة التي تسود هذا العصر، وتحكم عليه: هي النظرية في كل مسألة وشأن، من ناحية المعدة والجيب»[110].

وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور «جون جنتر» تمثيل هذه الفلسفة

(109) «الإسلام على مفترق الطرق» (ص41).
(110) انظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص157) الطبعة الثانية.

في كتابه «في داخل أوربا» بقوله: «إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»[111].

وهذه شهادات قديمة، وقد ساء الوضع وتدهور كثيرًا، وكثيرًا جدًا، عما شهده وشهد به هؤلاء النقاد، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن 5% فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإن لم يكن هذا الذهاب يعني التدين بالضرورة.

3- النزعة العلمانية:

ومن سمات الفكر الغربي وخصائصه: النزعة العلمانية - وهي من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما - وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى: بين الدين والحياة الاجتماعية.

فالدين في نظر الغربي علاقة بين الإنسان وربه، محلها ضميره الذي بين جنبيه، فإن خرج عن الضمير، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد، أو الكنيسة، وليس من شأنه أن يوجه الحياة بالتشريع والإلزام، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التي تحكم المجتمع، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة وإعلام، وإدارة، واقتصاد، وسياسة وتشريع.

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة في الكنيسة ورجالها وكهنتها، الذين زعموا أنهم يمثلون في الأرض إرادة الإله في السماء، وأن رأيهم دين، وطاعتهم عبادة، ومخالفهم شيطان.

وللأسف كان رأيهم وفكرهم - الذي اعتبروه دينًا من عند الله - يؤيد

---

(111) المصدر السابق.

الخرافة ضد الفكر، والجهل ضد العلم، والجمود ضد التحرر، والظلم ضد العدل، والظلام ضد النور.

أقامت الكنيسة «محاكم التفتيش» لمطاردة العلم، ومحاكمة العقل، ومقاومة الابتكار، ومحاربة كل جديد، وفعلت الأفاعيل - التي لم يعرف التاريخ لها مثيلًا - ضد العلماء والمفكرين والمخترعين، وقتلهم أحياء، وحرقهم أمواتًا.

فلما مس الغرب المسيحي نفحة من الشرق الإسلامي، هب يدافع عن ذاته، ويثور على جلاديه، ويرفض الدين الذي حرمه من الدنيا، وحرم عليه العلم والتفكير، دين الكنيسة والبابوات، الذين يملكون قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، ويوزعونها على من يشاؤون.

رفض الفكر الغربي الناهض الدين الذي كبله بالأغلال، ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكنًا في الضمائر، فإن خرج فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها.

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشه، وعزله عن عجلة القيادة، نهض بعد عثرة، وارتقى بعد هبوط، واغتنى بعد فقر، وقوى بعد ضعف، وهذا ما جعله يزداد إيمانًا بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية: أن لا مكان للدين في توجيه الدولة والمجتمع.

ومما يؤيد هذه التوجه في الفكر الغربي: أن الإنجيل نفسه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ومعنى هذا: أنه قبل قسمة الحياة نصفين: نصف للدولة المعبر عنها بـ «قيصر»، ونصف للدين، الذي هو لله.

فهذا الانشطار والانقسام والانفصام بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة هو إحدى السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربي.

4- الصراع:

ومن خصائص فكر الحضارة الغربية: أنه فكر حضارة تقوم على الصراع، لحمتها وسداها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب.

وهو صراع متغلغل في كل النواحي، متنوع الأشكال، متعدد المجالات، متباين الأسلحة والأساليب.

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضًا بين الإنسان والإله!

فالإنسان في الغرب يصارع فطرته التي فطره الله عليها، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التي تريدها له ديانته النصرانية، فالوضع المثالي له أن يستقذر الجنس، ويهرب من الدنيا، ويرفض المال، لأن الغني لا يدخل ملكوت السماوات إلا إذا دخل الجمل في سم الخياط، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق، ومن زينة الله التي أخرج لعباده، ويتحمل السيئة من المسيء، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن! فإذا لم أن يفعل ذلك - كما هو شأن معظم الناس - ظل يعاني عقدة الصراع بين مثاليته التي يؤمن بها وواقعه الذي يعيشه ويمارسه.

وإنسان الحضارة الغربية في صراع مع الطبيعة، لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها، ولهذا يعبر الغربيون عن ذلك بكلمة «قهر الطبيعة» وهي كلمة لها دلالتها وإيحاؤها. على حين يرى

الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخرة لمنفعة الإنسان، كما في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً}** [لقمان: 20].

وهو ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم أجمل تعبير وأرقه في شأن جبل أحد حين قال: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»[112].

والإنسان في الحضارة الغربية في صراع مع أخيه الإنسان، وهو صراع يأخذ صورًا شتى.

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية، والفلسفة النفعية، وشيوع مقولة «هوبز»: «الإنسان ذئب للإنسان»! وقول كل امرئ بعد ذلك: «أنا وليخرب العالم»!

وهو صراع بين الطبقات والجماعات، وخصوصًا مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها، وجورها على غيرها، واحتقارها لمن سواها.

وهو صراع بين الأمم والأجناس، وخصوصًا مع وحدة الشعور القومي، ونزعة الاستعلاء عند كل أمة، وهو ما أدى إلى حروب إقليمية وعالمية، وما لا نزال نرى أثره في العلاقة بين البيض والسود، أو البيض والملونين عامة، في أمريكا وإفريقيا وغيرها.

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة، الذي انتهى إلى ما عرف عندنا باسم «العلمانية»، وتعني: فصل الدين عن شؤون الدولة والمجتمع.

---

(112) رواه البخاري عن سهل بن سعد، والترمذي عن أنس.

ومثله الصراع بين الدين والعلم، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التي تمثل الدين وهي الكنيسة ورجال الأكليروس، والمؤسسة التي تمثل العلم، وهي الجامعات ومراكز البحث وغيرها ... وقد تجسد هذا الصراع في محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان.

وأدهى من ذلك كله وأمرّ في الحضارة الغربية: الصراع بين الإنسان والرب أو الإله، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين:

1- وثنية اليونان وآلهتها التي كانت تغير وتدمر وتحرق.

2- العهد القديم «التوراة وملحقاتها» الذي يصور الإله حاقدًا ناقمًا غيورًا حتى إنه يخلق الإنسان «آدم» ثم يخاف منه، ويخشى أن يزاحمه في المعرفة أو الخلود، فيحرم عليه الأكل من الشجرة، وهو يصارع إسرائيل، فيصرعه إسرائيل، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته!!

5- الاستعلاء على الآخرين:

ومن سمات الفكر الغربي: نزعة الاستعلاء على الآخرين، التي تسري وتتحكم في عقول الغربيين كافة، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصرًا، وأنقى دمًا، وأنهم خلقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا، وأن الآخرين خلقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم. هكذا بالفطرة والخلقة.

ولهذا سقطت هذه النظرية من الناحية العلمية، فلم يثبت العلم أن هناك جنسًا أفضل من جنس، من جهة الخلقة والفطرة، ولكنها البيئة والظروف

المساعدة، وقد كانت شعلة الحضارة في يد الشرق قديمًا، أيام حضارة الفراعنة والفرس والهنود والصينيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسته نفحة من الشرق الإسلامي عن طريق الأندلس وصقلية، ولقاءات الحروب الصليبية، والدور الآن للشرق لا للغرب الذي أفلس في قيادة الحضارة وإسعاد العالم بها.

لقد سقطت نظرية الأجناس علميًا، ولكنها لم تسقط نفسيًا، ولا زال لها تأثيرها في أنفس الكثيرين، بل الأكثرين من أبناء الغرب في علاقتهم بالآخرين.

والعجيب أن نجد رجلًا عالمًا كبيرًا مثل «دكتور ألكسيس كارل» من علماء هذا القرن ومن الحائزين على جائزة نوبل في العلوم يؤمن بتفوق الأجناس البيضاء على غيرها، كما ذكر ذلك في كتاب «الإنسان ذلك المجهول» ولهذا نجد الأوربيين يعتقدون أن أوربا أم الدنيا، وأن التاريخ منها بدأ، وإليها يعود، وأن التاريخ القديم والوسيط والحديث هو تاريخ أوربا وحدها. وأن الحضارة هي حضارتهم وحدهم، وأن القرون الوسطى تعتبر قرون ظلام، لأنها كانت هكذا عندهم، متجاهلين أن هذه القرون كانت هي الفترة الذهبية التي سادت فيها الحضارة الإسلامية المبدعة المتوازنة.

وهذا الاستعلاء ما أخذه الأوربيون عن الرومان الذين كان العالم في نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة، فكل من عداهم برابرة همج!

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوربيين عامة ينتقل إلى أقطار منها خاصة، كل يزعم أنه الأنقى سلالة، والأزكى عنصرًا. كما صنع «هتلر» ورفع شعار: ألمانيا فوق الجميع، وكما فعل «موسليني» وجماعته، ورفعوا شعار: إيطاليا فوق الجميع، وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار: سودي يا بريطانيا واحكمي! فشأن هؤلاء شأن بني إسرائيل الذين يزعمون أنهم - بجنسهم - شعب الله المختار!

تلك هي أبرز السمات والخصائص المميزة للفكر الغربي. والتي كان لها نضجها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقته بنفسه وبالآخرين، وكان لها ثمار إيجابية في بعض الجوانب، كما كان لها آفاقها وثمارها المرة في جوانب أخرى. وأن الغربيين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الأثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية، وطفقوا ينكرون عليها ماديتها وعلمانيتها واستعلاءها وغرورها، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين، ويبشرون بمستقبل العقيدة.

ماذا نعني بعبيد الفكر الغربي؟

هذا هو الفكر الغربي الذي نعنيه، وهذه ملامحه ومعالمه الأساسية، فمن هم عبيد الفكر الغربي؟

عبيد الفكر الغربي هم الذين سيطرت على عقولهم مفاهيم هذا الفكر، وقيمه الخلقية، وتصوره للدين وللإنسان وللحياة.

وكدت أسميهم «تلاميذ الفكر الغربي» ولكني تأملت موقف هؤلاء من الغرب، فوجدته أكثر من «تتلمذ» إن أصدق تعبير له هو «العبودية».

إن التلميذ الذكي يناقش أستاذه، وقد يعترض عليه، بل قد يخالفه ويرد قوله، وهؤلاء قد وضعوا أنفسهم موضع العبيد من السيد، فما يراه الغرب - سيدهم - حسنًا فهو عندهم حسن، وما استقبحه فهو عندهم قبيح، كل ما يعتقده الغرب فهو حق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل، وكل ما يدعو إليه فهو خير ورشد!

عبيد اليمين وعبيد اليسار سواء:

وهؤلاء العبيد فريقان:

فريق أتخذ له سيدًا من المعسكر الغربي وهم دعاة الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية وهم الذين يسمون «اليمينيين».

وفريق اتخذ له سيدًا من المعسكر الشرقي وهم دعاة «الاشتراكية العلمية» أو «الماركسية»، وهم الذين يدعون «اليساريين».

والفريقان يختلفان في مسائل شتى، ولكنهم تجمعهم أمور جوهرية، هي:

1- النظرة إلى الحياة والإنسان نظرة مادية تتجاهل موازين الدين وقيمه وأحكامه، ولا تجعل لله مكانًا في توجيه حياة الإنسان، وبخاصة المجتمع والدولة، ولا تجعل لوحيه سلطة الأمر والنهي والإلزام والتقويم.

2- تقديس الفكر الغربي واعتباره مصدر الهداية والنور للبشرية كله وللعالم قاطبة. واتخاذهم قبلة فكرة لهم خارج أوطاننا، فلا يأتيهم الوحي إلا من هناك، من لندن أو باريس أو موسكو أو واشنطن.

3- ازدراء الفكر الإسلامي قديمه وحديثه، واعتباره فكرًا جامدًا أو متخلفًا لا

يصلح لهذا العصر، لا تنطلق به نهضة، ولا ترقى به أمة. وذلك نتيجة جهلهم بهذا الفكر، وغربتهم عنه.

4- المعارضة بشدة لعودة الإسلام إلى قيادة المجتمع والسيادة على الحياة، واعتبار ذلك «نكسة» يجب أن تقاوم بكل وسيلة، وأن يؤخذ على دعاتها كل سبيل. ولهذا صنفناهم في «أعداء الحل الإسلامي».

عبيد ولكن لهم سلطان:

وهؤلاء العبيد لهم في أوطان العرب والمسلمين سلطان أي سلطان. فهناك كثير من الذين يحررون الصحف، ويوجهون برامج الإذاعات و«التليفزيون» والمسارح والسينما، والقنوات الفضائية، ويديرون أجهزة الدعاية والإعلام، ويؤثرون في تفكير المجتمع ومشاعره وسلوكه - من هؤلاء الفاتنين المفتونين، والخادعين المخدوعين.

وكثير من أساتذة الجامعات والمعاهد العليا في بلادنا العربية والإسلامية من هذا الصنف أيضًا.

ومن المؤلم حقًا أن يكون معظم زعماء السياسة ورجال الحكم في العالم العربي والعالم الإسلامي من هؤلاء العبيد، أو من تلاميذهم، فهم بين عبيد لليمين وعبيد لليسار، بين مؤمن بالرأسمالية الليبرالية، وداعية للاشتراكية الثورية.

من أجل هذه العبودية التي نشأ عليها هؤلاء رأينا أكثر حكام المسلمين - كما بينا في الفصل السابق - في شتى بلاد الإسلام يعارضون الحكم الإسلامي، ويقفون في طريق الحل الإسلامي، ويطاردون دعاته،

ويضطهدون أنصاره، ويقفون في وجه الصحوة الإسلامية، وإن اختلفت أساليبهم كمًا وكيفًا في المطاردة والاضطهاد.

ولكن خطر هؤلاء الحكام ليس كبيرًا لو كانوا يعملون وحدهم، فإنهم سيظلون معزولون عن شعوبهم المسلمة، عاجزين عن التأثير في فكرها ووجدانها وإرادتها وسلوكها.

وإنما يتضاعف خطر هؤلاء بمن يفلسف لهم سياستهم، ويبرر لهم طريقتهم، ويزين لهم الاستمرار في طريق «التغريب» أو «التأورب» أو «التأمرك» أو «التمركس» إلى آخر الشوط ونهاية المطاف.

الخطر الحقيقي في قادة الفكر والتوجيه في الجامعات والتربية والتعليم والثقافة والإعلام، الذين يصنعون للشعوب رأيها وذوقها واتجاهها، لا كما تريد هي، بل كما يريد لها أعداؤها الطامعون فيها، الخائفون منها، الحاقدون عليها.

وعلى هذا الصنف تركزت عين الاستعمار في بلادنا، وفي سبيل تكوينه كان تخطيطه وتنظيمه، وتربيته وتعليمه.

أخطر ما صنع الاستعمار:

كان هم الاستعمار الأكبر أن يخلق في كل بلد دخل فيه جيلًا جديدًا يهضم الحضارة الوافدة، ويتقبل الوجود الدخيل، ويبرأ من قديمه الأصيل، الذي لم يكن ينظر إلا به، ولا يفكر إلا على أساسه، وقد كان محور هذا القديم الأصيل هو الإسلام.

كان الاستعمار يريد أن يصنع من أبناء الشرق المسلم جيلًا طيعًا، يلين في

يديه لين العجينة في يد الخباز، جيلًا ينتهج نهجه، ويطيع أمره، وينقاد له مختارًا، ويقول ما قاله أحد وزراء مصر يومًا عن العلاقة بين مصر وبريطانيا: إنه عقد زواج كاثوليكي لا طلاق فيه!

كان الاستعمار يعمل على خلق جيل شرقي الوجه والدم، غربي الذوق والتفكير، يحمل في شهادة ميلاده أو جواز سفره، اسمًا عربيًا إسلاميًا، ويحمل في رأسه عقلًا أوربيًا أو أمريكيًا خالصًا! وكان يريد أن يأتي اليوم الذي لا يظهر فيه على المسرح بنفسه أو بممثليه المباشرين، وأن يدع دوره لوجوه «وطنيه» أو «قومية» تؤدي نفس مهمته، وتسير في نفس طريقه، طريق الهدم بغير فأس، والقتل بغير إطلاق الرصاص! وهذا كان - في الحقيقة - أخطر ما صنع الاستعمار في ديارنا، وما خلف من آثار في أوطاننا.

كان الاستعمار يعمل على أن يقوم بدوره - في التخريب لكيان الأمة المعنوي، ومقوماتها الروحية والخلقية والفكرية - عرب بل مسلمون بالذات، فإن الشجرة - كما قال أحد المبشرين - لا يقطعها إلا أحد أبنائها! ونجح الاستعمار، وتحقق له ما أراد.

تحقق بمن اصطنعهم لنفسه، وصنعهم على عينه، بهؤلاء العبيد من حملة الأقلام، وموجهي الفكر الخاص والرأي العام.

وعرفت ديار الإسلام هذا الصنف «الهجين» من أبنائها الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان بأنهم «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**» فلما قيل له: يا رسول الله،

صفهم لنا قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**»[113].

وهذه هي الكارثة حقًا، كارثة الذين يريدون أن يخلعوا الأمة من دينها، وهم - مع هذا - ليسوا بإنجليز ولا فرنسيين، ولا روس ولا أمريكان، وإنما هم «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»!

هؤلاء الوطنيون القوميون المتغربون من بني جلدتنا هم - في الواقع - أخطر من سادتهم وأساتذتهم وصانعيهم من المستعمرين المكشوفين.

إن الاستعمار على ما له من قدرة وطاقات جبارة، بمن يستخدمه من بني قومه من المبشرين والمستشرقين، ومن على شاكلتهم، لهم أهون خطرًا من هؤلاء العبيد، الذين يتزيون بزي «الأحرار» الثائرين، هؤلاء الأجانب - عن قومهم - الذين يبدون في صورة الوطنيين الغيوريين.

إن ما يصدر عن الاستعمار عن طريق مبشريه ومستشرقيه يظل قليل الخطر، ضعيف الأثر، ما لم يتنبّه هؤلاء العبيد، ويجعلوه - كذبًا - بضاعة وطنية هم أصحابها وصانعوها، وما هم إلا «حمالون» لهذه البضاعة الأجنبية.

---

(113) من حديث حذيفة بن اليمان عند البخاري ومسلم وأوله: كان الناس يسألون رسول الله ρ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، قال قلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير «يعني الإسلام» فهل بعد هذ الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دخن**» أي هو خير غير خالص ولا صاف، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**». قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا ...**» إلخ الحديث.

إن شعوبنا تنفر بطبيعتها من كل ما يصدر عن عدو دينها ووطنها متى عرفت ذلك وأدركته؛ لأنها تعلمت من دينها، وتاريخها وتجاربها أنه لا يضمر لها خيرًا، ولا يريد لها قوة ولارفعة **{مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ}** [البقرة: 105].

ولكن شعوبنا تنخدع بالفكر الدخيل الصادر عن عدوها، إذا جاءها على يد أبناءها الذين أحسنت بهن الظن، إنها تتقبل هذا الفكر المستورد إذا خلع قبعته وزيه الغربي، ولبس الزي الشرقي، ونطق باللسان العربي.

وهذا هو كل ما كان يريده الاستعمار، وما جاهد من أجله، منذ أن احتل أرض الإسلام: أن يرحل هو، ليخلف وراءه من يحمل فكرته، ويتبنى تقاليده وحضارته من أبناء البلاد أنفسهم. ولا ريب أنه الآن سعيد قرير العين بنتيجة ما صنع، وحصاد ما زرع، في السنين الطوال، سعيد بتلاميذه الذين «ترجمهم» ترجمة غربية خالصة كاملة، فأصبحوا نسخًا أجنبية مغلفة بغلاف شرقي عربي.

إن الاستعمار بنوعيه: القديم والجديد، وبجيشيه: المبشرين والمستشرقين، وبشقيه: الرأسمالي والاشتراكي - لم يعد في حاجة إلى أن يترجم كتبه إلى شرقنا الإسلامي، بعد أن «ترجم هذه الطائفة» من أهله، هذه الطائفة «العصرية» «المتحررة» «التقدمية»!.

أجل، لقد نام الاستعمار ملء جفنيه، بعد أن «ترجم هؤلاء»، وتركهم يقودون قافلة التعليم والثقافة والأدب والفن في الطريق الذي رسمه، وإلى الهدف الذي أراده. وما له لا ينام مطمئن الجنب، سعيد الأحلام، وقد غدا

هؤلاء «الكبار» من الكتاب والأدباء «والدكاترة» والموجهين، لسانه الناطق بما يريد، وقلمه المصور لما يحب، بل يده المنفذة لما يود ويشتهي؟!

ومما زاد من خطر هؤلاء العبيد أن الاستعمار قد استطاع بإمكاناته المادية والأدبية، وبوسائله الخفية والعلنية، وبأجهزته الدعائية الجبارة، أن يجعل لهؤلاء العبيد ذكرًا مرفوعًا، وصوتًا مسموعًا، وأن يفتح لهم المغاليق، ويمهد لهم كل طريق، ويزيل من أمامهم كل عقبة، حتى يظهروا ويسودوا ويقبضوا على مقاليد الأمور في ديار الإسلام، وخصوصًا مقاليد الثقافة والفكر والتوجيه والتأثير في كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون.

استطاع الاستعمار المتمكن المقتدر أن يصطنع لهؤلاء دعاية ضخمة أحاطتهم بهالة من الإكبار والإجلال والتقديس، ونفخت فيهم نفخة ضخمتهم وفخمتهم في أعين الناظرين، فجعلت من القط جملًا، ومن الحبة قبة - كما يقول المثل العامي - وأضفت عليهم من نعوت التحرر والتجدد، ومن ألقاب الريادة والقيادة ما خدع بهم الكثيرين، الذين أعجبوا بالدمى العجيبة المتحركة المتكلمة، ولم يلتفتوا إلى الأصابع المستورة أو البطاريات المخبوءة، التي تحركها!

أجل استطاعت الدعاية الدائبة المدروسة المخططة أن تجد سبيلها إلى قلوب الكثيرين من الطيبين المخلصين في شعوبنا الطيبة، فصدقوا ما شاع، ورددوا ما قيل، عن عبقرية هؤلاء المجددين المتحررين! صدقوا أن تحت القبة شيخًا تشد الرحال إليه، وتلتمس البركات بين يديه، بركات العلم والأدب والفن والثقافة العالية!

والحق أن هؤلاء إذا سبرت أغوارهم، وخبرت ما عندهم، لم تجد لهم أصالة ولا ابتكار، ولا شيئًا ذا قيمة حقيقية، يستحق كل هذه الضجة، وكل هذا التهويل، وكل هذا التعظيم والتقديس، وإنما هي الأوهام والأهواء تجعل من الحجارة الصماء آلهة تعبد من دون الله، وتقدم لها النذور والقرابين ... وعلى هذه الطريقة نفسها صنعت «الأصنام الفكرية» في بلادنا، وقام على سدنتها كهان مأجورين مزورون.

ويوم تسترد بلادنا شخصيتها، وتتحرر من بقايا الاستعمار الفكري والاجتماعي، ويكتب تاريخ الفكر فيها من جديد، سيهوى إلى القاع رجال رفعوا إلى القمة، وسترى رجالًا كبارًا - وكبارًا جدًا - قد أصبحوا صغارًا صغارًا، سيستحيل أولئك العمالقة - فيما زعموا - إلى أقزام. ستراهم الأمة على حقيقتهم، أدوات جيدة في يد التبشير والاستشراق، أي في يد الاستعمار، سترى الذين زعموا - أو يزعم لهم - أنهم مجددون! لم يكونوا إلا مقلدين للغرب المستعمر، حذو النعل بالنعل، وأن جديدهم لم يكن إلا قديم أوربا ... وسترى الأمة الذين زعموا - أو زعم لهم - أنهم أحرار الفكر لم يكونوا إلا عبيدًا أقنانًا للحضارة الغربية، يركعون عند أقدامهم، ويسجدون في خشوع لكل ما يصدر عنها من قيم وأفكار، ومفاهيم وتقاليد، بدون تمحيص ولا تمييز «خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب» وأن حرية الفكر التي زعموها لم تكن إلا التمرد على دينهم وتراثهم، والرفض والاحتقار لكل ما استقلت به حضارتهم، أو اختصت به أمتهم.

نماذج وأمثلة - العبيد المكشوفون:

هؤلاء العبيد أصناف وأنواع ... منهم نوع مكشوف القناع، لا يبالي بأن

يظهر عبوديته للغرب، وأن يدعو جهرة إلى تقليده، واتباع خطاه، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، دون حياء من قومه، ولا احتفال بمشاعر الجماهير من أمته.

وقد رأينا هذا النوع قديمًا في مثل أحمد خان في الهند، وضياء كوك ألب في تركيا، وفي مثل سلامة موسى - المسيحي المصري - وجميل المعلوف - المسيحي اللبناني - والدكتور طه حسن، في فترة من الفترات - على تفاوت بينهم - في درجات اللين والعنف في موقفهم من عقائد الأمة.

يقول سلامة موسى في جرأة يحسد عليها: أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوربا، «ومعنى الخروج من آسيا الخروج من الإسلام الذي جاء به النبي محمد من آسيا».

يريد سلامة موسى «حرية المرأة كما يفهمها الأوربي» كما يريد «من الأدب، أن يكون أدبًا أوربيًا 99%» ويريد من التعليم «أن يكون أوربيًا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» بل يقول هذا «المفكر» و«الإنسان» كما سماه بعضهم!!. «إن الأجانب يحتقروننا بحق. ونحن نكرههم بلا حق»[114]!! ويعني بالأجانب الإنجليز المستعمرين لمصر في ذلك الوقت ...

ويقول جميل معلوف في جرأة أشد على مقدسات الأمة بكل طوائفها وأديانها:

«إن خلاص الشرق يتوقف على «تفرنج» الشرقيين بكل معنى الكلمة.

«لا عهدة تربطنا بأسلافنا ... يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس»

(114) من كتاب «اليوم والغد» لسلامة موسى.

«إنني أرى بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيين من الأنبياء»[115]!!!

ويعرض طه حسين لهذا الأمر بأسلوب ألين وأدهى، ولكنه أشد تأثيرًا من أسلوب العنف والإثارة المباشرة، فيرى سبيل النهضة «واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين لنكون لهم أندادًا ونكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب» - «وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوّم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها» ويقول: «فأما الآن - وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا بأنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج - فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوربيين»[116]!! أي أن طه حسين لا يكفيه هنا أن تكون صلة قومه بالأوربيين صلة تعلّم أو اقتباس أو محاكاة، بل المطلوب أن يفنوا في الأوربيين.

عبيد الماركسية واليسار:

ورأينا هذا النوع في الكُتَّاب اليساريين في العالم العربي والإسلامي، أيام سطوة الشيوعية، ونفوذ السوفيت، هؤلاء الذين اتخذوا «الماركسية اللينينية» لهم دينًا، وجعلوا من كتبها مصادر مقدسة لا تضل ولا تنسى، فهؤلاء لا يؤمنون بإله، ولا بوحي، ولا آخرة، ويسخرون من الذين يؤمنون بالغيب،

(115) من كتاب «تركيا الجديدة» لجميل معلوف.
(116) من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» تأليف دكتور طه حسين.

ويقيمون الصلاة، ولا يؤمنون إلا بشيء واحد هو «المادية الجدلية» التي جاء بها معبودهم «كارل ماركس».

فلا يتوقع من هؤلاء إلا أن يعادوا الفكر الإسلامي، والحل الإسلامي، والحركة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، ويقفوا في وجهها بكل ما استطاعوا. في هؤلاء شيوعيون صرحاء جاهروا بشيوعيتهم، وانتمائهم إلى منظمات شيوعية، وآخرون اكتفوا بأن خلعوا على أنفسهم وصف «اليسارية أو الثورية أو التقدمية أو الاشتراكية» وكلهم سواء في موقفهم من فكرة الإسلام، ورسالة الإسلام، ومنهج الإسلام.

الذين يتسترون بالماركسية والثورية:

ومن هؤلاء - والحق يقال - من وجد في «الماركسية» والثورة مخبأ «عصريًا» ممتازًا يلجأ إليه، ويحتمي به، لينفس عن حقد كامن في صدره على أمة الإسلام، وحضارة الإسلام، فهو يرضى «صليبيته» الرقطاء بما ينفث من سموم ضد الإسلام وأهله ودعاته تحت ستار «التقدمية» و«الاشتراكية» كما فعل قبل ذلك إخوان لهم تحت عنوان «الديمقراطية» و«الليبرالية».

فهؤلاء لا يهمهم من الماركسية ولا التقدمية إلا أنها معول جديد للهدم في بنيان الإسلام - فكرته وحضارته وتاريخه - دون أن يوصموا بطائفية أو تعصب ديني، وغير ذلك من العبارات «الرجعية» التي تنافي روح العصر!

ولو كانوا رجالًا يملكون خلق الشجاعة لكشفوا عن دخيلتهم، وأماطوا اللثام عن وجوههم، وخلعوا تلك الملابس «التنكرية» التي يمثلون فيها دور

«التقدميين والثوار» وهم في حقيقة أنفسهم ليسوا أكثر من صبيان للمبشرين واللاهوتيين.

العبيد المقنعون:

ومن هؤلاء العبيد - عبيد الفكر الغربي - صنف مقنع ماكر، لا يصرح بالتبعية كما صرح الأولون، ولكنه يلف ويدور في خبث ودهاء، واضعًا السم في الدسم، متحايلًا على بث أفكاره الدخيلة، ملفوفة بأغلفة من الألفاظ البراقة، والعبارات المائعة، لتعمل عملها في العقول والقلوب، بلا ضجيج ولا إعلان. إنهم يعملون جاهدين لإدخال المفاهيم الغربية إلى ثقافة الأمة، بحيث تتشربها وتتقبلها وتتكيف بها، دون أن تشعر بخطرها ومضادتها لعقيدتها وشريعتها، وذلك مثل مفاهيم الوطنية، والقومية، والحرية الشخصية، وحرية المرأة، ونحو ذلك.

فمفهوم «الوطنية» مثلًا يعني عندهم تأليه الوطن ونقل مشاعر الولاء التي كانت لله تعالى ولرسوله ولدينه، إلى الولاء للوطن وترابه ... فالعمل يجب أن يكون من أجل الوطن، والجهاد أو الدفاع يجب أن يكون في سبيل الوطن، والأمور ذات البال تفتح باسم الوطن، والقسم يجب أن يكون بتراب الوطن. أما الله جلّ جلاله فليس له مكان يذكر في مقالات هؤلاء وكتبهم وأحاديثهم ...

فإن سمح لله بذكر فعلى سبيل الشركة بينه وبين معبودهم الأهم «الوطن» فيمكن أن تقرأ أو تسمع عملًا «لوجه الله والوطن» ودفاعًا «في سبيل الله والوطن» وافتتاحًا لمشروع «باسم الله والوطن» وقسمًا مؤكدًا «بالله والوطن» إلى غير ذلك من العبارات التي حرمها الإسلام وقاومها، لأنها

تشوب ما جاء به من التوحيد الخالص، ولأنها تحمل في ثناياها وثنية خفية، ولهذا جاء في الأحاديث الشريفة: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، «**لا يقل أحدكم باسم الله واسم فلان**»، «**لا يقل أحدكم هذه لله وللرحم**»، أو «**هذه لوجه الله ووجه فلان**» إلى غير ذلك مما نُهي عنه المسلمون.

ومثل ذلك مفهوم «القومية» كما جاءت من الغرب، فهي دين بدل الدين، وإن لم تسم بهذا الاسم.

والكُتَّاب القوميون، منهم من تذهب به الصراحة والجرأة إلى حد إعلان هذه الحقيقة: أن القومية يراد لها أن تكون ديانة إزاء ديانة، وعقيدة تقابل عقيدة، كما قال بعض دعاة «القومية العربية» من العلمانيين الأقحاح بصريح العبارة:

«العروبة نفسها دين عندنا - نحن القوميين العرب، المؤمنين العريقين، من مسلمين ومسيحيين - لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية. مع دعوتها - أي العروبة - إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات»[117].

وبعضهم يؤكد هذه المعاني وإن لم يبرزها هكذا عارية مكشوفة.

وكثير من الكتاب القوميين والوطنيين من هذا الصنف، كما ظهر ذلك في مختلف مجالات الدراسات الإنسانية الأكاديمية، من فلسفة إلى أدب إلى تربية إلى اجتماع إلى اقتصاد إلى قانون إلى تاريخ. إلى غير ذلك من ألوان الآداب والعلوم الاجتماعية، والإنسانية. فجل هذه الدراسات كتب من زاوية النظر

(117) العبارة للأستاذ: علي ناصر الدين.

الغربية، وتحت سلطان المبادئ الغربية، والقيم الغربية. والفكر الغربي، بمدارسه ومشاربه المتنوعة.

ومثل هؤلاء العاملون في ميادين الفن والصحافة والإعلام، فهم يسيرون في نفس الخط، خط الفكر الغربي، وإن كان بعضهم لم يجهروا بذلك أو يتخذوا «لافتة» مصرحة بهذا العنوان.

المحرفون للكلم عن مواضعه:

وأشد هؤلاء العبيد سخفًا: هم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا المفاهيم الغربية، والقيم الغربية، مستترة تحت أسماء إسلامية، وعناوين إسلامية، محاولين أن يتخذوا لهذه الأفكار الدخيلة سندًا من دين المسلمين وتراثهم وتاريخهم، محرفين للكلم عن مواضعه، مبدلين لآيات الله وأحاديث رسوله، وأقوال أئمة المسلمين، على طريق اليهود الذين فضحهم القرآن بقوله: **{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [آل عمران: 78].

هؤلاء العبيد المحرفون إذا واجهتهم النصوص المحكمة من الدين والوقائع الثابتة من تاريخ المسلمين، سلكوا إلى غاياتهم دروبًا ملتوية، وسراديب مظلمة، وأعرضوا عن محكمات الدين والتاريخ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

تجد هذا في مثل قول بعضهم:

«الدين يتفاعل مع الحياة والعلم، ولقد وجدنا كيف أنه كان في العام الواحد

وأحيانًا في اليوم الواحد - ينسخ حكمًا بحكم، ويقيم مبدأ مكان آخر، متبعًا في هذا قانون التطور، وهو التغيير والانتقال من صالح إلى أصلح: **{مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ}** [البقرة: 106]

والكاتب يريد هنا للدين - المتفاعل مع الحياة والعلم - أن يكون خادمًا للماركسية التي تقول بمبدأ «النقيض» - كما يقول أستاذنا الدكتور محمد البهي - وهو مبدأ يقضي بضرورة الانتقال والتغير في الوجود كله، كما يقضي بأن الحالة الجديدة دائمًا أفضل وأصلح من الحالة القديمة للشيء.

ويريد الكاتب أن يتخذ من مبدأ «النسخ» الذي وقع في أول الإسلام في بعض الأحكام وقبل أن تستقر الشريعة، سندًا لمبدأ «النقيض» الماركسي، كما يريد أن يلوي زمام الآية الكريمة ويقهرها على خدمة المبدأ الماركسي، مع أن قوله تعالى: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ}** [البقرة: 106] لا يحتم أن تكون الآية الأخرى أفضل وأصلح من الأولى على الإطلاق، وبذلك لا تنسجم مع المبدأ الماركسي، على فرض أنه يقصد منها ما أراده الكاتب[118].

ونجد هذا اللون في كتاب «الإسلام وأصول الحكم»[119] الذي جاء صاحبه بفكرة غريبة عن الإسلام وتاريخه وأهله، فكرة هدم الخلافة، وفصل

---

(118) انظر: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي (ص371).

(119) مؤلفه علي عبد الرازق، قاضٍ شرعي من علماء الأزهر ومن أسرة عبد الرزاق المشهورة بمصر، وقد أثار الكتاب غضب المسلمين عامة وعلماء الأزهر خاصة، وقد حوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها بالإجماع في 22 محرم عام 1344هـ الموافق 1925/8/12 وهو يقضي بإخراجه من زمرة العلماء، وذلك يوم كان الأزهر أزهرًا، وكان العلماء علماء.

الدين عن الدولة، تلك الفكرة التي استقاها من المستشرقين، وتسولها من التفكير الغربي المسيحي القائم، على شطر الإنسان نصفين: جسم وروح، وعلى قسمة الحياة قسمين: قسم لقيصر وقسم لله.

هذا مع أن الإسلام في شريعته وفي تاريخه كله لم يعرف هذه التجزئة أو القسمة أو المثنوية، لا في الإنسان ولا في الحياة، ولم يقر يومًا هذا الفصام النكد.

الإنسان في الإسلام كما هو في الواقع - الذي يؤيده العلم الحديث - وحدة واحدة غير مجزأة، ولا مشطورة، ولا انفصال بين جسمه، وروحه، فلا معنى لأن يكون هناك جهتان متقابلتان: إحداهما لرعاية جسمه والأخرى لرعاية روحه. والحياة في الإسلام - كما هي في الواقع - وحدة لا تنفصم، يرتبط بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في بعض، فلا مبرر لأن تتوزع شؤون الحياة بين سلطتين مختلفتين: أحداهما توجه الحياة إلى الله، والأخرى إلى قيصر، أي إلى الطاغوت أو الهوى.

إنما الواجب أن توجه الإنسان والحياة سلطة واحدة، وقيادة واحدة، سلطة توجه الإنسان كله، وتوجه الحياة كلها.

والعجب أن نجد المؤلف المستغرب يريد أن يستدل على دعواه المستوردة الدخيلة بمثل هذا الكلام: «القرآن صريح في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا رسولًا قد خلت من قبله الرسل، ثم هو بعد ذلك صريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس وأنه لم يكلف شيئًا غير ذلك البلاغ ... (ص: 37) ثم يقول بلهجة الصوفي

الزاهد:

«والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميات، هي أهون عند الله من أن يبعث لها رسولًا، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لها» (ص: 87).

فيا عجبًا! كأن الله لم ينزل في كتابه أطول آية منه لتنظيم شأن واحد من شؤون هذه الدنيا الحقيرة في نظر الكاتب، وهو كتابة الدَّين وتوثيقه، وهي آية المدينة الشهيرة **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ}** [البقرة: 282] أو كأن الله لم يقل: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى}** [البقرة: 178]. و**{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ}** [البقرة: 216]. كما قال: **{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ}** [البقرة: 183].

لماذا شرع الله «الزكاة» مثلًا وفصل أحكامها وهي من شؤون الدنيا، كما شرع وفصل أحكام الصلاة، وهي من شؤون الدين؟

لماذا فصل الله أحكام المواريث وغيرها وختمها بقوله: **{يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ}** [النساء: 176] سورة النساء: الآية الأخيرة.

ولماذا يذكر القرآن مثل هذا التذييل كثيرًا: **{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ}** [البقرة: 219] و**{وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ}** [البقرة: 221]؟ لماذا علمنا ويبين لنا سبحانه، ولم يدعنا لما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات؟ والعجيب هنا أنه جعل العواطف والشهوات تهدي كما تهدي العقول!!

وإذا كان ما ركب في الناس من عقول كافيًا في تدبير أمر الحياة على ما

يحب الله، فلماذا لم يتركهم لعقولهم؟ ولماذا أرسل الرسل وأنزل الكتب؟ ولم كل هذا الاهتمام بالإنسان، وهو شيء صغير من مخلوقات هذه الدنيا الحقيرة؟

لماذا قال تعالى: **{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ}** [الحديد: 25]. مما دلنا على حاجة الناس إلى ما أنزل الله تعالى، ليهتدوا به في إقامة القسط بين الناس.

ولماذا قال سبحانة لرسوله: **{وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ}** [النحل: 89]. لماذا أنزل كتابه بهذا الوصف: **{تِبۡيَانٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ}** [النحل: 89]. ولم يدعهم لعقولهم تدبر أمرهم وحدها.

هذا هو منطق هؤلاء النفر، الذين يريدوننا أن نطرح شريعتنا، وننكر تاريخنا، وننسلخ من شخصيتنا، ونتنكر لحضارتنا؛ ليرضى عنا السادة الغربيون، ويثنى على «تحررنا» المبشرون والمستشرقون، وينوه بجهودنا التقدميون الثوريون!!

وأعجب ما في هؤلاء المستعبدين للغرب، أنهم يميلون مع الريح حيث مالت، ويدورون مع السلطة حيث دارت، فإن كانت الريح في اتجاه «الديموقراطية» ظلوا يبدئون ويعيدون في ديمقراطية الإسلام، والحديث عن سلطة الأمة، ومبدأ الشورى في نظام الإسلام.

وإن كانت الريح في اتجاه «الرأسمالية» ألبسوها جبة وعمامة، وركزوا حديثهم عن الحرية الاقتصادية والملكية الفردية في الإسلام، وتفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، ووقفوا يتمحلون ويتأولون آيات تحريم الربا وأحاديثه، ليبرروا جور الرأسمالية وفسادها.

فإذا كسدت سوق الرأسمالية، وراجت بضاعة الاشتراكية انتقلوا، ونقلوا معهم الإسلام - المفترى عليه - بسرعة وخفة، من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ومن اليمين إلى اليسار، وفرخوا فتاوى جديدة، ليسوغوا بها مصادرة الأموال وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

وهكذا يريد هؤلاء أن يجعلوا الإسلام - حيث جعلوا أنفسهم - عبدًا خادمًا للسلطة والقوة، وتابعًا يسير في ركاب الدولة الغالبة، مهمته أن يبارك ما تصنع، ويؤيد ما تتخذ من خطوات.

والإسلام شأنه أن يقود لا أن يقاد، وأن يسود لا أن يُساد، لأنه كلمة الله، وكلمة الله هي العليا أبدًا.

ببغاوات تدعي الثقافة:

والعجيب أن عبيد الفكر الغربي يدعون سعة الثقافة وغزارة المعرفة، ورحابة الأفق، ويسميهم الناس - ويسمون أنفسهم - «مثقفين» وربما أضيف إلى بعضهم لقب آخر، فسموا «مثقفين ثوريين» وهم مع هذا لا يعرفون شيئًا صحيحًا عن الدين الذي ينتسبون إليه أو - على الأقل - تنتسب إليه شعوبهم، وعاش به ومات عليه آباؤهم وأجدادهم. ولا أدري كيف يعد المرء «مثقفًا» وهو أجهل الناس بدين قومه وحضارة أمته، وتراثها الفكري والروحي الذي يعطيها مشخصاتها ومقومات وجودها؟

وكل ما يعلمه هؤلاء «المثقفون» عن الإسلام وحضارته، أشياء تافهة أو مشوهة أو محرفة، لقنها لهم سادتهم وأساتذتهم المستشرقون والمبشرون بالنصرانية أو الماركسية، فآمنوا بها قضايا مسلّمة لا تقبل الريب أو الجدل،

فهم في الحقيقة ببغاوات لا تجيد غير الترديد والمحاكاة لما تلقنه من أقوال وأفكار، غير أنها - والحق يقال - تفوق الببغاوات بقدرتها على ترجمة تلك الأقوال والأفكار من لغتها الأجنبية إلى لغتها القومية، وبالجرأة في تبني تلك الأفكار الدخيلة، وإنكار نسبها إلى آبائها الأصليين!

ما فكرة هؤلاء عن الدين؟

إن الدين عندهم عدو للحياة والتقدم، عدو للعلم والفكر، عدو للحرية وللطبيعة، عدو للإنسان وسعادة الإنسان.

والدولة عندهم يجب أن تنفصل عن الدين، حتى لا يعوق سيرها، ويعرقل تقدمها، ويفسد خططها برجال كهنوته.

فليا عجبًا ... عن أي دين هؤلاء يتكلمون؟ إنهم قرأوا وسمعوا هذه العبارات عن الدين هناك - في الغرب - فرجعوا يرددونها بعينها «هنا» في الشرق المسلم، والدين هنا غير الدين هناك، وتاريخ الدين ورجاله هنا غير تاريخه ورجاله هناك، بل الإله الذي نؤمن به هنا غير الإله الذي كفر به القوم هناك.

فإذا قلنا لهم: يا قوم: إن الإسلام غير المسيحية، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت، والقرآن غير الكتاب المقدس، فغروا أفواههم دهشًا، أو لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون!

نموذج مجسد لهذه الصفات:

لنستمع إلى أحد هؤلاء، يقول محرضًا على عقيدة الإسلام، وفكرة الإسلام ... إنه يقرر في جرأة متحدية لعقائد الأمة ومشاعرها، استنادًا إلى قوة الغرب

الذي صنعه على عينه هناك، وبعثه لتخريب أوطانه هنا[120].

«إنه منذ مائتي عام أدرك الثوريون في الغرب أن الثورة تعني تحرير المجتمع من الدين، ولكن الفكر العربي الثوري لا يزال يتجاهل هذا الواقع تجاهلًا تامًا!

«في بداية العهد الثوري الجديد - بداية الثورة الفرنسية - حدد «بريسو» هذا الطابع الثوري العام، عندما وقف في الجمعية العامة، وأعلن: إن عدونا الأول ليس الأرستقراطية، وليس الملك، وليس الكنيسة. بل هو - أولًا - الدين الذي يقف وراء الملك والأرستقراطية، وفي اجتماع شعبي عام أثناء تلك الثورة أخذ «شاليه» الصليب وداسه في الأرض، وصرخ في الجماهير: «إن الاستبداد بالجسد قد تكسر، والآن يجب أن نحطم الاستبداد بالأرواح»[121].

ألست تعجب معي أيها القارئ الحر من هذه الحيثيات والأسباب التي يقدمها الكاتب التقدمي، لتجريد المجتمع العربي من دينه - الإسلام - والحكم عليه بالإعدام؟!

إن هذا الكاتب الثوري يطالبنا أن نطرد كل أثر للدين في حياتنا، وكل

---

(120) إنه دكتور «نديم البيطار» الذي عرّف نفسه على غلاف كتابه «الفعالية الثورية في النكبة» بأنه تلقى علومه العالية في فرنسا والولايات المتحدة وحاز أكثر من دكتوراه في العلوم الاجتماعية والسياسية، ثم قام بتدريس هذه العلوم خلال سنوات ست في جامعات الولايات المتحدة، وكندا، وقد عاد إلى لبنان ليتفرغ للنتاج الفكري و«النتاج الفكري» معناه: تخريب مقومات الأمة العربية خدمة للصهيونية والصليبية والشيوعية الدولية.

(121) (ص158) من كتاب «من النكسة إلى الثورة» لنديم البيطار، وهو أسوأ كتاب صدر بعد نكبة يونيو حزيران 67 وقد رد عليه «جلال كشك» في كتابه «النكسة والغزو الفكري».

حجته: أن الثوريين في الغرب فعلوا ذلك منذ 200 سنة!!

وأي سلطة تستطيع أن تلزمنا بوجوب اتباع الثوريين في الغرب، وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا؟!

ثم أي منطق هذا الذي يجتر أفكار الملحدين في القرن الثامن عشر، ويدعو إليها ويعتبرها وحيًا معصومًا، وهو الذي يزعم التحرر والتقدمية، جاهلًا أو متجاهلًا، أن الغرب نفسه بات ينقد تلك الأفكار، ويتحرر منها؟

أجل، أصبحت الكثرة من علماء الغرب ومفكريه وزعمائه، ينادون بالعودة إلى الإيمان، ويرفضون المذهب المادي الذي لقى رواجًا في القرن الثامن عشر في أوربا، لظروف تخص القوم هناك.

يقول أشهر العلماء بالكون وظواهره في عصرنا «أينشتين»:

«إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي، وأبل حافز»[122].

«إن الدين عامل من عوامل التقدم، وإنه قوة روحية خلاقة لتغيير المجتمع، وإيجاد جمعية إنسانية متآخية»[123].

ومما نقل إلى العربية من الكتب الغربية التي تنقض المادية وتتجه إلى الدين، ثلاثة كتب قيمة:

أولها: كتاب «الإنسان لا يقوم وحده»[124]، للعلامة أ. كريسي مورسون

---

(122) كتاب «مع الله في السماء» للدكتور أحمد زكي.

(123) كتاب «الإنسان العقائدي» للأستاذ حمدي حنبل.

(124) ترجم إلى العربية بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك، والذي نقض فيه كتاب المادي الملحد «جوليان هكسلي»: «الإنسان يقوم وحده» أي بدون حاجة إلى إله!

وثانيها: كتاب «الله يتجلي في عصر العلم» وهو مجموعة مقالات قيمة لثلاثين عالمًا أمريكيًا في مختلف التخصصات العلمية والإنسانية، بين كل منهم في مقاله كيف اهتدي إلى الله عن طريق علمه.

وثالثها: كتاب «العودة إلى الإيمان» ومؤلفه الدكتور «هنري لنك» أحد أفذاذ الطب النفسي في أمريكا. وقد طبع هناك في مدة غير بعيدة 47 «سبعًا وأربعين طبعة».

لماذا إذن يبرز هؤلاء الوجه الإلحادي في الغرب دون الوجه الآخر؟

أليس في الغرب - إلى اليوم - «أحزاب مسيحية» تتبعها وتؤيدها جماهير غفيرة من المواطنين هناك؟ في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا وغيرها، وقد تولى بعضها الحكم أكثر من مرة؟

أليس للبابا مكان مرموق، ولكلمته أثر عميق؟ كما تجلى ذلك في جولات البابا الحالي «يوحنا بولس الثاني».

أليس كثير من دول أوربا ينص في دستوره على المذهب الذي تعتنقه، فضلًا عن الدين؟

أليست فرنسا حامية الكثلكة؟ وأمريكا حامية البروتستانيتة؟

أليس لدول أوربا وأمريكا جيوش من المبشرين[125] يعملون باسم المسيح

(125) قدرتهم أحدث الإحصاءات بنحو (4750000) «أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفًا» من المبشرين والمبشرات.

في أفريقيا وآسيا، وغيرهما من قارات العالم؟

ألـيس هنـاك «مسـيحية أصـولية» نشـطة متحمسـة مسـاندة للصـهيونية وأهدافها، نراها في أمريكا خاصة وفي الغرب عامة؟

ثم ما قول هؤلاء في مثل صارخ قريب يصم آذانهم؟ إنه «إسرائيل» التي هزمت جيوش مجموعة من الدول الثورية العربية المتحررة! في أيام، بل في ساعات، وللدين في إسرائيل - قبل قيامها وبعد قيامها - مكان أي مكان.

ثم نعود إلى منطق الكاتب الثوري التقدمي ومغالطاته، إلام يدعو بمنطقه «العلمي»؟! اسمعوا واحكموا.

يجب أن يعدم الإسلام في الشرق، من أجل جرائم المسيحية الكاثوليكية في الغرب.

الدين هناك وقف وراء الأرستقراطية والملوك ضد الشعوب والمظلومين، واعتبر إرادة الملك - مهما يكن ظالمًا - من إرادة الله، كما اعتبر معارضة الملك خطيئة ومروقًا من الدين!

ولكن الدين هنا يقول: **{وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ}** [هود: 113]، مجرد الركون والميل إلى الظلمة ينهي عنه كتاب الإسلام، ويجعله من موجبات العذاب! ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[126].

---

(126) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي بكر، كما في «صحيح الجامع الصغير» (1973).

«إذا رأيت أمتي تهاب، فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منهم»[127].

الدين عندنا يحرض الأتباع المستضعفين على التحرر من التبعية، والخضوع للسادة الكبراء، ويحملهم تبعة الخضوع الذليل في الدنيا والآخرة **{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ 66 وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ 67 رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}** [الأحزاب: 66 - 68].

الدين عندنا يعلم المسلم أن يقول في قنوته مناجيًا ربه إذا أوتر آخر صلوات يومه، ما رواه ابن مسعود مرفوعًا: **«نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك»** بهذه العبارة القوية **«نخلع ونترك من يفجرك»؟**

لقد أعلن الثوار في فرنسا تحطيم الاستبداد بالأرواح، كما كسروا الاستبداد بالأجسام، وثاروا على الطبقة الكهنوتية، التي كانت تحتكر الوساطة بين الله وعباده، وتبيع الجنة والمغفرة لمن شاء، وتحرم منها من تريد. فما ذنب دين ليس فيه كهنوت ولا سماسرة بين الله وخلقه؟ ويستطيع كل مؤمن أن يلج باب الله بغير حاجة إلى كاهن ولا حاجب ولا بواب؟ **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}** [البقرة: 186].

لقد داس الثوار «الصليب» رمز الاستبداد بالأرواح، فما ذنب دين لا صليب فيه، ولا استبداد بالأرواح؟

قال أحد الثوار هناك: «لقد بكى الشعب طويلًا على إلهه، وآن له أخيرًا أن يبكي على نفسه! فما ذنب دين لم يقتل إلهه، ولم يصلب، ولم يبك عليه أحد؟!

(127) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن عمرو (97/4).

كيف يراد منا أن نتخلى عن ديننا من أجل أخطاء دين آخر؟!

كان شعار الدين هناك: اعتقد وأنت أعمى! وشعار الدين عندنا: **{قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}** [النمل: 64].

كان نداء رجال الدين عندهم: أغمض عينيك ثم اتبعني! ويقول المحققون من علمائنا: إن إيمان المقلد غير معتبر ولا مقبول، لأن التقليد لا يخرج المؤمن من الجهل إلى العلم، إذ العلم هو معرفة الحق بدليله، حتى يكون على بصيرة من أمره، وعلى بينة من ربه.

قال الإمام ابن الجوزي[128]: «إن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، وقبيح بمن أعطى شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة»!

كان من أشهر الحِكَم عندهم: الجهالة أم التقوى! وكان من أشهر الأحاديث النبوية عندنا **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**[129] وأجمع علماؤنا أن المراد بالمسلم هنا: الإنسان المسلم، سواء كان ذكرًا أو أنثى.

المسيحية والعلم:

لقد ذكر الكاتب التقدمي نفسه في كتاب آخر له موقف المسيحية من العلم

---

(128) في كتاب «تلبيس إبليس».

(129) رواه ابن ماجه وابن عبد البر والبيهقي وغيرهم عن أنس، ورمز له السيوطي في «جامعه» بعلامة الصحة، كما رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب» عن أبي سعيد، وروي أيضًا من حديث ابن عباس وابن عمر وعلي وابنه الحسين رضي الله عنه. وصححه الألباني في تخريج أحاديث كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام».

والبحث العلمي فقال:

«جمدت المسيحية النشاط العلمي وألغته في القرون الوسطى، واستمرت تعثر تقدمه، وتحول دونه، حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر».

«إن الكنيسة - كاثوليكية وبروتستانتية - حاربت كل علم باسم سلطة التوراة المعصومة من الخطأ، لأن العلوم تلك كانت تحمل دائمًا نتائج لا تنطبق مع تعاليم التوراة. فالكنيسة مثلًا حاربت الطب حربًا عنيفة، لأن أمراض الإنسان لا تأتيه من أسباب ترجع إلى طبيعته، بل هي من عمل الشيطان ولهذا، فإن معالجتها، من أوجستين إلى لوثر، وجب أن تعتمد على طقوس الكنيسة».

«وكانت الكيمياء أيضًا عملًا شيطانيًا، فكان من يعمل بها أو في الطب، معرضًا لتهمة السحر».

بيَّن «أندروهوايت» في دراسته الكلاسيكية في تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت في المسيحية: أن رجال الدين حاربوا كل خطوة تقدمية في العلم والبحث العلمي أثناء التسعة عشر قرنًا الماضية».

«كانت الكنيسة في كثير من الأحيان - وخصوصًا في القرن الرابع عشر تأمر بحرق كل ما كتب في اللغات المحلية باعتبارها خارجة عن الدين. لم تقتصر الحرق على الكتب، فمن حرق «هوس» ورفاقه إلى حرق «برونو» جعلت الكنيسة - حسب قول جورج - النيران تأكل زهرة علماء المسيحية»[130].

(130) عن كتاب «الأيديولوجية الانقلابية» لنديم البيطار (ص493، 494).

هذا هو موقف المسيحية الغربية من العلم والعلماء، من الطب والكيمياء، وغيرها من العلوم التجريبية، كما ذكره الكاتب التقدمي نفسه، وكما أثبته غيره من المؤلفين في الشرق والغرب. فأين هذا من موقف الإسلام؟!

موقف الإسلام من العلم:

لقد اعتبر رسول الإسلام التجربة هي الفيصل في الأمور الدنيوية الفنية، كالزراعة والصناعة والطب ونحوها. وجاء في ذلك حديثه المشهور: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[131] وذلك بعد أن أبدى لأصحابه رأيًا خاصًا في تلقيح النخيل، فسارعوا إلى تنفيذه يحسبونه جزءًا من الدين، فكانت النتيجة على غير ما يحبون، فقال لهم: «**إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذوني بالظن أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

وفي الطب نجد أنه صلى الله عليه وسلم تداوى، وأمر بالتداوي[132] وأرسل طبيبًا إلى أبي ابن كعب[133] يقطع له عرقًا وكواه عليه، أي أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتي الحارث بن كلدة، الطبيب العربي المشهور من ثقيف[134].

---

(131) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث عائشة وطلحة.

(132) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (10/4) طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

(133) رواه «مسلم» من حديث جابر برقم (2207).

(134) رواه أبو داود في الطب (3875) عن سعد، قال: مرضت مرضًا أتاني رسول الله ρ يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: «**إنك رجل مفؤود**» «أي مصاب في فؤادك، ولعله مصدور، كنى بالفؤاد عن الصدر» **ائت الحارث ابن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب**».

وأصيب أحد أصحابه بجرح، فاحتقن الدم، فدعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيكما أطب؟**»، فقال: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «**أنزل الدواء الذي أنزل الداء**»[135].

قال ابن القيم: «في هذا الحديث أنه ينبغي في كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب»[136].

وكانت الفكرة السائدة عن الناس حينئذ أن العلاج وطلب التداوي، وتعاطي الطب ينافي التدين أو التوكل أو الإيمان بالقدر. كما يبدو ذلك من جملة روايات وأحاديث.

فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم دخل على مريض يعوده، فقال: «**أرسلوا إلى طبيب**»، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم. إن الله لم ينزل من داء إلا أنزل له شفاء**»[137].

وفي هذا المعنى جاءت عدة أحاديث صحيحة، كقوله - فيما رواه مسلم: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل**»[138].

وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «**نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**»[139] أي الشيخوخة. وفي حديث آخر: «**إن الله لم ينزل دواء إلا**

---

(135) رواه مالك في «موطئه» عن زيد بن أسلم، وهو مرسل.

(136) «زاد المعاد» (132/4).

(137) «زاد المعاد» (133/4).

(138) رواه مسلم عن جابر برقم (2204).

(139) رواه أحمد وأصحاب السنن، وابن ماجه، والحاكم عن أسامة بن شريك، كما في

أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»[140].

ولما سأله بعضهم: هل ترد الأدوية قدر الله؟ أجابه أبلغ جواب وأروعه وأحسمه فقال: «**هي من قدر الله**»[141] أي أن الأسباب من قدر الله وكما أن المسببات كذلك.

وبهذا الجواب حل العقدة التي تعرض لكثير من المتدينين من قديم، حيث يظنون أن في التداوي منافاة للإيمان بقدر الله.

وأبطل اللجوء إلى السحر والسحرة والدجالين، واستعمال التمائم ونحوها، وجعل ذلك من أنواع الشرك، كما حذر من أدعياء الطب الذين يدعون المهنة، وليسوا من أهلها، وحملهم تبعة خطئهم في التشخيص والعلاج فقال: «**من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن**»[142].

وقد كان للطب في الحضارة الإسلامية شأن أي شأن، فكان هناك أطباء عالميون مثل الرازي وابن سينا والزهراوي وابن رشد وابن النفيس، وكانت كتبهم الطبية مراجع للعالم لعدة قرون، مثل «القانون» لابن سينا، و«الحاوي» للرازي، و«الكليات» لابن رشد.

والعجيب أن نجد في هؤلاء من جمع بين الإمامة في الدين والإمامة في الطب مثل ابن رشد، والفخر الرازي، وابن النفيس.

= «صحيح الجامع الصغير» رقم (2930).

(140) رواه الحاكم عن أبي سعيد، المصدر السابق (1809).

(141) رواه أحمد والترمذي من حديث أبي خزامة أو ابنه.

(142) رواه أبو داود» والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمر، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (6153).

هذا بالنسبة للطب. أما بالنسبة لسائر العلوم فقد طلب المسلمون العلم في كل صقع من الأرض، واشتهر فيهم القول «اطلبوا العلم ولو بالصين» حتى جعله بعضهم حديثًا[143]، وانتفعوا بالتراث العلمي للأمم السابقة، وإن حكموا عليها بانحراف العقيدة، وضلالة الديانة، عملًا بما روي عن رسولهم: **«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»**[144]. بل علمهم أن الحكمة يمكن أن تؤخذ من الشيطان نفسه، كما في حديث النبي لأبي هريرة: **«صدقك وهو كذوب»**[145].

فسح الإسلام صدره للحكماء والمفكرين من كل جنس، وفتح ذراعيه للعلماء والمجربين من كل ملة، لهذا اشتهر في تاريخ المسلمين عدد غير قليل من الأطباء والتجريبيين من اليهود والنصارى كانت لهم حظوة عند الخلفاء ورجال الدولة[146].

ولم يعرف تاريخ الإسلام صراعًا بين العلم والدين، أو بين الشريعة والحكمة، أو بين العقل والنقل. بل أكد علماؤه: أن النقل الصحيح لا يمكن أن يخالف العقل الصريح، وأن العلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا يمكن أن يتناقضا إلا إذا كان ما ظنه الناس دينًا ليس من الدين الصحيح، أو ما ظنوه علمًا ليس من العلم الصريح[147].

---

(143) رواه ابن عبد البر في كتاب «العلم» والصواب أنه ليس بحديث.

(144) رواه الترمذي وابن ماجه. وهو ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

(145) رواه البخاري في «صحيحه». وانظر: كتابنا «ثقافتنا بين الانحراف والانغلاق».

(146) اقرأ في ذلك «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» للشيخ محمد عبده.

(147) ألف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه «درء تعارض العقل والنقل» الذي نشر قريبًا بعنوان «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول».

ومن هنا كانت حضارة الإسلام هي الحضارة الوحيدة التي جمعت بين العلم والإيمان، ولم تجد أي حرج في الجمع بين نظرات العقل، وإشراقات القلب.

وهذا ما شهد به كثير من مؤرخي الغرب ومفكريه المنصفين.

يقول المستشرقان: بترانت وتومس في كتابهما «العرب»:

«إن الإسلام لم ينابذ التقدم، بل سار جنبًا إلى جنب مع العلم، وإنَّ تقدم حضارته يرجع إلى ملازمته للعلم»[148].

وينقل توماس أرنولد في كتابه: «الدعوة إلي الإسلام» عن البروفسور مونتيه قائلًا:

«الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تفهم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق - ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. والحق أن محمدًا الذي كان متحمسًا لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ونار الاقتناع - تلك الصفة التي بثها في كثير من أتباعه - قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام. على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلاقات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل ... وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام».

---

(148) انظر كتاب «الإنسان العقائدي» (ص188) للأستاذ حمدي حنبلي.

ونحن نرفض - قطعًا - كلم مونتيه عن الوحي المحمدي، ولسنا في مجال مناقشته هنا، ولكن الذي يهمنا الاستشهاد به في هذا الموطن هو اعترافه الجازم بأن دين الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة. وإنه مجموعة عقائد قامت على أساس المنطق والعقل، مما يرد بوضوح على أولئك الذين يحسبون الإسلام مسيحية أخرى، قامت على أساس التقاليد ورفض العقل والتفكير.

وقد كتب كثير من الغربيين بحوثًا ضافية، وألفوا كتبًا كاملة، في مكانة العلم والعلماء، في الحضارة الإسلامية، وعن تأثير ذلك في نهضة الغرب وحضارته، ولعل أقرب ما طالعناه في هذا الشأن، كتاب المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكه» التي سمته «شمس الله تسطع على الغرب» وعُرِّبَ تحت عنوان «شمس العرب تسطع على الغرب».

فإن كان هؤلاء التقدميون لا يقنعهم إلا ما جاء عن الغرب، فهذه شهادة الغربيين!

هذا وقد كتبنا في هذا المجال عدة كتب: «الرسول والعلم»، و«العقل والعلم في القرآن» ... «السنة مصدرًا للمعرفة والحضارة»، «الدين في عصر العلم» فليرجع إليها من شاء ...

المسيحية والحياة:

ولقد ذكر هذا التقدمي سر موقف الثوريين والانقلابيين في الغرب ضد الدين منذ الثورة الفرنسية بهذه العبارات:

«فإن المجتمع يحتاج إلى حيوية ونشاط وفضائل اجتماعية، ولكن الدين

يبشر - على نقيض ذلك - بتقشف كبير، وبحياة أخرى تلغي أهمية أو قيمة هذه الحياة. جميع تعاليمه تتناقض مع تعاليم العقل والعلم، وتفرض على الإنسان أن يعمل في سبيل نجاة روحه في الدنيا والآخرة. وبذلك تنقض فروض طبيعته، الإنسانية التي تلزمه بالحياة الأرضية.

وهو يقف بأخلاقياته مؤيدًا للمصالح الاستبدادية الأنانية التي تضر بمصلحة المجتمع كله، أكد الفلاسفة جميعهم تقريبًا - وفي طليعتهم هو بساخ، وفولتير، ومورلي زمابلي، وروسو وكوند ورسه، وديدرو - على هذه الناحية، وبعضهم - كفولتير - تكلم في الواقع عن مؤامرة ضد المجتمع استخدمت الدين كي تحقق أغراضها.

كأن الدين، مؤامرة جافة صفيقة، لدرجة يصعب عندها إدراك ظهروه أو استمراره في التاريخ، يعيش أشد أنواع الاستبداد، استبداد الكهنة والملوك»[149]

هذا الكلام - على ما فيه من غلو وتحامل ضد المسيحية نفسها - هو أبعد ما يكون عن الانطباق على حقيقة الإسلام وتاريخه.

الإسلام والحياة:

لم يدع الإسلام إلى التقشف والإعراض عن الطيبات، ولم يلغ أهمية الحياة أو قيمتها، بل أنكر بشدة على الذين يحرمون زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وقاوم بقوة نزعة بعض المسلمين إلى التشدد والتقشف اقتداء برهبان النصارى ومن على شاكلتهم، وأنزل في ذلك: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ**

(149) «الأيديولوجية الانقلابية» لنديم البيطار (ص737).

ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ 87 وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ} [المائدة: 87، 88].

كما أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على الذين اعتزلوا الحياة صائمين قائمين مترهبين، قائلًا: «**إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، وأنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[150].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، مُثُلًا حية للجميع بين العمل الدائب للدنيا والإقبال الكامل على الآخرة. فلم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم تعقهم آخرتهم عن عمارة دنياهم. حتى جاء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها**»[151].!!

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، ولن ينتفع بها أحد، لا هو ولا غيره، إنه تعبد بالعمل، وتكريم للعمل ذاته، ليظل المسلم منتجًا معطاءً، حتى آخر رمق في الحياة.

وليس في تعاليم الإسلام حكم واحد يناقض العقل والعلم، كما بينا، فضلًا عن أن تكون جميع تعاليمه كذلك. وإذا كان يفرض على الإنسان العمل لنجاة روحه، فهو لم يغفل دعوته إلى العمل لصحة بدنه وقوته، وسعادة دنياه، فأعلن رسوله «**إن لبدنك عليك حق**»[152] وكان أكثر دعائه عليه الصلاة

---

(150) الحديث متفق عليه عن أنس.

(151) رواه أحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد» عن أنس.

(152) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

والسلام ما جاء في القرآن: **{رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}** [البقرة: 201].

إن الإسلام لم يعاد الحياة المادية، ولم يلغ قيمة الحياة الأرضية، كما فعلت أديان أخرى. وكيف يعادي الحياة دين يبيح المحظورات عند تحقق الضرورات، ويسقط الفرائض أو يخففها عند وجود الأعذار المادية من المرض والسفر والمشقة ونحوها؟

هل يوصف بإلغاء الحياة الأرضية دين كان أبرز الصفات التي وصف بها نبيه عند أهل الكتاب أنه: **{يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** [الأعراف: 157].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يأمر بإعداد أقصى المستطاع من القوة، وأخذ الحذر والاحتياط واتخاذ الأسباب، ورعاية السنن الكونية، وتجنب ما يؤدي إلى الضرر والهلاك؟ فتقرأ في كتابه مثل هذه الآيات: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}** [الأنفال: 60].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ} [النساء: 71]

{وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ} [البقرة: 195]

{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: 29]

{وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا} [النساء: 5].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يقول نبيه: «**نعم المال الصالح للرجل**

الصالح»[153]، **«إن الله جميل يحب الجمال»**[154]، **«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**[155]؟؟

هل يوصف بإلغاء الحياة دين قامت شريعته على درء المفاسد عن البشر، وتحقيق المصالح لهم. سواء كانت تلك المفاسد مادية أم معنوية، واقعة على الفرد أم على الجماعة. وسواء كانت هذه المصالح البشرية، حاضرة أم مستقبلة، وسواء أيضًا أكانت من الضروريات أم من الحاجيات أم من التحسينات والكماليات.

والضروريات هي الكليات الخمس التي لا تقوم الحياة إلى بها، وهي - كما ذكر أئمة الأصول - حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل. وأضاف بعضهم إليها: العرض.

وهذه الضروريات الخمس أو الست هي مناط الحقوق الرئيسية للإنسان:

فحفظ الدين معناه: حفظ العقيدة والعبادة والقيم الأخلاقية، وحق الإنسان في الإيمان والتدين، وعدم إكراهه على دين لا يختاره طائعًا.

وحفظ النفس معناه: حفظ حق الحياة للإنسان وحقه في صحة بدنه، وفي تغذيته إذا جاع، وعلاجه إذا مرض، وراحته إذا تعب، والقصاص إذا اعتدي عليه.

---

(153) رواه أحمد» وأبو يعلى عن عمرو بن العاص، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (352/9، 353): رجالهما رجال الصحيح، كما رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.

(154) رواه مسلم عن ابن مسعود.

(155) رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن. وهو كذلك في «صحيح الجامع الصغير» (1887).

وحفظ العقل معناه: حماية حق التعلم والثقافة وحرية الفكر والنظر.

وحفظ المال معناه: حماية حق الملكية المشروعة من كل عدوان بالباطل.

وحفظ النسل معناه: حماية الأمومة والطفولة والأسرة التي هي نواة المجتمع وأساس بنيانه.

وحفظ العرض معناه: حماية حق الكرامة والسمعة.

والإسلام لا يقف - ولم يقف - بأخلاقياته مؤيدًا للمصالح الاستبدادية الأنانية. إنه يربي أبنائه على مناوءة الاستبداد والانحراف والفساد، بالقوة المادية إن استطاعوا، وإلا فبالرأي والكلمة، ويعد ذلك من أفضل الجهاد: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[156]، **«سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[157].

فلم يقصر الجهاد على محاربة الغزو الخارجي، بل جعل أفضله مقاومة الفساد الداخلي، فإنه أشد ضررًا على الأمة من غزو العدو الخارجي، وهو الذي يمهد له، ويجعلها فريسة سهلة المنال لأعدائها المتربصين بها.

فلا عجب أن كان الطابع العام لموقف علماء الإسلام طوال تاريخه هو الوقوف في وجه الظلمة المستبدين المترفين من الملوك والحكام. ومنهم من عانى في سبيل ذلك السجن والاضطهاد، ومنهم من حمل السلاح، مقاتلًا للطغاة والمستكبرين.

---

(156) رواه أحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي في «الشعب» عن أبي أمام، وأحمد والنسائي في «الشعب»، والبيهقي عن طارق بن شهاب، وابن ماجه عن أبي سعيد، وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (1100).

(157) رواه الحاكم والضياء عن جابر، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (3675).

أما استبداد الكهان فلم يعرفه تاريخ الإسلام، لأن هذه الطبقة لم توجد فيه أصلًا، فإذا كان الثوريون في الغرب منذ الثورة الفرنسية وقفوا ضد الدين هناك - لأنه يدعو إلى تقشف كبير، ولأنه يلغي أهمية هذه الحياة، ولأن تعاليمه الكنسية تناقض العلم والعقل كما تناقض الطبيعة الإنسانية، ولأنه يقف بأخلاقياته مؤيدًا للمصالح الاستبدادية: استبداد الملوك واستبداد الكهان - فما حجة الثوريين في أوطاننا لكي يقفوا ضد دين يحترم الحياة، ويعترف بفطرة الإنسان، ويهتم بالدنيا، ويدعو إلى العقل والعلم، ويحث على الغنى والقوة، ويجعل مقاومة الظلم والاستبداد من أجلّ أنواع العبادة والجهاد؟

إننا ندعو هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم الثقافة الواسعة أن يقرأوا ما كتبته الأقلام المؤمنة الواعية الأصيلة المعاصرة عن الإسلام، عقيدة وشريعة وفكرًا وأخلاقًا حضارة متكاملة؛ من عصر الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا إلى اليوم.

أجل نحن ندعو هؤلاء أن يدرسوا الإسلام، حتى لا يتهوروا في الحكم عليه بأحكام خاطئة جاهلة، لا تمت لحقيقته بنسب ولا سبب، كهذا الذي قال في غرور وادعاء، طاعنًا في نظام الإسلام: «الاشتراكية نظام لا يقوم على الإحسان والزكاة، بل يقوم نفسه نتيجة حتمية طبيعية لطبيعة المجتمع الحديث، وطبيعة القوانين التي تسود تحولاته»[158].

وبغض النظر عن «الكليشهات» الماركسية، عن الحتمية والمجتمع الحديث وتحولاته - هل نجد في هذه العبارة أي فهم لنظام الإسلام وموضع الزكاة منه؟ لا، ثم لا.

(158) عن كتاب «من النكسة إلى الثورة».

ومنذ سنوات كتب كاتب اشتراكي تقدمي آخر: إن الزكاة لا تصلح في مجتمع عصري يقوم على العمل والإنتاج، لا على الصدقات».

هؤلاء الكتاب لقنوا أن الزكاة الإسلامية ضرب من الصدقات الاختيارية، والإحسان الفردي، فراحوا يرددون ما قيل لهم، دون أن يجشموا أنفسهم قراءة كتاب واحد في الموضوع.

ولست في مقام الرد على هؤلاء وبيان حقيقة الزكاة، فلهذا مجال آخر[159]، ولكني أكتفي هنا بنقل نص واحد من كتبنا الفقهية القديمة الشهيرة، نستبين منه طبيعة الزكاة في الإسلام، وهذا الكتاب هو «المهذب» للشيرازي وشرحه «المجموع» للنووي.

يقول الكتاب: «ومن وجبت عليه الزكاة وقدر على إخراجها لم يجز له تأخيرها، لأنه حق يجب صرفه إلى الآدمي، توجهت المطالبة بالدفع إليه، فلم يجز له التأخير، كالوديعة إذا طالب بها صاحبها ... فإن أخرها وهو قادر على أدائها ضمنها، لأنه أخر ما يجب عليه مع إمكان الإداء، فضمنه كالوديعة ... ومن وجبت عليه الزكاة وامتنع من أدائها نظر: فإن كان جاحدًا لوجوبها فقد كفر، وقتل بكفره كما يقتل المرتد، لأن وجوب الزكاة معلوم من دين الله تعالى ضرورة، فمن جحد وجوبها، فقد كذب الله وكذب رسوله صلى الله عليه وسلم فحكم بكفره ... وإن منعها بخلًا بها أخذت منه وعزر «أي أخذتها السلطة الشرعية منه بالقوة وعوقب عقوبة تأديبية تقدرها العدالة» وقال الشافعي في «القديم»: تؤخذ منه الزكاة وشطر ماله «أي نصفه» لما روى

(159) راجع كتابنا «فقه الزكاة» فمن لم يستطع، يكفيه أن يقرأ ما كتبناه عن الزكاة في كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام».

بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله، عزمة من عزمات ربنا، ليس لآل محمد منها شيء**»[160] ... وإن امتنع بمنعة قاتله الإمام، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة»[161] انتهى.

إني أخشى أن أعلق على هذا النص المشرق، فأنقص من قوة دلالته وإيحائه. ولكني أسأل فقط: أهذا صدقة إحسان، تلك التي تطالب بها الدولة، وتحكم بالردة على من أنكرها وجحدها، وتأخذها بالقوة ممن منعها، وتفرض عليه عقوبة قد تصل إلى مصادرة نصف ماله لخزانة الدولة، وتتدخل الدولة بقواتها المسلحة لقتال من منع هذه الفريضة وكان له شوكة، ومنعة، اقتداء بما صنعه أبو بكر رضي الله عنه في حرب مانعي الزكاة - حين قال كلمته المشهورة «لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه» وسانده في ذلك الصحابة الكرام.

موقفنا من عبيد الفكر الغربي:

هؤلاء هم عبيد الفكر الغربي، وهذا هو اتجاههم، وهذا هو موقفهم من الدعوة إلى الحل الإسلامي، أي إلى استئناف حياة إسلامية صحيحة يقوم فيها مجتمع إسلامي صحيح بكل مقوماته، وكل خصائصه، يقوده حكم إسلامي قوي أمين.

---

(160) الحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي، كما رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقد دافع عنه ابن القيم في «تهذيب السنن» (194/2) دفاعًا قويًا، انظر كتابنا «فقه الزكاة» (826/2 – 828 وما بعدها). الطبعة الحادية والعشرين - نشر مكتبة وهبة.

(161) «المجموع» (331/5، 332).

فما موقفنا - نحن رجال الفكر الإسلامي - من هؤلاء؟

إن الذي يحدد موقفنا من هؤلاء هو معرفة حقيقة مواقفهم وأفكارهم، وما وراء الأفكار من بواعث ونوايا وأهداف، فلا ريب أنهم جد متفاوتين من هذه الناحية وتلك.

العملاء:

فبعض هؤلاء حاقدين على الإسلام؛ دينه وكتابه وتاريخه وأمته، يحملون في جنوبهم روحًا صليبية، غذاها تعصب أعمى، وغل دفين وسياسات ماكرة، وإن تستروا تحت أقنعة وعناوين أخرى.

وهؤلاء لا حيلة فيهم إلا أن يشفي الله صدورهم، ويزيح الغشاوة عن أعينهم فيتبينوا فضل الإسلام، وسماحة الإسلام، وكرم أخلاق المسلمين، وإلا فالأمر كما قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وذلك لأن الحاسد لا يرضيه إلا زوال نعمتك، ومن حسدك لدينك لم يرضه إلا هدم دينك من أساسه. وقد قال الله في شأن قوم من أمثال هؤلاء قديمًا: **{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}** [البقرة: 120].

وقال في موضع آخر: **{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ}** [البقرة: 109].

وقال: **{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟}** [البقرة: 217].

الملحدون:

وبعض هؤلاء ملحدون في حاجة إلى أن يؤمنوا بالله ورسالاته قبل كل شيء، أي قبل أن نجادلهم في شريعة الإسلام، ونظام الإسلام، وحضارة الإسلام. فإن الخلاف إذا كان في الأساس والأصول لا يعالج بالنقاش في الجزئيات والفروع.

ربما يجدي أن نبدأ معهم من نقطة الصفر، ونعرف لماذا ألحدوا؟ لماذا كفروا بالله ورسله. ونفتح معهم حوارًا هادئًا رصينًا يقوم على منطق العقل الصريح، والعلم الصحيح، والبرهان القاطع.

لعلهم يجدون في الإسلام «إلهًا» غير الإله الذي كفروا به تقليدًا لغيرهم، وكتابًا غير الكتب التي سمعوا أو قرأوا شيئًا عنها، وشريعة غير التقاليد التي صبغت بصبغة الدين - زورًا - في الغرب أو الشرق.

فإذا استطعنا أن نزيل الشبهات التي علقت بأفكارهم، ونبين لهم ضرورة الإيمان بالله ووحيه ولقائه، أمكننا بعد ذلك أن نعالج الشبهات الفرعية التي تتراءى لهم في بعض ما يقرؤون أو يسمعون عن الإسلام؛ عقيدته أو شريعته أو حضارته أو تاريخه.

المقلدون:

وبعض هؤلاء ليسوا ملحدين من الأعماق، وإنما هم مقلدون للملحدين، وبعبارة أخرى: هم جهلة بالإسلام في حاجة إلى أن يتعلموا أو يستنيروا، وهذه هي فرصة، لتعليمهم وتنويرهم. من هؤلاء من لم يعرف الإسلام قط، ولم يقرأ عنه شيئًا، وإنما عرفه من واقع المسلمين، وسوء أحوالهم، وهذا ليس

حجة على الإسلام. ومنهم من عرفه مما كتبه الغربيون والمستشرقون عنه، وهي كتابة بنقصها التجرد والإنصاف، أو يشوبها الجهل بروح الإسلام، ولغته وبيئته. وهذه المعرفة يعتبر الجهل خيرًا منها.

إن علينا هنا أن نعرف ما عند هؤلاء من تساؤلات لنبحث عنها بما يقنع العقول ويشفي الصدور، وأن نتبع الشبهات المثارة لديهم، لنفندها بالحجج والبينات لا بالدعاوي والشعارات، ولا يتصدى لهذه المهمة إلا الراسخون في العلم، فإن من الدعاة من إذا تصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح، فليس كل خطيب مفوه، أو واعظ مؤثر لمحاورة العقلانيين المعاصرين.

ولكن المشكلة أن جهل كثير من هؤلاء من النوع «المركب» جهل الذي «لا يدري ولا يدري أنه لا يدري» وهذا هو الأمر الذي عبر عنه الشاعر قديمًا إذ قال:

إذا كنت لا تدري بأنك جاهل فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري؟

وبعض هؤلاء مفتونون بالقوة والغلبة والحضارة التي جعلت من الغرب سيدًا للعالم، ومكنته من السيطرة على المادة، والتحكم في قوى الطبيعة وتسخيرها لأغراض الإنسان، ومنافعه المادية الدنيوية العاجلة، فهم مولعون بهذا الغرب القوي المسيطر، وبكل ما جاء به، ولع المغلوب بتقليد الغالب، كما قرر العلامة ابن خلدون.

ولا أحسب هؤلاء يتنازلون عن هذا الولع المفتون - أو عن تلك العبودية للغرب - وحضارته ومفاهيمه وقيمه إلا إذا تبدلت موازين القوى، وكان للإسلام قوة ودولة وسيادة وسلطان.

مع الغالب المنتصر:

ويوم تتحرك الريح في اتجاه الإسلام، سنرى هؤلاء وقد خلعوا «البرنيطة» الغربية والفكرية، ولبسوا «العمامة» الإسلامية، وراحوا يملأون أنهار الصحف بتمجيد الإسلام، وأدب الإسلام!

ومن كان في شك مما أقول فإني أعرض عليه مثلًا واحدًا يؤيد ما أقول:

كلنا يعرف دعوة الدكتور طه حسين التي ملأ بها كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» والتي اعتبر بها مصر جزءًا من أوربا لا من الشرق، وزعم فيه «أن واحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية» وكان كل همه في الكتاب أن يثبت لمصر الشخصية المصرية الأوربية لا العربية ولا الإسلامية.

وأكثر من ذلك أنه في بعض أحاديثه الصحفية كان يقف بصراحة في وجه الوحدة العربية، ويخطئ الذين يدعون مصر إلى أن تدخل في هذ الوحدة القومية أو تقودها!!

فلنصغ جيدًا إلى هذا الحديث، ففيه عبرة وذكرى:

التقى محرر مجلة «المكشوف» البيروتية بالدكتور طه حسين وجرى بينهما هذا الحديث:

عندنا يا أستاذ من يريد أن تكون مصر زعيمة الأقطار العربية، ومرشدها إلى طريق الحرية والاستقلال؟

فأجاب الدكتور: «إن كنت تقصد بذلك تضامنًا ثقافيًا بين البلاد العربية،

فإن مصر مستعدة للدخول فيه، وأنا من أنصاره ودعاته. وإن كنت تقصد التعاون الاقتصادي فهو ممكن ومفيد. أما إذا كنت ترمي إلى أن مصر مستعدة للمساهمة في الوحدة العربية، أو القومية العربية، فأنت على خطأ، فالمصري مصري قبل كل شيء، وهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف. الوحدة العربية - كما يفهمها ذووها - يجب أن تتحقق بشكل إمبراطورية جامعة، أو اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكي أو السويسري، ونحن لا نرضى بهذا أو ذاك، ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين بأنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصلة في نفوسهم، وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وأن تقوى»!

ثم أخذ الدكتور طه حسين في حديثه هذا يذكر الأسس التي يمكن أن تقوم عليها الوحدة العربية ويناقشها، والروابط التي تربط بين مصر والبلاد العربية، فلا يراها كفيلة ولا كافية ولا موصلة إلى هذه الوحدة، وفي ذلك يقول: «إن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن أي بلد آخر، ومصر اليوم هي مصر الأمس، أي مصر الفرعونية، والمصري فرعوني، قبل أن يكون عربيًا».

وقال أيضًا: لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها «أو فرعونيتها» وإلا كان معنى طلبكم: اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام، وانسي نفسك واتبعينا»[162].

---

(162) نقل هذا الحديث عن مجلة «المكشوف» سلامة موسى في مجلته «المجلة الجديدة» عدد ديسمبر سنة 1938 كما في كتاب «سلامة موسى» لمحمود الشرقاوي (ص152). ورد على طه حسين ساطع الحصري في كتابه «بين مصر والعروبة». انظر «نقد الفكر

فهل ثبت الدكتور العميد على رأيه هذا في رفض القومية العربية، والإصرار على القومية المصرية الفرعونية؟

كلنا يجيب: أن لا.

لقد قامت في مصر بعد ذلك دعوة للقومية العربية، وللوحدة العربية، تبنتها الدولة، دولة الثورة، التي تمنح الجوائز التقديرية، وتملك أن توسع على من تشاء، وأن تضيق على من تشاء، فهل عارض الدكتور هذه الدعوة إلى القومية العربية والوحدة العربية؟

كلا، بل سار في ركاب الدولة مؤيدًا اتجاهها، إلى اليمين كان أو إلى اليسار، إذا تفرعنت فهو داعية الفرعونية، وإذا تعربت فهو داعية العربية، وطبعًا، إذا أسلمت فهو شيخ الإسلام!

ربما يقول قائل: ولماذا لا نفسر هذا التغير في الموقف السياسي، بأنه تم بناءً على تغير في الفكر، وتطور من الوطنية الإقليمية الضيقة إلى دائرة القومية الواسعة؟

ونقول: لا مانع من التسليم بهذا التفسير، وهو على كل حال تفسير ينفعنا ولا يضرنا، فإن الذي يتغير وينتقل من وطنية ضيقة إلى قومية واسعة، قابل لأن يتغير وينتقل من الدائرة القومية إلى دائرة إنسانية أرحب وأوسع، وهي دائرة الإسلام.

المتعالمون:

ومن أشد أنواع عبيد الفكر الغربي خطرًا: صنف ظهر حديثًا، لا أجد

= القومي» لإلياس مرقص (ص544) وما بعدها.

وصفًا يجليهم ويبرز سماتهم المشتركة إلا أنهم «المتعالمون».

هؤلاء الذين طلعوا على الناس بدين جديد غير الدين الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنًا من الزمان، وفهمته من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن هدى أصحابه عامة، وخلفائه الراشدين خاصة، ومن فهم سلف الأمة الذي أجمعت عليه في خير قرونها، فجاء هؤلاء بدين غير هذا الدين، وشريعة غير هذه الشريعة، ومنهج غير هذا المنهج.

فهم يقدسون القرآن، لكنهم يقرأونه - فيما زعموا - قراءة معاصرة، قراءة جديدة لا ترجع إلى أصول الفقه، ولا أصول التفسير، ولا أصول الحديث، ولا تأخذ بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في التفسير، لأن السنة عندهم مشكوك فيها، والبخاري ومسلم - فضلًا عمن هو أدنى منهما - حاطبا ليل، جامعان للعاطل والباطل، وتفاسير الصحابة والتابعين - وإن أجمعوا عليها - لا تلزمنا، فهم رجال ونحن رجال، وإجماع أئمة الفقه من كل المذاهب، ومن كل المشارب لا يلزمنا، فقد اجتهدوا لزمنهم، ونحن نجتهد لزمننا، وهم لا يملكون من شروط الاجتهاد كثيرًا ولا قليلًا، ولعل أحدهم لا يستطيع أن يقرأ آية من القرآن قراءة صحيحة!

ولو أنك أعطيت أحدهم صفحة من كتاب تراثي في أصول الفقه أو الفقه أو في التفسير أو الحديث أو علم الكلام لم يستطع أن يقيم لسانه في قراءتها - ناهيك أن يفهمها - لأنه لا يفرق بين فاعل ومفعول، ولا يعرف مرفوعًا من منصوب.

إنهم لم يدرسوا الثقافة الإسلامية، والثقافة العربية، في مصادرها الأصلية، ولم يستقوها من ينابيعها النقية، بل خطفوا صفحات من هنا، وصفحات من هناك وجمعوا قشورًا من هنا ومن هناك، واستقرت في عقولهم شبهات أو مفتريات من هنا، ومن هناك. ومن هذا الخليط تكونت ثقافتهم التي يباهون بها!

من هؤلاء من يعتبر القرآن نصًا تاريخيًا، يحكم على زمنه، ولكنه لا يحكم على زماننا.

وبعضهم يؤوله تأويلًا، لا يخضع لأصول منضبطة، ولا لقواعد معلومة، أشبه بما كان يفعله الباطنية قديمًا بطريقة جديدة.

وبعضهم يدعي أنه فوق الأئمة المتبوعين، وفوق شيوخهم من التابعين بل فوق الصحابة أنفسهم، فهو أفهم منهم لكتاب الله، وأفقه منهم لدين الله، وهكذا يفعل الغرور والإعجاب بالنفس لأهله.

ومعنى هذا: أن من حق كل امرئ أن يجعل لنفسه دينًا وفق مزاجه، وتبعًا لرأيه وهواه، وأن لا يوجد للناس مرجع يعتمدون عليه، ويحتكمون عند الاختلاف إليه، ما دام كل امرئ أصبح هو المرجع والمعتمد، وأن الدين الذي يفترض فيه أن يجمع الناس قد أصبح مفرقًا لهم، وصاروا شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون؛ لأن كل واحد اتبع سبيله الخاص، ولم يتبع «سبيل المؤمنين» فتفرق بهم السبل، وبعدت بهم عن صراط الله كما قال تعالى: **{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ}** [الأنعام: 153].

ومقتضى موقف هؤلاء: أن الأمة الإسلامية طوال قرونها لم تفقه دينها ولم تفهم قرآنها، ولم تعرف شريعة ربها، وأنها كانت أمة بلهاء مغفلة أجمعت على الضلالة، وزور عليها بعض الكذابين أحاديث عن نبيها فصدقتهم، ومشت وراءهم، وأن هؤلاء الجدد هم الذين جاءوا لها بطوق النجاء. رغم أنهم فيما بينهم مختلفون جد الاختلاف، وكل واحد من هؤلاء، أمثال محمد أركون في فرنسا، ومحمد شحرور في سوريا، ونصر أبو زيد، وسعيد العشماوي في مصر، ومحمود محمد طه في السودان، وأمثالهم من «المتنبئين» الذين يرون - في قرارة أنفسهم - أنهم أفضل من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفهم منه للدين الذي أرسله الله به، وتلقاه عنه الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان.

فمن هؤلاء من يريد «مركسة» الإسلام، ومنهم من يريد «رسملة» الإسلام ومنهم من يريد «تنصير» الإسلام. والإسلام هو الإسلام، بأصوله ومصادره وبأهدافه ومناهجه، لا يقبل تفسيرًا ماركسيًا، ولا رأسماليًا، ولا نصرانيًا. **{يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ}** [التوبة: 32].

عبيد الأمس شبه معذورين:

وأود أن أفرق هنا بين فئتين من العبيد المفتونين بالفكر الغربي، بين عبيد الأمس وعبيد اليوم.

وأساس هذه التفرقة هو المناخ الفكري والمرحلة الزمنية التي نبتت فيها فئة وترعرعت تحت ظلالها.

عبيد الأمس كان لهم شبه عذر في موقفهم من دينهم وتراثهم وحضارتهم، وهو موقف التمرد والعصيان والاستخفاف، وفي موقفهم من الفكر الغربي الدخيل، والحضارة الأجنبية الوافدة، وهو موقف الإذعان والاستسلام بل العبودية.

فقد نشأ هؤلاء والحياة مقبلة على عدوهم مدبرة عن أمتهم، والغموض والظلام يكتنف دينهم وتراثهم، وبريق الحضارة الغازية يخطف أبصارهم، وتمكن المستعمر المتسلط أن يختم على قلوبهم وأسماعهم، ويجعل على أبصارهم غشاوة، ويجعل بينهم وبين الإسلام الصحيح حجابًا مستورًا.

لقد نشأ هؤلاء في ظل نظام تعليمي عرفناه من قبل، وضع بذوره الاستعمار وغذاه، فلم يعرفوا عن الإسلام إلا قشورًا تافهة بل ممسوخة محرقة، موضوعة في أسوأ إطار، خليقة بأن تنفر من الإسلام ورسالته، لا أن ترغب فيه وتجذب القلوب والعقول إليه.

وهذا النقص الخطير قد لاحظه الغيورون الصادقون ونقدوه ونددوا به منذ زمن غير يسير، فنقرأ للمنفلوطي الأديب المشهور في «النظرات» هذه العبارات المتوقدة:

«إن عارًا على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث داروين ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري».

ولم يكن الخطر في قصور المعلومات الإسلامية وقلتها من ناحية «الكم» فحسب، بل كان في قيمتها ونوعيتها من ناحية «الكيف» أيضًا، فهي معلومات مشوشة ومضطربة، وغير مترابطة ولا معللة. وأهم من ذلك كله وأعظم تمثل الخطر في فلسفة النظام كله، الذي يقوم على الأسلوب الغربي، والتفكير الغربي، والمبادئ الغربية. وينظر إلى الإسلام كما ينظر إلى الكونفوشيوسية في الصين أو البوذية في كوريا، ويقدم للطلاب من المعلومات والدراسات ما يقربه إلى المستعمر وحضارته، بقدر ما يبعده عن دينه وشريعته، ويفصله عن أمته وتاريخها وأمجادها.

ومن لم ينضجه هذا التعليم من النابهين المرجوين، يسرت له السبل ليذهب إلى هناك، إلى الغرب في عقر داره، ومهد حضارته، ليتم إنضاجه، وتكمل تسويته، هناك على الوجه المطلوب، حتى يعود خلقًا آخر وإنسانًا جديدًا قد خلع زيه الشرقي القديم، وخلع معه قيمه وأفكاره التي تعلمها من دينه ومجتمعه من قبل ...

وكان من عند هؤلاء: أن الذين يتكلمون باسم الإسلام - في ذلك الوقت - فيهم كثيرون ممن تخلفوا عن ركب الحضارة أو جهلوا تطورها، كما جهلوا حقيقة الدين وروحه ولبابه، فوقفوا أحيانًا في وجه بعض العلوم النافعة، كما تشددوا في أشياء حسبوها من الدين، وإنما هي مما خالط الدين وليس منه. فحسبت أقوال هؤلاء المتزمتين وموافقهم على الإسلام، وهو منهم براء.

فلا غرو إذا رأينا هؤلاء العصريين، وقد جهلوا دينهم وتراثهم، وتاريخهم وثقافة أمتهم، وأساءوا الظن بكل ما يجئ من قبل دينهم وحضارتهم، والناس دائمًا أعداء ما جهلوا - وصدق الله العظيم إذ يقول: **{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ**

بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ} [يونس: 39]. وكذلك جهل هؤلاء الإسلام فعادوه وخاصموه. ولعلهم في ذلك شبه معذورون.

أقول: شبه معذورين، لأن الواجب عليهم - كان - ألا يحسنوا الظن بمستعمري أوطانهم ومذلي شعوبهم، وأعداء دينهم، وكان واجبهم ألا يسلموا قياد عقولهم لغيرهم، وألا يكونوا إمعات في تفكيرهم، وألا يجعلوا أنفسهم عبيدًا لغيرهم، وقد خلقهم الله أحرارًا.

وكان المنهج العلمي الذي تعلموه يقتضيهم أن يبحثوا عن حقيقة هذا الدين الذي جعل من قومهم - حين تمسكوا به وحكموه في حياتهم - خير أمة أخرجت للناس، وفتحوا به الممالك، وسادوا به في المشرق والمغرب، وأقاموا حضارة شامخة، استمرت نحو عشرة قرون، وأن يبحثوا في هذا القرآن الذي مضى عليه أربعة عشر قرنًا، وهو باقٍ لا يتبدل، يملك بسحره العقول والقلوب، ويتضمن أصح العقائد، وأقوم المفاهيم، وأرسخ القواعد، وأعدل الأحكام، وأزكى الأخلاق. وعلى أية حال، إذا كان هؤلاء شبه معذورين فيما مضى، فأي عذر أو شبه عذر لهم اليوم، وقد غدا الحال غير الحال؟

لم يعد صنم الحضارة الغربية على سحره وفتنته وبريقه كما كان بالأمس.

لقد ظهر للعيان إفلاس هذه الحضارة، وعجزها عن حراسة العدل والسلام بين البشر، وإقامة الحق والخير في الأرض، وتثبيت الإيمان والفضيلة بين الناس ... وبرزت آفات هذه الحضارة وعيوبها للأحرار من أهلها أنفسهم،

ووجهت إلى صدرها سهام النقد العلمي الأصيل من علماء ومؤرخين وفلاسفة ومصلحين وفنانين من أبنائها الغربيين[163].

ولم تعد حضارتنا الإسلامية مطمورة مجهولة، أو ممسوخة، كما كانت من قبل، فقد تجلى - ويتجلى كل يوم - للدارسين إبداعها وشمولها وتوازنها وسماحتها، وأنها الحضارة الفذة التي جمعت - بل مزجت - بين الربانية والإنسانية بين نور الوحي ونور العقل، بين الرقي المادي والسمو الخلقي، بين العلم الواسع والإيمان الراسخ، بين الثبات على المبادئ والغايات، والتطور في الوسائل والآلات، بين تحقيق الحرية للفرد، والحفاظ على مصلحة المجتمع ... وقد شهد بفضل هذه الحضارة العالمية الأصيلة شهود من سادة هؤلاء ومعبوديهم وكفى بهم عندهم شهداء.

ولم يعد ديننا العظيم «الإسلام» غامضًا أو مشوهًا، كما كان من قبل، فقد هيأ الله له من العلماء المخلصين والدعاة الصادقين في مختلف بلاد المسلمين من جلوا غوامضه، ونفضوا الغبار عن جواهره، وردوا الشبهات والأكاذيب عن أحكامه وتعاليمه، وعن نبيه وكتابه، وعن أمته وتاريخه.

وزخرت المكتبة الإسلامية - في شتى اللغات - بمجموعة رائعة من الكتب والدراسات ما بين مطول ومختصر ووسيط، أبرزت الأصالة والسمو والتوازن والتكامل والإعجاز في جوانب الإسلام كافة، في العقائد والعبادات والتشريع والأخلاق، وفي سائر مجالات حضارة الإسلام.

فليت شعري أي عذر شبه عذر اليوم لذلك النفر من قومنا؟ وما حجتهم

(163) اقرأ في ذلك: الفصل الثالث في كتابنا «الإسلام حضارة الغد» بعنوان: عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار.

عند الله وعند الناس إذا ظلوا مصرين على عبوديتهم القديمة، بعد أن تجلت لهم كل هذه الحقائق عن دينهم وتراثهم، وبعد أن انكشف للأعين البصيرة سوءات سادتهم من المستشرقين والمبشرين، فضحتها الأقلام الواعية المؤمنة، وكشفت اللثام عما في منهجهم ودراساتهم من القصور والانحراف والتحامل، واتباع الظن وما تهوى الأنفس؟ وبعد أن اتضح لهم من أحابيل اليهودية العالمية ما كان خافيًا من قبل.

نتمنى على هؤلاء النفر من بني جلدتنا، أن يراجعوا أنفسهم، وأن يصححوا موقفهم، ويعودوا بشجاعة إلى حضن أمتهم، ولا يظلوا جامدين على ما كانوا عليه. فالمثقف الحر المخلص هو الذي يركض وراء الحقيقة حتى يعثر عليها، فإذا وجدها أعلن عنها، وإن خالفت ما كان يؤمن به بالأمس.

وبارك الله في رجال انكشفت لهم الحقيقة، فأعلنوها ولم يبالوا. مثل: دكتور مصطفى محمود، والأستاذ إسماعيل مظهر، والأستاذ خالد محمد خالد، وغيرهم كثيرون، ممن صدق فيهم قول الله تعالى: **{فَبَشِّرْ عِبَادِ 17 ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ}** [الزمر: 17، 18].

كلمتان أخيرتان:

وأود أن أختم هذا الفصل بكلمتين أخيرتين:

الكلمة الأولى: أن خصومتنا لعبيد الفكر الغربي من بني جلدتنا، لا تعني أن نعرض وننأى بجانبنا عن الفكر الغربي كله، شره وخيره، ومره وحلوه،

وخطئه وصوابه، وباطله وحقه. بل المطلوب أن نستفيد من إيجابيات الفكر الغربي، ونتجنّب سلبياته، ونقتبس من خيره ونبتعد عن شره وخطئه. ومقتضى هذا أن ندرس الكفر الغربي بمدارسه المختلفة، واتجاهاته المتعددة، لنكشف ما فيه من حق وخير فننتفع به، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

قد نرفض الفكرة الكلية، أو الفلسفة الكلية لمذهب ما، أو لمدرسة ما، ومع هذا قد نجد في تضعيف هذه الفكرة أو الفلسفة من المفاهيم والأفكار الجزئية، ما يفيد البشر في بعض شؤونهم أو يوافقهم.

وقد ذكرت في أكثر من كتاب لي؛ أننا لا نمانع أن نقتبس بعض الأفكار النافعة من نشوئية «دارون» أو مادية «ماركس» أو تحليلية «فرويد» أو اجتماعية «دوركليم» وإن كنا نرفض الفلسفة الكلية لكل منهم. ولكن رفضنا لهذه الفلسفة لا يعني أن يكون كل ما قالوه، خطأ بالضرورة، فقد يصيب المخطئ، ويصدق الكذوب.

إن رفضنا العبودية للفكر الغربي لا يستوجب رفضنا للفكر الغربي كله، ففيه قطعًا ما ينفع. المهم هنا أن نقرأ ما شئنا أن نقرأ، ونقتبس ما شئنا أن نقتبس، ونحن أحرار لا عبيد، مستقلون لا تابعون، رؤوس لا أذناب.

الكلمة الثانية: أن العقود والسنوات الأخيرة في ديارنا، قد شهدت تحول كثيرين من الذين اقتنعوا بالفكر الغربي، وساروا في دربه ردحًا من الزمن إلى ساحة الفكر الإسلامي، حتى أصبحوا من دعاته والمتحمسين له، والمدافعين عنه.

وقد عرف الناس كثيرًا من هؤلاء الشجعان الأحرار، مثل إسماعيل مظهر، ودكتور مصطفى محمود، وخالد محمد خالد، وغيرهم في مصر، وأمثالهم في البلاد العربية الإسلامية.

ولا زالت الساحة الإسلامية - ما بين الحين والحين - تكسب عناصر قوية، ومفكرين شرفاء، يغيرون مواقعهم، ويتحررون من أسرهم الفكري المتغرب، ليعلنوا في شجاعة انضمامهم إلى الركب الإسلامي الزاحف: **{وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ}** [الصف: 8].

* * *

(6)
المترفون والمتحللون

المترفون والمتحللون

العدو السادس من الذين يعادون الحل الإسلامي، ويتوجسون منه، ويقفون في وجهه: صنف من الناس وقف دائمًا في وجه كل رسالة، وقاوم كل دعوة إلى الحق والعدل، أولئك هم المترفون والمتحللون وأصحاب الشهوات ... فهم حريصون على لهوهم ومتعهم، حريصون على شهوات بطونهم وفروجهم، حريصون على أن يظلوا غارقين في الذهب والحرير، والخمر، والميسر، في الموائد الخضر، والليالي الحمر، والمسالك السود.

هؤلاء يخشون الإسلام، لأنه سيحرمهم متعهم الحرام، وسيسد في وجوههم أبواب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، بل ربما يقيم عليهم حدود الله التي تهتك سترهم أمام طوائف المؤمنين الذين لا تأخذهم بهم رأفة في دين الله.

إن حياة العفاف والطهر والنظافة ثقيلة على هؤلاء كالجبل، مرة المذاق كالحنظل، دقيقة مخوفة كحد السيف.

إن أضواء هذه الحياة الشريفة الجادة الطاهرة تعشي أبصارهم، لأنها لم تتعود إلا حياة الظلام والسواد كالخفافيش.

حياة بلا خمر ولا ميسر ولا نساء؟!

حياة بلا رقص ولا فجور، ولا عبث ولا مجون؟!

حياة بلا حانات ولا كباريهات؟!

حياة يجلد فيها السكيرون، ويعزر فيها المقامرون ويحجر فيها على السفهاء المبذرون، ويجلد أو يرجم الزناة ودعاة الشذوذ والدياثة؟!

إن حياة من هذا النوع إنما هي جحيم لا يطاق ... والواجب أن يحارب أنصارها، ويطارد الدعاة إليها.

هذا هو منطق المتحللين، وأصحاب اللذات الحيوانية منذ عهد قوم لوط الذين: **{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ 161 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ 162 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ 163 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ 164 أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ 165 وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ 166 قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}** [الشعراء: 161 - 167].

كما ذكر القرآن في آية أخرى: **{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [النمل: 56].

يا عجبًا!! إن الدعوة إلى الطهر والفضيلة أصبحت تهمة في نظر المتحللين وتستحق أن يطرد أصحابها من البلد وينفوا من الأرض ... **{إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [الأعراف: 82]!!

هذا هو منطق المترفين والمتحللين قديمًا - وهذا منطقهم حديثًا «تشابهت قلوبهم».

وأكد القرآن هذه السنة الاجتماعية حين بين لنا أن المترفين دائمًا أعداء كل رسالة، وخصوم كل إصلاح وتجديد، وأنصار الجمود على كل قديم.

قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ**

كَٰفِرُونَ} [سبأ: 34]

وقال سبحانه: **{وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ 23 ۝قُلۡ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ}** [الزخرف: 23، 24].

فالقوم عبيد شهواتهم، وإنما يتخذون الآباء عكازًا يتوكأون عليه، وهذا دأبهم دائمًا: يفرون من المواجهة، وينقلون إلى ميدان آخر، كالحفاظ على تراث الآباء، هنا!.

وأحيانًا أخرى يجعلونها قضية فكرية «أيديولوجية» فهم يرفضون الدين كله بوصفه عقيدة وفكرة ومنهج حياة، لا لأنه يلزمهم الجادة، ويفرض عليهم الاستقامة، ويقيدهم بالفضيلة، وهم أسرى الهوى، وعباد الشهوات، كما هو الواقع.

بل هم يرفضون الدين - بزعمهم - لأنهم غير مقتنعين بالدين، لأنهم «علميون» أو «واقعيون» أو «عصريون» أو «ملحدون» أو «ملحدون» «والدين رجعية» و«الدين خرافة»، و«الدين مخدر».

الحقيقة أن القوم منحلون، لا ملحدون، أعني أنهم انحلوا أولًا من كل فضيلة وشرف، وانغمسوا في كل رجس ورذيلة، ثم بحثوا عن مبرر يسترون به سوءاتهم، مبرر يحلل لهم الاستمرار في الخبث والنجس والعفن، مبرر يعفيهم من تحمل مسؤولية انحرافهم وتلوثهم أمام ضمائرهم على الأقل، فوجدوا هذا المبرر في بدعة الإلحاد، وخلع ربقة الدين، والسخرية من

المتدينين المستقيمين، أن يقولوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر!

وصدق ما قاله شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود: إن الإلحاد في ديارنا ليس إلحاد عقل وفكر، ولكنه إلحاد بطن وفرج!!

ومثل هؤلاء المترفين والمتحللين - بل منهم - كثير من أصحاب المال والسلطان والملك، من الحكام المستبدين، والإقطاعيين المتسلطين، والرأسماليين الجشعين، وكل ذي سلطان حرام، أو ثروة حرام، أو امتياز حرام، فهو يخشى من النظام الإسلامي أو المنهج الإسلامي أو الحل الإسلامي، أن يعامله بالقسط، ويحاسبه بالعدل، ويقومه بالحق، ويجرده من سلطته أو امتيازه أو ثروته، أو مكاسبه التي حصل عليها ظلمًا وعدوانا، ولا يتيح له من الفرص أكثر مما يتيح لغيره من بني قومه.

هؤلاء المحتكرون للمال والجاه، المستغلون لعرق الكادحين من جماهير الأمة، الآكلون لأموال الناس بالباطل، المتمتعون بالامتيازات والفرص الذهبية، التي لم يتح عشرها، أو عشر عشرها لغيرهم، الفاغرون أفواههم لابتلاع الرشا بالملايين، يخافون حكم الإسلام ويكرهونه.

وكراهية هؤلاء للحل الإسلامي، إنما هي كراهية اللصوص للقانون العادل الذي يخشون سلطانه، ويخافون جزاءه، أو للشرطي الشريف الذي يقبض عليهم بشجاعة، أو للقاضي النزيه الذي لا يقبل رشوة، ولا ينحني لسطوة، ويحكم عليهم بالقسط لا يخاف في الله لومة لائم.

ولكنهم أخبث وأدهى من أن يعلنوا ذلك أو يصرحوا به. بل يعلنون شيئًا

آخر يعللون به معاداتهم للاتجاه الإسلامي - مثل اعتذارهم بوجود الأقليات غير المسلمة، أو قولهم: إن عصرنا أصبح عصر العلم لا عصر الدين، كأن الدين والعلم خطان متوازيان لا يلتقيان!! أو ادعاء بعضهم أن العالم قد تطور ولم يعد يصلح أن تحكمه شريعة عمرها أربعة عشر قرنًا!!

إلى غير ذلك من الأباطيل والشبهات التي تجيد صناعتها وإذاعتها القوى العالمية المعادية للإسلام في الخارج، وعملاؤها وأعوانها في الداخل، من الاستعمار وتلاميذه، واليهودية ومؤسساته، والشيوعية وذيولها، ومن عبيد الفكر الغربي الذين يرددون ما يقوله هؤلاء من حيث يعلمون أو لا يعلمون، ومن الحكام المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما يؤمرون: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ 11 أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ}** [البقرة: 11، 12].

* * *